الإمام

علي بن أبي طالب

الجزء السابع

تأليف

عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان

بيروت



الفصل الأول

١

الى المدى الذى تستطيعه خطا التغافل المتثاقلة ، مشى الدواء الذى استطب به ابن ابي بكر من محنة مصر على درب الوقت ، جنبا الى جنب ، مع غد كسبح تبنته الكوفة !..

محنة ممطوطة ، ودواء كأنه داء . وليل بلا صباح ..

ولم تكن الحاضرة الاسلامية ، حينذاك ، تشكو من عجز أو من قلة . فجمعها غفير ، وخيرها كثير .. ولكنها بدت كالمضيع في بيداء قد مسه جنون الظمأ .فحار أين يتجه الى الماء . اذا لاحت لعينيه مظاهر الحياة في بقعة بين اثناء الرمل ، خايله بها شبح الهلاك وقد ظنها صورة موهتها يد السراب . واذا طالعه وهمه بخضرة نضرة ، ظنها واحة فيحاء فيها ما ينقع صداه . فهو بين الحقيقة التى تريبه ، والسراب الذى يستهويه ، لا ينى يحرك الخطا على تردد ، يقدم ليحجم ، ويقبل لينكص ، ثم لا يجاوز آخر الأمر ، مهما جد في السعى واسرفت عليه قدماه بالطواف ، غير دائرة التيه !..

تلك آونة سيطر الضياع فيها على دولة الامام بما رحبت وبمن ضمت من جماهير كثيفة من سكانها في كل مكان .. في الكوفة والبصرة . في اليمن والحجاز . في مصر وفارس . في الثغور والأطراف . لا فرق في جموعهم بين عامة وسادة ، رعية وحكام ، همل وأشراف ..

أمة اخذتها غفوة فنام فيها الشعور وهمد التفكير .. لا مبالاة ولا اكتراث . تعيش واقعها الثقيل صاغرة كأنه قضاء نازل وقدر محتوم . وترنو الى الاحداث بعين مطبقة الجفون مسترخية الأهداب . وتجرفها الدنيا في تيارها الهادر الى غد تعلم حق العلم انه ظلم أو انه ظلام فلا تحاول أن تتهيأ للقائه الكريه المنتظر وفي يمينها سلاح او ذبالة مصباح !..

ويا ما كثر على السنتها الكلام !.. ويا ما توالت الوعود والعهود ! ولكنها ظلت دائما حريصة على الإخلاد للواقع ، والالتصاق به ، كأنه

الحياة ولا حياة سواه .. تماما كالحالم يغزو أقطار الأرض ، ويثل عروشـــها ، ويطأ بقدميه المربدتين صوالجها وتيجانها وهو ملتحف بدفء الفراش !.. تماما كالثمل يستعلى على الناس ، ويستذلهم في رؤاه المخمورة ، وهو يتمرغ عند مواطئهم في الوحل والتراب !..

أيام طويلة تمضي والموقف هو الموقف ، والوضـــع هو الوضـــع بلا تغيير .. الوعود تترى ، ولـكنها دائما حبيسة قول معســـول . الأقدام تتحرك ولكنها دائما لا تسير . السلاح يجتمع ولكنه دائما في الأغمـــاد .. ومالك بن كعب من ورائهم يســـتحث التنفيذ فلا يظفر الا بالموعد الذى لا يحين ــ بكلمة « غدا » ، وغدا كما هو معلوم ، موعد يتجدد ، ويتأجل الى الأبد الآبد ، مع كل نهار !..

ولم يملك الإمام إلا الصبر ، أو هو لم يملك ســـوى القنـــوط . وما حيلته في هذا البلاء الداهم الذى يحييه في مجتمع لا يجمعه راى ، ولا تغضبه حمية ، ولا يحمســـه دين ؟.. ما قصاراه والقوم يتشبثون بالدعة لانها تهبهم الحياة ، ويؤثرون العيش وان تلمســوه في كنف الخزى والذل والهوان ؟..

وكذلك انقضى الموعد المضروب على سيرهم لمصر مع مالك بن كعب لنجدة عاملها ، والانتصاف لاهلها وارضها من عدوان الشام . فمصر عندئذ تحفها المكاره ، وســـيرهم اليها يسلبهم الدعة ، والقتال عليهـــا ــ كأى قتال ــ هو في حسبان ضمائرهم الغافية وجه مكروه . ولو انك استبطنت دخائلهم اليوم ، لرايتهم يكرهوته ، ويقعدون عنه ، وان دوهموا في الكوفة بجيش صغير !..

شهر من الزمان فات على الوعد والاعداد عاشه ابن ابى بكر في جحيم الانتظار .. لا اثر لنجدة . لا ظل لمندوب . لا كلمة تقبل عليه من صوب الكوفة تبشره بجيش الانقاذ . انما الانباء تأتيه سراعا بتقدم عمرو على أرض النيل باعداد من الجند لعل القلق في خياله ضاعفهم بضعة أضعاف . وبجموع من الثائرين عليه ، يلحقون بهم ، أو يزودونهم بالمؤن والسلاح ، ويبسطون امامهم ما جهلوا من فجاج ودروب في تيه الصحراء وعلى التربة الخضراء .. ومع ذلك فقد نثر الفتى ما بجعبته ، ونشط ومن معه لساعة الفصل ، وان جهد وسعه ليستأخر بها حتى حين عسى الايام أن تطلع عليه بأمله قبل أن تحين !.

كالبخيل الذى يمسك كفه ، وينفق بقدر مقدور لا يجاوز الكفاف ، أطلق الفتى جيشه للقاء المغيرين . لم يلقهم بكل حشده ، وان كان ذلك « الكل » لا يكاد يعنى شيئا في منطق الحروب ، ولا يكاد ايضا يغنى أمام قوة عدوه التى بارحت الشام لتعز عدة ونفرا بالذين استلحقت وآزروها من النافرين والمنتقضين وثعالب خربتا التى ابرزت مخالبها وخرجت من أوجرتها مسفرة بعد طول انجحار ..

سرح محمد بن أبى بكر الى جيش عمرو مقدمته ، في ألفين ، عليهم كنانة بن بشر ، كأنما يرجو بهم أن يناوش القوم ويؤخر تقدمهم ما وسعه التأخير حتى يقدم عليه المدد الموعود . ولقد أصاب حين فعل ، لانه لاءم بين الأمل ، والقدرة الممكنة ، وظرف اللقاء . ولقد أصاب ايضا ، لان غريمه سلك حياله مسلك مخدوع فلم يرمه بكل قوته وهى عندئذ طوفان حرى بأن يغرق قوة الدفاع ، وينهى المعركة في سويعة ينفتح أمامه بعدها الطريق الى الفسطاط .. لكن ابن العاص ، فيما بدا — عن هيبة أو عن تريث — آثر أن يدنو على حذر ، كأنما ليتحسس الأرض تحته أو يسبر غور خصمه ، او ينتقص رويدا رويدا من مقاومته ، فراح يرميه بكتائب الشام : كتيبة كتيبة ، أملا في نصر رخيص لا يكلفه سوى القليل ..

موجة بعد موجة توالت الهجمات الشامية على جيش الدفاع الصغير فاذا هى تتكسر على صخرته ، ثم ترتد لتنحسر ويهدأ الصراع فترة ليشب من جديد . ما تقدمت كتيبة منها الى الجيش المصرى ، تحاول أن تقتحم عليه موقعه ، الا ثبت لها ابن بشر برجاله ثم ضربها فأعادها مقهورة إلى ما وراء الشقة الحرام . وما تراجعت كتيبة بعد فشل ، تلعق الدم ، وتضمد الجروح ، وتلتقط الأنفاس ، الا تقدمت اخرى الى الميدان تحاول بدورها كسر حدة الغريم العنيد . لكن كنانة ابن بشر لم يكن لينكسر ، ولم يكن لينكص وينقلب على عقبيه ، وامامه شهادة أو نصر كلاهما تشتهيه نفسه ، ذيادا عن الحق ودفعا لقوى الباطل أن تنتصر وتسود .

واخذت مراحل ذلك الصراع تتعاقب حلقات متشابهة في سلسلة طويلة بلا مدى معلوم . فلا الهجوم ينتصر ، ولا الدفاع ينكسر ، ولا اى الفريقين يجول بخاطره ان يطفىء سعير القتال ، او يجنح لراحة في هدنة مطلقة أو محدودة تكف عنه ، ابدا أو الى حين ، عوادى الهلاك .

إنما مضى الموت ، على ظبا الأسنة ، يتخطف ن شاء من هنا ومن هناك . وراحت الخسائر في الأرواح والسلاح ، تنتقص من الجيشين ما شاء لها الاضرار .

وكانى بعمرو قد ايقن أن خطته تلك غير مبلغته غايته من النصر الرخيص الذى ارتجاه .. لعله توجس ان يكون وراء هـذا الثبات العنيد خدعة ينكشف عنها طول أمد القتال . ربما لمح بارقة خطر ، أو خشى ان يطلع الغد عليه بمدد يؤازر عدوه فيهدم رجاءه ، وينكس لواءه ، ويسلمه وجيشه العادى إلى مصير مهين ..

كيفما كان تقدير الرجل آنذاك فإنه مل لعبته ، أو خطته ، وركبهمن ملله تطلع الى حسم الأمر بما لايدع مجالا لنشوء احتمال آخر ، غير النصر ، يلون النتيجة . وما كان له الا أن يسارع بذلك بعد أن تكرر ارتداد كتائبه ، وتكسرت امواجها تباعا على صخرة المقاومة العنيدة . وماله اذن لا يدع ما يريبـه الى ما لا يريبـه ، والأمور قد جرت أخيرا بما اشتهى فاكتمل له ، من خارجة مصر ، جند كثيف ، كأنه الجراد ، لو انه انتشر على أديم الموقعة وخلى بينه وبين عدوه لاجتثه وما ترك منه عودا أخضر ؟..

وعلى الأثر بعث الى معاوية بن حديج الكندى ، يستمده ويستنجد به من الموقف المتميع الذى وضـع فيه نفسه واجناده .. فان هو الا قليل حتى جاءه الرجل ، في اعداد من انصاره مثل الدهم ، يزحمون الميـدان ، ويسدون على القوة المصرية المدافعـة منافذ الخلاص من كل ناحية ..

حتى الحركة لم تعـد ميسورة لفرقة الدفاع . وحتى الارتداد لتقويم الخطوط وتنظيم تكتل متماسك يكر على العدو من بعض اطرافه لم يكن في الطاقة .. فقد رمت الخارجة بكل ثقلها في وجه كنانة ومن حوله . وضغطت عليه ضغطا شديدا التصق فيه الناس بالناس . وحطت تغشيه من أقطار ساحة المعركة ، تماما كما يحط الجراد على شـجرة خضراء يغطى الجـذع والورق والفروع ثم لا يطير عنها الا وهى خشبة يابسة جرداء !..

ولم يجزع ابن بشر . ولم الجزع وهـذا احد امليه يأتيـه ؟.. الشهادة الآن على كثب منه . الجنة تخايله وتناديه ، وليس بينه

وبينها الا ان يثبت حيث كان ، يستقبل الموت وهو راض قرير ..

ونشط للجحافل الكثيفة ومن معه من بقية المدافعين يحاول ان ينقب سورهم الآدمي ويهدم جدره ما وسع سيفه ان يضرب ، ووسع فرسه ان تثبت على قوائمها ، وتتحرك به في تلك الرحلة القصيرة الميتة .. انه يكر ويرمي بنفسه على عدوه فاذا الكرة ترجمه ولاتدفعه الى الأمام كأنما يصطدم بمطاط !.. وانه ليثغر في صفوفهم فاذا الثغرة التي يفتحها تلتئم على الفور كأنما هو يحفر في ماء !.. حتى اذا رأى فرسه عجزت عن الحركة ، لفرط تزاحم عدوه عليه ، وثب عن ظهرها الى الأرض ، وارتمى على الحشود المطوقة يعمل فيها سيفا يتحرك كشيطان !..

واخذ يتلو وهو يضرب في ذلك السور الآدمي المنيع :

« وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا .. » .

وملكت سورة القتال أصحابه فنزلوا جميعا نزوله ، يخالطون عدوهم ، وينازعونهم مواقع الأقدام . وتغشت الموقف غاشية من الاضطراب والغموض لا يكاد احد يعرف في ظلامها مدافعا من مهاجم ، ولا وليا من خصم ، ولا بشائر نصر من بوادر هزيمة .. فالصراع لم يعد معركة حربية تحكمها قواعد التنظيم وتناسق التحركات بقدر ما غدا لقاءات عشواء أو شبه عشواء ، تشتبك فيها اليد باليد ، ويصطدم الجسد بالجسد ، ويصطرع القوم في نطاقها على الشبر من الأرض ليتيح للرجل منهم موضعا لقدم واحدة تحمله ، وعلى كوة في جدار الأجسام الملتصقة المرصوصة ، تفسح له في نشقة هواء !..

غير أن الايمان والشجاعة والاصرار لم تكن وحدها العوامل التي ترجح كفة كنانة ، وتشيل كفة ابن العاص .. فلقد فرغت الجعبة ، وجف الزيت ، وأخذت الذبالة تترنح وهي تخفق خفقاتها الأخيرة .. لم تعد في المقاومة بقية جهد ولا ذماء طاقة . حانت الخاتمة . حم القضاء . جاءت الشهادة تجتبى الأخيار ..

واستشهد ابن بشر وهو على تل من الجماجم !.. فلو استطعت عندئذ معاينة سيفه ، لوجدت على شفرته قطرة دم من كل قتيل . ولو استطاعت جثثهم ان تنطق ، لعاتبته على حدة الطعن وعبقرية

القتال !.. واستشهد مع القائد الباسل جمع جم من رجاله خلا بموتهم الميدان وفتح الطريق امام العادين ..

وعندما وسع ابن العاص ان يسترد بعض نفسه المبهور ، وينقشع عنه كابوس غمة الدفاع الرهيب ، ثم يتحرك ليفضي ببقية من معه إلى مؤخرة جيش مصر ، لم تكن ثمة حياله مقدمة ولا مؤخرة ، لأن القتال التهم من ثبت ، والهزيمة طارت بمن امتد به اجله ، وطوحته بعيدا ، بعيدا ، عن الميدان .

عن ابن بكر ، بعد أن مات كنانة وتقطعت الوسائل بقيادة الدفاع ، انفضت بقية جنوده ، وتفرقوا فرادى، وقد أعضل الموقف بهم ، وايسوا من جدوى الثبات والمقاومة دع توقع الغلبة والانتصار . بل لعلهم وجدوا الثبات عندئذ عصيا عليهم ، لا يدانى نطاق القدرة وان دخل في نطاق الرؤى والأحلام !.. بل لعلهم — والألوف المعادية تضغطهم — رأوا انهم على حافة منزلق لا يملكون عندها غير التردى من عل في هاوية بعيدة المهوى ، غائرة القاع !..

تلك كانت الحال ، وذاك كان السلوك الذى سلكه جيش ابن ابى بكر والستائر تنسدل على « المنشاة » كمعركة مصير .. واذا كان القدر قد شاء فان مشيئته لم تكن غير صدى لهمة الكوفة واهلها القاعدين !.. واذا كانت بقايا الدفاع عن مصر قد اكرهت على التفرق والانسحاب من الميدان . فان كنانة بن بشر كان خير اسوة لهم لو انتفعوا بالقدوة ، فعقدوا العزم وتمسكوا بالثبات . وإذا كانت ظنونهم قد خالت التشبث بمواقع الاقدام بعد مصرع كنانة ومحنة قواته محالا من المحال ، فان الشهادة — في حالة ابن بشر ، وفي كل حالة — ليست ضربا من المحال !.

٢

طبيعة البشر ، بلا شك ، اضافت سطرا ـ عبارة ـ كلمة واحدة ـ إلى سفر الأسباب التى أدت إلى هزيمة جيش محمد بن ابى بكر ، ذلك اليوم من صفر ، في « المنشأة » على مسافة غير بعيدة من الفسطاط .. فنفره قليل وعدوه وفرة كاثرته ببضعة اضعاف .. وضغط الوقعة عليه فاق قوة الاحتمال . والرجاء في نجدة عاجلة تشد ازره لاح اعصى من المحال ... واليائس المضيع ، الذى يشق عليه الصبر ، حين تتبدى له ثغرة في سور الموت المحيط به من كل جانب ، لا يحركه عندئذ عقله ، وانما تقوده غريزة حب البقاء ..

على هذا النحو اصبحت بقية القوة الدفاعية بعد تلك الأمواج الهادرة المتلاحقة من الهجوم ، وبعد طوفان خارجة خربتا وانصار الشغب وسيطرتهم على ساحة القتال .. ولا لوم هنا على رجال ابن ابى بكر حين ينفضون أيديهم من قتال لا غناء فيه ولا جدوى لهم من ورائه ـ طال او قصر ـ غير الهلاك ، ما دمنا نقيسهم بمقياس الطبيعة البشرية ، التى تدور في فلك « الممكن » لا في فلك « الأمثل » الذى ينبغى ان يكون ! .. ولا لوم أيضا على محمد لو أخضعته هذه الطبيعة لسلطانها ، وجرفته بعيدا عن ساحة الموت إذ يتلفت فإذا المكان حوله خال ، قد هجره أصحابه ، فلا ناصر ، ولا رفيق ...

شريدا مضى الفتى عن موقع القتال ، يضرب في الأرض على مهل او على ذهول ، إلى غير غاية .. وهل من مقصد لتائه مضيع ؟.. وهل من هاد لوحيد حيران ؟.. بل لا يفرق بين مشرق ومغرب ، نهار وليل ، أخضر وجدب ، معمور وخراب .. وعيه انطمس ، وجمرة فكره تحولت إلى رماد . يتخبط في ظلمة .. يهيم في ضياع .. يفكر بقدميه ؟..

اهل الكونة ايضا كانوا يفكرون بالقدم الضالة التى لا تعرف الى اين تسير ، تماما كابن أبى بكر وان اختلف بينه وبينهم المعيار ، اذ تكرهه طبيعة محنته وتتحكم فيه ، بينما يصدرون هم ، في سلوكهم الزائغ ،

عن اختيار !.. فما حركهم حدث . ولا حمسهم خطر ، ولا القوا السمع لدعوة داع تحثهم على العمل ، وتبصرهم بعواقب الجمود الذى آثروه .. وحتى حين حفزتهم النخوة اخيرا ، وشاءت لهم أن يلبسوا رداء المروءة ، كان كل قصاراهم بضع مئين غاية ما يقال عنهم إنهم « لافتة » جيش ، أو « شعار » يعلن عن الرغبة في النجدة ـ مجرد رغبة ! ـ وليسوا بقوة حربية فعالة ، تستطيع أن تؤثر في مصير معركة النيل ..

كانوا نوعا من التظاهر بالانصياع لأمر الامام ، والولاء الذى لا يستبطن الطاعة المجدية وإن خلع ثوب العصيان !.. ام لا فما جدواهم ولما ينتظم لهم عقد إلا بعد مرور شهر وبضعة ايام على دعوة الاستصراخ والاستنجاد ؟.. ما جدواهم وانهم لالفان يعلمون حق العلم أن اجتيازهم مراحل السفر البعيدة الى مصر سيضعهم في مواجهة عدد يقارب ثلاثين الفا كلهم مطيع مصابر عنيد ؟.. فان يكونوا تخيلوا القدرة على المواجهة ، او غرهم في انفسهم شيء ، افكانوا يحسبون الأحداث رهن مشيئتهم ، تجمد حيث هى فلا تتحرك الا اذا تحركوا وشدوا معهم الشمس لتسطع على ساعة اللقاء التى يريدون ؟..

بل هو وهم ما خالوا ، وعبث ما فعلوا ، وهباء وقبض الريح ما توقعوا أن يكون !.. فالمقدمات هى التى تنجب الخواتيم . والعاقبة مرئية معلومة ، لكل إدراك ثاقب نابه او ساذج غرير . والفاجعة مقدورة محتومة ، من قبل أن تتحرك اليها قدم ، أو تطيف بموقعها عين .. وكفاهم دلالة عليها ، أن الإمام إذ خرج يشيعهم ، قد أقتحم جمعهم المتذائب القليل بعين غائمة ، وهتف في هدوء حزين :

« سيروا .. والله ما أنتم !.. ما أخالكم تدركون القوم حتى ينقضى امرهم !.. » .

فانطلقوا ..

لكنها انطلاقة الكرة من المطاط لا تلبث ان تعود ادراجها حيث كانت حين يستقبلها جدار !.. فإن هى إلا خمس ليال يسيرونها بين أثناء الرمل على دروب الصحراء ، حتى كان القدر قد ابرم قراره ، وجاء بنبئه رسولان من الشام ومن مصر يحملانه إلى الكوفة ..

من الشـــام قدم عبد الرحمن بن مسيب الفزارى ، وعلى وجهه ذهول المبغوت ، فدخل على الامام يخبره الخبر .. كان الرجل عينا في الأرض الأموية لعلى ، يشيم الأخبار ، ويستقرىء حركات القوم وسكناتهم ليفضى إلى صاحبه بما تكن أو تعلن ، ليكون من أمرهم على بينة .. فلما دهمه أمر المنشـــأة ، تسـلل بليـــل يحث مطيتـــه إلى أمير المؤمنين ..

قال يرسم مشاهده :

« .. ما خرجت من الشـام حتى قدمت البشرى اليها من قبـــل عمرو بن العاص ، يتبع بعضها بعضا بفتح مصر .. » .

ثم ؟..

« .. وقتل محمد بن أبى بكر .. » .

ثم ؟..

« .. وأذن معاوية على منبر دمشـق بقتله ؟.. »

سلسلة طويلة من الهم والوصب والعـذاب طوت مراحلها بضع عبارات مجردة جافة لا تكاد تفصح عما لعل الفتى عاناه ، أو تومىء الى صدى الدوى الذى تفجر في نفس السـامع وهو يصغى بأذن مرهفة، ووجه جامد متوتر الأسارير .. ولكنها لا ريب كانت طعنة مصمية تمزق القلب وتحطم الكيان .

وأكمل الفزارى حديثه :

« .. ووالله ، يا أمير المؤمنين ، ما رأيت قط سرورا مثل سرور رأيته بالشام حين قتل محمد .. » .

فلم يزد الامام على ان خفض راسه ، كأنما ليخفى عن صاحبه دمعة أسى همت أن تنحدر على وجنتيه ، وهو يقول :

« .. لقد فقدنا حبيبا ، وفقدوا بغيضا !.. أما ان حزننا على قتله لعلى قدر سرورهم به ، لا ، بل يزيد أضعافا .. » .

والكلام ، ابلغ الكلام ، لا يســـتطيع في مثل هذا المقام ان يصـــور العاطفة ، أو يكون أداة قادرة على التعبير . هو عندئذ اشبه بمرآة

نقية الصفحة ، ينعكس على صقالها الشكل عن الأصل ، دقيقا واضحا بكل تفاصيله ولكنه لا يزيد بعد عن مجرد صورة بلا حياة !.. وهل يسع عبارة ما ان تنقل تفجع الامام على محمد ، وتلم بألمه أو تبلغ مداه ، وما كان منه تولده بل كان ولده حقا بكل المشاعر والأحاسيس والمقومات المادية والنفسية التى تربط الابن بأبيه ؟.. وإذا كانت بنوة الولد ،فصلا للفراش ، وبالنطف ، ومن الأصلاب ، فإنهما ايضا تكون بالصلة الروحية والتربية والرعاية .. واذا كان محمد ولدا — بالدم — لأبى بكر ، فإنه كان أيضا للإمام ولدا — بالحضانة — منذ يتم وهو طفل ، وآمت امه أسماء بنت عميس ثم دخلت تحت على زوجا بعد ترملها بقليل .. فالفتى من طفولته أوى الى ظله .. شب عن الطوق في حجره .. روى من عطفه وحبه .. عاش واحدا من أبنائه لا يعرف أبا غيره ، حتى لقد كان الامام نفسه يقول عنه :

« محمد ابنى من صلب أبى بكر .. » .

.. ومن مصر قدم الحجاج بن غزية الانصارى ، وعلى وجهه وجمة الناعى .. كان أحد رجال محمد ، صحبه بها ، وعاش معه ، وشهد مشاهده ثم غاص واياه في قاع المحنة .. فلما وقعت الواقعة ، وهاض الدفاع ، وتلبس الأفق بالسواد ، ثم تفرق عن عامل مصر أصحابه وراح مشردا يهيم في الأرض حتى عاجله مصرعه ، افلت الحجاج بحياته ، واقبل ، والفاجعة ما زالت تملأ قلبه وعينيه ، ليروى لأمير المؤمنين الخاتمة المرة ..

وما كان مصرعا كالمصارع ، ولا فاجعة كالفاجعات .. وكيف يكون، وقد اقتلع فيها الانسان قلبه الآدمى ، وتجرد من بشريته ، وأبرز الظفر والناب ليغدو وحشا كأقسى ما تستطيعه وحشية الحيوان ؟..

ليس غير الذهول ما لعله ران على الامام في تلك اللحظة وهو يصغى إلى القصة المحزنة . وليس غير التفجع على نكسة النفس البشرية ، وانحدارها الى قعر الشر .. لكنه عرف كيف يحكم تقززه ، ويعالج شعوره بالغثيان ، وهو يصبر النفس ويوطنها على تقبل المكروه ..

وهتف متجلدا وقلبه يذوب :

« رحم الله محمدا .. » .

وعندما وسعه من بعد ان يخلو الى افكاره ، ويسترجع في باله صور الأحداث التى أدت الى المصرع المفجع ، همست شفتاه :

« رحم الله محمدا .. كان غلاما حدثا .. لقد كنت اردت ان اولى المرقال هاشم بن عتبة مصر ، فإنه والله ، لو وليها ، لما خلى لابن العاص واعوانه العرصة ، ولا انهزهم الفرصة .. ولا قتل الا وسيفه في يده .. » .

غير انه ما لبث ان نفض الانسياق في التحسر على ما لا سبيل له إلى استرجاعه لأن « ليت » لا تصلح الأمور ولا تمنع المحذور المقدور.. ثم أستدرك وقد أخذه حنانه ينتصف للصريع :

« بلا ذم لمحمد ؟.. فلقد اجهد نفسه ، وقضى ما عليه .. » .

ولم يبرحه بعدها جزعه على الفتى حتى لقد كان هذا الجزع ـ وإن جهد لإخفائه تصبرا ومجالدة ـ يظهر في وجهه وحركاته .. وكم تحدث القوم بالأمر ، وكم حدثوه فيه رغبة منهم في كفه عنه والتهوين عليه ، فيقولون :

« لقد جزعت على محمد بن أبى بكر ، يا امير المؤمنين .. » .

فلا ينكر ، ولا يعتذر ، بل يقول :

« وما يمنعنى ؟.. إنه كان لى ربيبا ، وكان لبنى اخا ، وكنت له والدا اعده ولدا .. » .

ونعاه إلى الناس ، وهو يعلن عليهم اغتصاب مصر ، فيحسن الثناء عليه ولا يعفيهم من جريرة الكارثة . بدا فقال :

« .. الا وان مصر قد افتتحها الفجرة ، أولياء الجور والظلم ، الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الاسلام عوجا .. الا وان محمد ابن أبى بكر قد استشهد رحمه الله وعند الله نحتسبه .. اما والله لقد كان ما علمت ، ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحب سمت المؤمن ... » .

ثم عرج عليهم :

« .. وانتم القوم لا يدرك بكم الثار ، ولا تنقض لكم الاوتار !..

دعوتكم إلى غياث اخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فجرجرتم على جرجرة الجمل الآسر ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من لا نية له في الجهاد . ولا راى له في الاكتساب للأجر . ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون !.. » .

ولقد بلغ من حزنه أن كاد يعتزل الناس لا يخالطهم ولا يضمهم واياه جمع ما وسعه أن ينأى عنهم ويعزف بنفسه عن اللقاء ، ضيقا بهم ، وزهادة فيهم ، بل قد بلغ منه ان برم بالحياة وود لو عاجله اجله فيرحمه ليغيب عن دنياهم إذ الموت خير من صحبتهم هذه التى تشقيه وتثقل عليه ..

بعث عندئذ الى ابن عباس يكاشفه شعوره :

« .. استشهد محمد بن أبى بكر .. وقد كنت كتبت الى الناس ، وتقدمت اليهم في بدء الأمر ، وأمرتهم باغاثته قبل الوقعة ، ودعوتهم سرا وجهرا ، عودا وبدءا ، فمنهم الآتى كارها ، ومنهم المتعلل كاذبا ، ومنهم القاعد خاذلا .. أسأل الله ان يجعل لى منهم فرجا ، وأن يريحنى منهم عاجلا .. فوالله لولا طمعى عند لقاء عدوى في الشهادة ، وتوطينى نفسى على ذلك لأحببت الا ابقى مع هؤلاء يوما واحدا .. » .

لكن لا غناء في حسرة ، ولا جدوى في جزع ، ولا دافع لبلاء حل فدهم ، ونزل فقصم .. فمصر ذهبت الى غير عود ، واجتزت من دولته كما تبتر الساق التى لا قدرة بغيرها لصاحبها على الاستباق !.. اقتطعت مصر وانها ـ بقوله ـ اعظم من الشام ، وخير اهلا ، بقاؤها في يديه وايدى شيعته عز لهم ، وكبت لعدوهم .. واحتجب ابناؤها عن طاعته وتثبيت أمره وإنهم لدعامة قوته ، واحسن اجناده .. واسدل الستار بها على محنة محمد بن ابى بكر فإذا هى محنة مصر ، ومحنة الأمة الاسلامية ، ومحنة القيم الانسانية .. واذا هى فصل من فصول الرواية ، يستشرف الخاتمة ويؤذن ببداية النهاية !..

٣

وهذه هي الفاجعة ..

بلا رفيق مضى محمد على وجهه ، يهيم في الفضاء الرحب الممتد حياله الى مدى الرؤية مطموس الخطوط مبهم المعالم تذوب حدوده في محيط الافق الأشهب المطبق عليه .. بلا رفيق من صاحب يؤنس وحشة ، ولا من قلب يستشعر ثقة ، ولا من ذهن يتطلع لغاية ..

كان جزءا من الفراغ الذى سرح فيه . ومن الصمت الذى علق بالجو كقطرات بخار . ومن الركود الرهيب الذى سيطر على المكان .. وما عسى يبقى من امرىء سلب الهدف والوعى والرجاء ؟..

خيال حياة !.. هيئة ذات ابعاد واعماق ، بسطح ، ومظهر ، وحجم ، وباطن اجوف ملؤه خواء !. هيكل بشر : بالشكل ، بالسمت ، بالقوام ، بالاهاب ، بالثياب !.. كأنه ظل . كأنه عود غاب !..

وعلى مدارج الرمل انسابت قدماه تطويان مسافات ليس يدرى اهى مفضية به الى شرق ام غرب ، امام أم وراء ، مكمن هلكة أم مورد نجاة .. وفوق طين الحقول ترنحتا بخطا ذاهل ، مشلول الوعى معطل الارادة .. فلو انه عندئذ أدرك لعرف انهما تكادان تلتويان تحت ثقله وتتقصفان !. ولو انهما أيضا ادركتا لثبتتا به ـ من اعياء ـ لا تبرحان!. لكنه مضى بهما يقطع مراحل الوقت والمكان بحركة آلية قسرته عليها قوة دافعة مجهولة لعلها غريزة حب البقاء !..

غير ان الجهد الذى اضناه ، بعد طول السرى والسير ، عطل الآلة !.. فالتعب استنزف القدرة . والرمل برى القدم . والطين اثقل الخطا ، ولفح الهواء الساخن في قيظ الصيف المصرى لف جوارح البدن كلها بالخمول ..

وزحف على لهثاته إلى موئل ظليل !..

عند منأى بعيد عن الطريق المطروق ، على حافة الخلاء ، تبين

طللا يتداعى ، ما زالت به بقية من « روح » تمسك بعض جدره البالية ـ كالثوب الخلق ـ أن تنهـار .. الى هـذا الحطام رنت مواجعـه ، واضطربت تحته رجلاه وهما تخطان في الأرض إذ يجرهما معه كما تجر غرارتي رمل ينوء بثقلهما العزم وينقصم الظهر وتنبهر الأنفاس .. وتحت اثر من سقف لا يكاد يستر عن العين طلعة السماء ، أوى بالمكان إلى ظل أرقط نقطت صفحته الداكنة بقع بيضاء من نور تسللت من ثقوب السطح الأخرم .. وعندما وسعه أن يفترش الظل ، ويلتحف بعض الشعاع المنحدر ، عزف بسمعه عن أنين عظامه وراح في سبات .

في هذه الخربة التي انتهى اليها شروده ، انطوى محمد بن أبى بكر على محنته ، ونامت عيناه ، لا يجاوره في ملاذه الموحش ـ مع الفراغ ـ إلا قدر يقظان !.. فما خايلته في الوحدة رؤى نعاس ، ولا أحلام تطلع ، ولا ذكريات غابر .. وانى له ووعيه المحطم المنهوك قد فقد القدرة على الحركة ليخرج من نطاق عالم الخمود الذى عاش ـ بل دفن ! ـ تلك الآونة فيه ؟.. وإذا كانت الراحة عندئذ قد قربت رويدا رديدا إلى أوصاله ، وأخذ بدنه المتهالك يمتص منها على مهل كما يمتص الجذر الظامىء قطرات الماء من بين الصخر ، فانها الراحة التى يغلب المرء عليها وتسير في جسده بالخدر سير طليعة تفسح الطريق فيه للهمود الأخير !..

فكم بقى محمـد من ساعات بموئله المهجور ؟.. وكم لان تحته الحصا والتراب ؟.. وكم نعمت بمرقدها الخشن عظامه ، ورقأت بعض دمع الأنين ؟..

فترة من عمره لعلها برهة ، ولعلها سـويعات ، ولعلها فوق هـذا أو دونه وإن كانت لا تحسب بمقياس الزمن لأنها لم تكن في مجـال الشـعور !.. لكنها ترجمت لبقاء موقوت ، وارتبطت بموئل ـ قصر او طال مكثه فيه ـ ليس بالخافي البعيد عن «الجار» اليقظ ، ذى العين الساهرة ابدا التى لا تغفل ، واليد الطولى التي لا تحد ذرعها اميال !.. وكيف لا وهذا قدره معه ، قد استدرجه الى مستقره ثم تركه يأمن ما شاء وانه ليتربص به لحظة الأجل المحتوم !..

ولم تتلكأ عليه النهاية .. فالطريدة أثخنها الاعياء . وكلاب الصيد ذات أعين يواقظ ، وآذان لاقطة ، وانوف مرهفة ، ترى بهـا الذر

والهباء في فحمة الليل ، وتسمع دبيب النملة في هدير العاصفة ، وتشم الريح على مدى المراحل ..

ما كان بعسير على العدوان أن يطلق نقمته وراء الفتى ، تتابع خبره. وترصد اتجاهه ، وتشم حركاته .. وللعرب عامة قدرة على اقتفاء الاثر ، ليس يعييها أن تقرأ ما خطته مواقع قدميه أينما سار ، على الرمل وفي الطين ، لتعلم أين أفضى به الفرار ..

لكأن بعض ريح الجنوب قد أسفت غبارها فطمست المواقع .. او كأن جيرة الطلل كانت من مدر ليس يحفظ الاثر .. فالمكان أخرس. وحجارة الخربة المتناثرة فوقه صماء . والأرض حولها بلا وشم ولا علامة ، كصحيفة في يد أمى لا يعرف كيف يمسك بقلم !.. والكلاب المسعورة التى تزاحمت على الأديم الأجرد ، تلف وتدور في ضياع وحيرة ، كأن كل واحد منها كان يحاول أن يلحق بذيله !..

لكن كبير الكلاب لم ترده هذه الصورة من الخواء عن السعى الدائب لإشباع نقمته .. بإصرار عنيد راح معاوية بن حديج ، زعيم خارجة مصر ، وصاحب فتنتها ، يتابع أثر الطريد . على مدى المسافات تابعه ، ومد البصر ، وشطحة الظنون !.. واينما وسعه أن يحرك قدميه ، أو يوجه رجاله ، أو يتخيل مكانا يؤمه شريد مذعور ، راح يستقرىء السمات ، ويفتش الحصا والصخر ، وينشر الأرض ويطويها وهو يكاد ينفضها نفضا كأنها بساط !.. وعندما خذله جهده ، وقصر خياله عن تلمس الملاذ المجهول ، اخذ يستشفه في إخلاد كل من لقى من عابرى الطريق ..

ما ترك معاوية عندئذ احدا عرض له في طوافه الا سأله ، ثم استفسره ، ثم ألح عليه بالسؤال والاستفسار وهو يجمع الكلمة الى الكلمة ، ويزن الرد بالرد ، ويصفى القول بمصفاة الشواهد والاحتمالات لعل خيطا من ضوء ، ولو كبصيص جمرة ، يقوده إلى ما يريد ..

ولم يمل التجوال ، ولا أسامته الخيبة . بل قد كان عناده يتجدد كلما باء من بحثه بفشل يبعد محمدا الى حين عن براثنه وانيابه ، كانما الفشل المتوالى كان وقودا لنقمته يؤرث نارها الحاقدة ويزيدها التهابا وفورة . وهل لباله ان يهدأ ، ولعينه ان تطبق جفنيها على طمانينة

وغريمه ما برح حر الحركة مطلق السراح ان اختفى اليوم فانه في غد خليق بأنْ يظهر في صفوف جديدة من اعوانه تتناثر في جوانب الاقليم وتكون مراكز مقاومة تتصدى للجيش الغازى ، وتترصد له بمراصد الهلاك ؟..

وآن أخيرا لبذرة الحقد أن تثمر ، فاذا ابن حديج يبلغ من الخلاء ناحية على صفحتها آثار أقدام ما زالت ندية لم يطمسها الزمن ولا سفت عليها الريح .. عندئذ عاوده أمله ، والحت عليه أحقاده ، فاقتفى الأثر على بحر من عرقه ولهثات أنفاسه المشتعلة حتى افضى به السير الى جماعة من علوج الروم تخلد الى الراحة بأعلى الطريق . فما أسرع ما التقط الخيط ! وما أسرع ما كان بينهم ، يرميهم بعين صقر ، ويتفحصهم بنظراته !.. فلما تبين أن ابن أبى بكر ليس فيهم ، راح يحاورهم ، ويتقصى الأمر .

وسألهم بعد طول استقصاء :

« ارايتموه ؟ .. » .

قالوا :

« لا » .

قال :

« هل مر بكم احد تنكرونه ؟.. » .

قالوا :

« لا » .

واوشك أن يرد طرفه عنهم ، وهو حسير ، ويعود أدراجه ، لولا أن الكلمة التى تحسر المد ، وتنحرف بالتيار ، وتغير المصير قفزت فجأة على شفتى علج منهم ، ينفثها عفوا وهو لا يكاد يدرك لماذا يقولها ، وما اثرها في عقبى الأمور ..

قال العلج ، بلا مبالاة :

« انى دخلت هناك ، فاذا رجل جالس .. » .

واشار الى الخربة ..

عندئذ انتفض قلب ابن حديج ، وبرقت عيناه ، ثم طارت به قدماه الى الطلل البـالى وما انتهى العلج من عبـارته .. وان هى الا نظرة مخالسة ، رمى بها من بين احجار الخربة ، حتى هتف بأصحابه بهمسة طروب :

« هو !.. هو ورب الكعبة !.. » .

فانطلقت كلاب الصيد تركض إلى المأوى المهجور .. إلى الطريدة المهيضة التى برتها الشقة ، وحطمها الإعياء .

وانصبوا ، فاذا هم كالجرف يدفعه السيل فيملأ الفجاج حوله ويغطى وجه الأرض بما يحمل من حطام .. من كل جانب تزاحموا على النائم الذى خدره تعبه ، فما أفسحوا له في ثغرة يلتقط منها أنفاسه ..

ولم يكونوا بحاجة إلى الحذر منه ، ولا إلى الأطباق عليه هذا الإطباق الذى يكاد يعصره ، وهو لا يملك يدا للمقاومة ، ولا قدما للحركة ، ولا نهمة ترد عنه عادية خطر ، أو تبلغ به نطاق طمأنينة .. لكن الليث هو الليث . والكلاب حرية بأن تخشاه وهو متوثب في غابه ، أو هامد في اهابه !..

٤

ليس بالكلمة وحدها يمكن أن ترسم قصة الأسير .. ليس بالجرى ، ايضا ، وراء قدرة التخيل . فالواقع ، فيكثير من الاحايين . أبلغ إفصاحا عن نفسه وادق من عبارة تنقله إلى ذهن السامع وكل قصاراها أن تكون ظلا لأصل ، وصدى لهدير !..

فوق طاقة البشر ذلك الهول الذى عاشه ابن ابى بكر منذ وقعوا عليه في الخربة المهجورة . وفوق قمة الشر ذلك العنف الذى عاناه .. من مهاده الخشن اقتلعوه فما كانوا ، اذ فعلوا ، ارفق به منك على نبتة انتزعتها ، في لحظة عبث ، من تربتها وليس يعنيك ، أو يضيرك ، أتخرج سليمة أم يتمزق منها الجذر وينقصف العود .. وفي سربهم الصاخب قادوه على الطريق لا يهمهم أن يسوقوه أمامهم راجلا يعالج تحريك قدميه او يجروه زاحفا على الشوك والحصا والتراب ..

بشراسة الفهد ، وخسة الثعلب ، وقسوة الزبانية تعاوروه .. كانوا عصابة من الحقد والمقت والضغينة . خلقا في هيئة بشر وما هم ببشر . أجسادا معتمة ، كآلات بلا قلوب !..

ولم يحفل بهم . ولا ألقى بالا الى ما يجترحون .. ولم احتفاله وفي دخيلته جانب مشرق ما زال يمده بشعاع هاد هو ايمانه بأنهم لا يملكون له إلا قدرا قدره الله ؟.. وكيف يكترث ووعيه الناضب الذى استنزفه الاعياء لم يعد يتأثر بشيء يصيبه ، وبدنه المنهوك قد ارتوى من التعب ومن الآلام الى ما فوق حق التشبع ؟..

وكانت مراحل السير عديدة ، طويلة عليهم دونه . مضنية لهم لا له . فطول المسافة ، وتعاقب الوقت ، كلاهما ينبع من الاحساس بالزمان والمكان ، ولهما أبعاد لا يحددها إلا وعى المرء ، لا عدد الأميال أو كر الساعات !..

على الأرض الصلبة ، التى شققها قيظ الصيف ، سار الفتى في موكب العذاب .. الى الفسطاط سار . الشمس فوقه لهب . الهواء

نار . الانفاس تحترق . الفضاء بخار وغبار .. وعندما شارف نهاية المطاف ، كان قطعة من الضنى والتهافت ، ومن الجفاف والنضوب ، كجمرة اكلت نفسها حتى بردت ، وغدت كومة هشة من رماد . او كغصن اجتز من شجرته ، وترك في ملافح الحر ومهاب الريح فتبخر ماؤه ، ويبس ، وتحول الى هشيم ..

ووقفت الحاضرة المصرية ، على قدم ، تستقبل الأسير .. تتطلع إلى الافق على تحرق ، وتصغى إلى الصدى والنأمة ، فتسمع خطاه في كل صوت يند ، وترى طلعته في كل غبرة تثور .. ثم تتعجل لقاءه ، فتستبق الوقت إلى موعده على جناح الحدس والتوقع لا على ظهور الرواحل وخطوات الاقدام . فالخبر عنه كان طليعة موكبه المرتقب ، بلغها وانه لبعيد محجوب عن الأعين وراء المراحل ، مستور دونها بالأميال ، لأن للخبر دائما قدرة اي قدرة على التنقل واجتياز المسافات — سباحة في الزمن — بسرعة البرق في الأفق وهدرة الرعد في الأثير !..

غير ان هذا التعجل الذى كابدته الفسطاط ، ذلك اليوم الصائف الملتهب من صفر ، كان ينبعث من عاطفتين متعارضتين ، كلتاهما على نقيض .. في جانب كانت اللهفة ، وفي الآخر كانت الشماتة .. فالذين يكنون للفتى المنكوب نفحة ود او اثر ولاء تقطعت نفوسهم عليه حسرات ، وماتوا موتة بعد موتة بعدد اللحظات التى عاشوها وهم في انتظار ظهوره وفي خشية من الردى ان يسبق إليه نظراتهم المبعثرة في الأفق ترقبا للموكب الحزين .. والذين يتنفسون الحقد والضغينة راحوا يسوطون الوقت مستحثينه ان يطلع عليهم بالأسير المقهور ليملأوا عيونهم بمحنته ، ويثلجوا صدورهم بمصيره .. وفيما بين اولئك وهؤلاء استوت مدينة الفسطاط نفسا بشرية بشطرى الخير والشر في طبيعة الإنسان ا نزعا إلى الشفافية والسمو ، ونزغا إلى الظلام والهبوط !..

اذ ذاك قست قلوب وذابت قلوب . تسعرت اعين وغامت اعين . تلمظت شفاه شماتة ونقمة واختلجت شفاه تفجعا ومرحمة .. على ان مظهر الشركان اغلب واظهر . بل كانت السيادة له في الحشد المنتظر وقد وضع كل مشفق راحم وكل راث حزين على وجوههم اقنعة من

الجمود والتنكر لمشـاعرهم اتقاء غضـبة الوحش المتحفز في دخيلة الآخرين !..

لكن فتى من الراحمين آده هـذا التظاهر ، فلم يملك نفسـه أن يتململ من قلق ، ويضطرب من خشـية ، ويتذاءب على قدميه يمنة ويسرة لا تستقران تحته كأنما يقف على جمر احمر !.. وكان كالثمل او كالمحموم . في مقلتيه لهب الحميا أو الحمى ، ونظراته تزيغ في الفضاء ، والأرض تدور به وتميد ..

ذاك عبد الرحمن !.. وهي بدنا ونفسا حتى لأوشك أن يتهاوى كحطام . خذله أخيرا رياؤه وخانه تصبره . فما كانت له ـ قبل ـ مسكة من صبر تعينه على ما هو فيه وان حرص طويلا على أن يبدى الجلد والثبات .. وما عاد ـ بعد ـ يتشبث بأمل موهوم ينسجه خياله ، هو أوهى من خيط عنكبوت ، وارق من شعرة حملت صخرة !. وهل غيره في القوم ، خيرهم وشرهم على السواء ، من كان لا يستشف من خلل الساعات القلائل المقبلة ، ذلك المصير القاتم المحتوم ، الذى ينتظر ـ لا محالة ـ أخاه الأسير ؟..

فلعله عندئذ قد أدمى شـفته وهو يعض عليها ، ليكظم غيظه ، ويداجي حسرته ، ويخفى بعض ما يعانى أن تشى به ملامحه المهزوزة .. إنه لينقم الآن على صحبه ، وعلى نفسه ، وعلى هذه الدنيا التى استهواه منها العرض والزخرف ، وراودته عن دينه ، فمال إلى صفها عن صف أخيه ، ينصرها ولا ينصره ، ويخطبها ويتنكر له ، ويسـير في ركابها ويدع محمدا في موكب العذاب .. فلو أنه أصغى للحق لما تابع معاوية وحزبه ، ولكان الآن يستدبر جحيم الهوى ويستقبل جنة الضمير .. ولو انه اطلع على الغد ، لسمع على لسان اموى خالص ، بأى عصبة ظالمة لحق ، واى عاهل جائر ظاهر ونصر .. لكن زينة الدنيا اعمته ، ورنين ذهبها أصم أذنيه ، وكثافة طبيعته طمست قلبه فلم يستطع ـ وهو بين ظهرانى الحزب الباغى ـ ان يفطن لغيهم ، فيبرأ منهم كما برأ معاوية بن يزيد من اثمهم بعد سنين وسنين ..

وهذه هى براءة الخليفة الشاب ..

من فوق منبر دمشـق ، راح يكشف للملأ سوأة أهله .. كان

عندئذ فتى في ضحوة العمر التي يطيب فيها الانس إلى الدنيا ، متعة وسطوة . وكانت امرة الدولة قد افضت اليه بعد أبيه . لكن ضميره ابى عليه أن ينعم بالملك فيلبس ثوبا ليس له ، ويسير سيرة ابيه وجده اللذين ابتزا الحكم من كان له ـ دونهما ـ الحق فيه .. فاذا هو يفاجيء أمته وذويه ، معلنا على الاشهاد :

« أيها الناس ..

الا إن جدى معاوية نازع الأمر اهله ومن هو احق به منه لقرابته من رسول الله وسابقته في الاسلام ، وهو على بن ابى طالب .. ولقد ركب بكم ما تعلمون ، حتى أتته منيته ، فصار في قبره ، رهين اعماله .. ثم تقلد ابى يزيد الأمر من بعده ، فكان « خير ! » .. اهل له .. ركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر به الأجل . ثم صار في قبره ، رهين ذنبه ، واسير اثمه .. وان من اعظم الأمور علينا علمنا بسوء منقلبه .. »

واستطرد الفتى الذى استنارت بصيرته ، وعجزت الدنيا أن تخدعه وتأخذ منه :

« أيها الناس ..

ما انا بالمتقلد امركم ، ولا بالمحتمل تبعاتكم ، فاختاروا لانفسكم .. والله لئن كانت الدنيا خيرا ، فلقد نلنا منها حظا . ولئن كانت شرا ، فكفى ذرية ابن أبي سفيان ما اصابوا .. » .

لكن عبد الرحمن بن ابى بكر لم يكن في صفاء معاوية بن يزيد ، ولو كانت له نفس زاجرة .. وان يكن شيء قد حرك الآن قلبه فهو موقفه بين جماعة غرقت في حماة الكراهية ، واخذت تتلمظ كالوحش لتنهش لحم اخيه .. فما كان اغيظ له من هذا الموقف الذى غرسه فيه القدر كما تغرس الزرعة في ارض محل ، فلا بتربتها ماء ولا بسمائها غيمة .. وما كان اقسى عليه من لحظة لن تلبث ان تقبل فيرى ابن ابيه لقى مضيما على الثرى ، أمام بصره ، وليس بمقدوره إلا أن يحضر ، مع الحشد الشامت ، مصرعه بعين جامدة ، ولسان أخرس ، ويد شلاء !...

ولم يعد يطيق الانتظار .. بل انتفض يبارح الجمع ، وينطلق

كزوبعة مجنونة !.. ليس عن يقظة روح ، ولا استنارة بصيرة كان سعيه . ليس في نصرة الحق ومحق الباطل كان انطلاقه .. لكنه انعطاف الأخوة ، ونداء الدم ما وجه قدميه الى ابن العاص يستنجد به ويستعينه ان ينقذ الأسير المقهور من براثن جلاده .. فللقربى ، حينا ، قوة غامرة على تنقية النفس البشرية من الشر قدرتها ، أحيانا ، على تجريدها من الخير !..

وخاطب قائده الظافر بصوت محموم :

« ابعث الى معاوية بن حديج فانهه !.. » .

فأظهر له عمرو جانبه اللين ، لعله ان يهدأ بعض هدوء ..

لكن روعه لم يسكن .. وصاح :

« لا والله ، لا يقتل اخي صبرا... » .

واستبدت به ثورة عاطفته .

حينئذ ارسل ابن العاص رسولا الى معاوية بن حديج ، يقول له :

« ائتني بمحمد .. » .

غير ان الجلاد كان أنأى سمعا عن الاصغاء لهذا الأمر الذي انبعث ، لا ريب ، عن مروءة عارضة ان لم يكن عن مراءاة ، قبل ان ينبعث عن اقتناع بضراعة الضارع أو ايمان بحق الأسير .. فما ان سمع الرجل قول الرسول حتى عقد جبينه ، وضيق عينيه ، وابرز نابيه ، ثم أفاض من حقده على ملامحه كانما كانت لذلك الأمر سن حديدة وخزت قلبه فأسالت من الكراهية بعض ما فيه !..

وبكل مرارة الشماتة ، وبكل حرارة البغضاء ، اجاب بلهجة كضربة السيف :

« لا والله !.. اقتلتم كنانة بن بشر ، ابن عمي ، واخلي عن محمد ؟.. هيهات هيهات !.. » .

ثم تلا ، وهو يسخر :

« اكفاركم خير من اولئكم ، أم لكم براءة في الزبر !.. »

وانثنى يتفرغ لأسيره ..

٥

ما الذى بقي من محمد ؟..

سوى قوة ايمانه لم تكن فيه عزمة تقيمه بينهم مشدود القوام كالرمح ، شامخ الراس كالجبل ، متدفق اليقظة كشعاع النور .. طوال الطريق إلى الفسطاط ، في لفح القيظ وعلى جمر الرمل ، لم تلن لهم قناته .. لم يخفض انفه .. لم يغض من طرفه الى مواطئه ، لم يذل لجلاديه بكلمة ولا ايماءة . انما ظل على ترفعه وكبريائه ، متساميا على الضعف والتعب والآلام ..

وتداكت المدينة ، من بعد ، عليه بكل صخبها وشغبها ، وما استبطنت - او اظهرت من امتهان وشماتة . فما اكترث . ولا استقبل هديرها الوحشي باهتمام .. إن يكن ألقى أذنه مليا إلى الضجيج ، ورمى عينه ، فلا من رهبة فعل ، بل من تطلع تلقائي صادر عن طبيعة المهمة الوظيفية لكلا حاستي السمع والبصر فيه !.. فالجموع الحاشدة حياله لم تزد في خلده ، عن مجرد صورة مسطحة بغير عمق ولا بروز . وهرج الأصوات المنبعث عن الحركة أو الصياح ، لم يكن غير صدى طرقات على طبل أجوف ..

حتى حين وقعت عيناه على ابن العاص بين الحشد المتربص ، لم يحس في قلبه حسرة ، ولا بحلقه غصة . فما قصارى الرجل ؟.. وما قصارى حشوده وجنوده ؟.. وما قصارى البشر كلهم ان يفعلوا به إلا ما قدر له ؟.. إن نفسه لمطمئنة إلى قضاء الله ..

ولم يكن ، بعد رحلته الشاقة ، يكاد يشعر بجوع . فبطنه قد التصق بظهره ولم يعد بجوفه فراغ لطعام !.. وشهوة الاكل تفتر مع طول الطوى كما تخمد النار اذا غاب عنها الوقود !.. لكن الجسد الذى اضواه الاعياء ، واعتصره الحر ، كان يهفو ــ كالغصن الذابل ــ الى ما يرطب جفافه ، ويبل صداه ..

وتلفت ولسانه قد التصق بحلقه ، يسأل من حوله بصوت خشن متعثر ، كأنما كلماته تضطرب في شقوق حلقه الجاف :

« اسقونى .. »

وحسب نداءه قد تاه في صخب ضجيجهم حينما لم يستجب له مجيب .. فعاد يقول :

« .. قطرة ماء .. »

فكم في القوم عطفتهم الرحمة ، ورقت نفوسهم لرغبة الفتى الذى احرقه الظمأ ، وأوشك الصدى أن يستنزف ما بقى فيه من حياة ؟.. ان تكن كثرة ، او قلة ، في الحشد الزاخر تحركت قلوبهم في جنوبهم حنانا ، فان واحدا منهم لم يجسر على التلبية وان أرهف السمع للاصغاء ..

وعلى الاثر وثبت ضراوة الوحش من صدر ابن حديج وثبة زلزلت كيانه ، وسعرت ناظريه ، وبعثته يفح كالأفعوان :

« قطرة ماء ؟.. لا سقانى الله ان سقيتك قطرة ابدا !.. »

فمن اية شرعة استقى هذا الحكم الهمجى المتنكر لكافة القيم الانسانية ومبادىء الاخلاق ؟.. امن شرعة الحرب ، والحرب لا تستبيح دما إلا في ظلال الأسنة ، واوان التراشق بالهلاك ، ثم تحقنه ، حين تسكن رحى القتال ، على الأعزل والمغلوب والأسير ؟.. أم من شرعة القصاص ، وانها لعين بعين ، وسن بسن ، وقتيل بقتيل ؟.. أم من شرعة الوحش في غابه وهى عندئذ تنازع على البقاء يمارسه احتفاظا بحياته لا رغبة رعناء في تبديد حياة كل ما عداه ؟..

لكنه اسلوب معاوية بن حديج في القضاء !..

وتلبث الرجل المدل بباسه على من لا يملك دفع الضر عن نفسه بالبنان دع السنان !.. فلما ان لقف بعض لهثات حقده التى شاطت على نارها شفتاه ، حاول ان يبرر مسلكه ، فأردف ، وهو مزهو ، مصعرا خده يقول في شماتة :

« .. انكم منعتم عثمان ان يشرب الماء حتى قتلتموه صائما محرما ،

فسقاه الله من الرحيق المختوم ..... والله لاقتلنك يا ابن أبي بكر وانت ظمآن ، ويسقيك الله من الحميم والغسلين !.. »

فلم يهز وعيده شيئا من شجاعة محمد ، ولا شاب ايمانه بشائبة شك ، بل زاده ثباتا دفع الكلمات تتدفق كالحمم من فيه :

« يا ابن اليهودية النساجة !.. ليس ذلك اليوم اليك ، ولا الى عثمان . انما ذلك الى الله يسقى أولياءه ، ويظمىء اعداءه وهم انت وقرناؤك ومن تولاك وتوليته .. والله لو كان سيفى في يدى ما بلغتم منى ما بلغتم .. »

فحمى غضب الجلاد ، وصاح :

« أو تدرى ما أصنع بك ؟.. »

فتساءل الأسير دون اكتراث :

« وما تصنع ؟.. »

فكأنما أثاره هدوء غريمه ، فقال وأسنانه تصرف من غيظ :

« ادخلك جوف هذا الحمار الميت ثم أحرقه عليك بالنار !.. » .

واشار الى جيفة ملقاة ، اعدها لغرضه الخبيث .

فما زاد وعيده الفتى الا سكينة رسمت بسمة رقيقة على شفتيه ونورت محياه ..

وقال محمد وثقته في ربه تتدفق من فيه :

« ان فعلتم ذاك بى فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله .. »

ثم اجتاح بنظراته الثابتة المطمئنة جمعهم الحاشد ومن ضم من رءوس وأذناب ، ومضى بلهجة المؤمن يكمل الحديث :

« ... وايم الله انى لارجو أن يجعل الله هذه النار التى تخوفنى بها بردا وسلاما كما جعلها الله على ابراهيم خليله . وان يجعلها عليك ، وعلى أوليائك ، كما جعلها على نمرود وأوليائه ... وانى لارجو ان يحرقك الله وامامك معاوية ، وهذا .. » — ورمى بعين الى ابن العاص — « .. بنار تلظى ، كلما خبت زادها الله عليكم سعيرا .. »

وكادت هذه العبارات النابعة من ذوب قلب عارف بحقه ، مؤمن بقضاء الله ، تتجسد كيانا مخلقا له شواظ ودخان وحسيس ، يحيط بمعاوية ابن حديج ويملك عليه الفضاء حتى لأحس لسعا للنار يحرق انفاسه ، ويهرأ جلده ، ويشوى عظامه !.. فاذا هو يرتج من رهبة ، ويتداعى من خوف ، ثم لا يجد لنفسه سبيلا الا ان يبرر فعلته ، ويقدم بين يديها العذر الذى يسندها لعله يشفع له فيخفف عنه او ينجيه !..

قال وصوته يشى باضطرابه :

« انى .. لا اقتلك ظلما .. انما .. أقتلك بعثمان ... »

فلم يمهله محمد حتى بادره :

« وما انت وعثمان ؟.. »

وتريث هنيهة ، فلما لم يسعف معاوية لسانه ، استطرد يقول :

« ... رجل عمل بالجور ، وبدل حكم الله والقرآن ، وقد قال الله عز وجل : « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » ـ « فأولئك هم الظالمون » ـ « فأولئك هم الفاسقون » ... فنقمنا عليه اشياء عملها ، فأردنا أن يخلع من الخلافة علنا ، فلم يفعل ، فقتله من قتله من الناس ... »

ولا مجادلة هنا لما أحدث عثمان أو قارف ، أيوفي به فعله على ما يحل دمه ويستبيحه ، أم هو الحدث الذى تختلف فيه الآراء وتتفرق المذاهب بين طرفي العقوبة من تقرير يتسع للعفو الى تحريم يوجب القصاص ؟.. ولكنه ، على اى حال قد أحدث ، وركبه الناس في حدثه بعنف غالوا فيه حتى اغتالوه . ونهز بنو امية الفرصة ، سعيا وراء السلطان ، فألزموا عليا دمه ، تارة بحجة انه مالا ، وأخرى بحجة انه أمر ، وإنهم لعلى بينة من أمره ، يعلمون انه على كلا الحالين برىء .. فاذا لم تكن الحقيقة أسفرت عن وجهها لهم وهم في مستهل افترائهم عليه ، فانه بادر فطالعهم بما يفند ادعاءهم ، ويدحض تهمتهم ، بالحجة البالغة التى يعلمون صدقها ثم لا يمترى فيها إلا ممار مغلف القلب والجنان ...

في ذلك المقام قال الامام :

« .. او لم ينه بنى امية علمها بى عن قرفي ؟.. او ما وزع الجهال سابقتى عن تهمتى ، ولما وعظهم الله ابلغ من لسانى ؟.. »

بلى لقد علموا . رأوا الحق وتعاموا عنه . وحسب عليا نافيا لتهمتهم ان فضله معلوم لهم ، يرتفع به عن كل دنية ، وسابقته تطهره وتنأى به عن كل معصية . ولقد بين الله لهم في كتابه فقال عنه وعن زوجته وبنيه :

« انما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا .. »

وقال الرسول الكريم له :

« أنت منى بمنزلة هارون من موسى .. »

فاذا لم يكن في منزلته العالية في الدين التى لم يبلغها غيره من المسلمين ما يكف السنتهم عن رميه بهذه التهمة الفاحشة ، واذا لم يكن في شهادة الله وشهادة رسوله ما يعصمه عن مقارفة ما طعنوا به عليه ، فأى المنازل اذن وأى الشهادات تزكيه ؟..

كيفما تعنت القوم واستطابوا البغى ، فقد بدا ابن حديج كأن قد جبهته عبارة الأسير ، واشعرته الهوان وذهنه عندئذ يسبح في عالم رحب من ذكريات الدعوة الاسلامية ليس من بينها الا ما يسمو بشأن على وينزل بشأن مناوئيه .. لكأن قدره انكفأت ، وكأن كفته شالت ، وكأن محمدا ، وهو متهم ، قد غدا قاضيا يحاكم قاضيه !..

إن سطعة الحق التى انبعثت عندئذ من عبارة ابن ابى بكر ، تومض كالبرق من ثنايا الغمام ، قد خالجت بصيرة معاوية بما جعلها تطرف كعين النائم حين يفتحها بعد ظلمة الوسن فيفجأها النور . وبادرت قلبه الأصم بهدرة الرعد التى تصاحبها ،فهزته وزلزلته بين جنبيه .. لكنها ومضة موقوتة ، ورجفة الى اجل معلوم ليس عمره في حساب الزمن الا مقدار ما تمكث لمعة البرق في جانب الأفق المعتم او تعيش الرعشة على هدب محموم !.. فالعيون العمياء قد تحس الضياء ولكنها لا تراه ثم لا تتأثر به ولا توليه حقه من التقدير . والقلوب

الغلف تعلم بالرحمة ولكنها لا تمارس الرحمة . ومعاوية بن حديج ، كأيما رجل غيره في الجمع الزاخر المحتشد على ضغينة وموجدة ، قد كمه قلبا ، وعمى بصيرة ، واختنق في دخيلته صوت الضمير ..

ما من امرىء في الجمـع ، تلك اللحظـة ، إلا كان يعـرف الحق ثم يباعد ما بينه وبين نفسه لكى لا يجمعهما طريق . ما من امرىء الا آثر المكابرة والالتواء لأنه كالخفاش لا يستطيع ان يعيش في النور .. حتى عبد الرحمن الذى عطفته رحمه حينا على محمد ، وقف في القوم كالمسحور ، لا يعرف كيف يحرك بنانا لحماية اخيـه ، وقد استغرقه حرصه على دنياه ، أو جمدته ، في القليل — صعقه ذهول ! وحتى ابن العاص ، الذى تبدى منذ أيام قبيل الموقعة ، مترفقا بالفتى يضن بحياته ، ومنـذ ساعات حريصا على تجنيبه بطش معـاوية ، لاح كأن قد اخذته سورة حقده ، فاستمرأ الفاجعة ، وراح يتابع آخر حلقة فيها بلذة المستمتع المشغوف !..

وكذلك بدأ المشهد الأخير ...

بعناء المكابر ، وعتو الطاغية ، مشى ابن حديج على مدرجة ضغينته إلى ابن ابى بكر .. خطواته بطيئة ككابوس . عينه باردة كعين ثعبان . هيئته كئيبة كالموت ... وقبل أن ترتد عنه نظرة ، وتتبدد في الهواء زفرة ، سقط اسيره الأعزل على الثرى في كفن من دم !..

٦

قضى الحقد من ابن ابى بكر وطره ..

قتله معاوية بن حديج . ذبحه كما تذبح سائمة ، وانه حينذاك لوحيد بلا صاحب ، اعزل بلا سلاح ، معدم لا يملك فدية تشترى نفسه أن تسيل دما مسفوحا على ثرى الفسطاط ..

جهرة كان مصرعه . على ملأ ذبحه الطاغية غير متأثم ، وما من القوم من رفع بنانا يزجر ، أو حرك لسانا ينكر .. انما استقبلوا الحدث البشع على هدوء وسكينة ان لم يكن على رضى واقرار .. وكم منهم من طرب قلبه !.. وكم منهم من سالت الشماتة على شدقيه !.. بل لعل جمعا كبيرا منهم قد اختلط هتاف نشوته بقصفة السيف وهو يهوى فيفصل الرأس عن عنقه ..

ولم يدر احد اين توارت شيم المروءة والنجدة وغوث الملهوف التى لا زالت دائما طبيعة الإنسان العربى وكانت بضعة من سجاياه . لا شيء منها بدا او ظهر . لا هيئة ولا اثر . لكأنما انسى القوم نحلتهم وانسلخوا انسلاخا من خلائقهم الكريمة في نزوة عاصفة من نزوات الهمجية التى لا تجرد المرء من جنسه فحسب وانما تجرده ايضا من انسانيته ..

وأردف معاوية بن حديج ضغن القتلة بضغن المثلة . فما سقط صريعه ينتفض بدنه ببعض رجفة الحياة فيه ، حتى اشار الى زبانيته فاحتملوا الجسد والرأس جميعا والدم يلطخ ايديهم فوضعوهما في الدابة النافقة ، يخلطونهما بأحشائها ، ثم يغلقون عليهما بطنها المبتور .

واشعلوا الحطب . وعلقوا محمدا مغلفا بجثة الحمار يشوونه واياها في اللهب المتأجج ، وهم يقلبونه على السنة النار وجمرها المتقد كما تقلب الذبيحة على السفود استعدادا لوليمة !..

ما كان افظعها مثلة !.. وما كان اعتاها قسوة تلك الأنفس التى وقفت تشهد هذا الحفل الذى يكرمونّ به الشيطان !..

فلمن الغلبة ؟.. لمن عقبى الأمر اليوم ؟.. لمن الخاتمة التى انطوى بها سجل الفتى وراحت بعدها حياته سيرة على شفة راوية وبين اسطر كتاب ؟.. لا لله ، ولا للحق ، ولا للمبادىء الرفيعة والمثل العليا وقيم الفضيلة التى شرعها الدين .. بل الوحشية القابعة في جوف الانسان هى التى نهشت الجسد الممزق وراحت تلتهم لحمه وعظمه .. بل بغضاؤهم الصديانة هى التى ارتوت من دمه ..

عندئذ جف من قلوبهم نبع انسانية البشر ، وتمزقت شريعة الله ثم احترقت وتناثرت رمادا ، كبدن الأسير ، تحت الأقدام . وانتصرت الجاهلية العمياء وعزت كعهدها قبل الاسلام ..

مع الريح ذهب هدى القرآن . امحت تعاليمه . انطمست معالم تلك الأمثال التى ضربها محمد رســول الله للناس تساميا بغرائزهم الفجة ، وتكريما وتحقيقا لانسانيتهم ، وتنزيها لهم عن الانحدار في حمأة الحيوانية .. ولو ان بتلك الطغمة المتجبرة الضالة من له قلب يعى وذهن يذكر ، لكره القتلة والمثلة جميعا ثم اباهما على اصحابه المقترفين وردهم عنهما ردا جميلا او غير جميل ، وله في الرسول الكريم الأسوة ، وفي القرآن المنهاج ..

لو استرجع القوم امسهم الدانى ، وعادوا الى الوراء صفحة من تاريخ الهدى النبوى ، لراوا رسول الله على ارض احد يتلمس ، بعد المعركة ، عمه حمزة في القتلى . فاذا عثر به ، ووجده مبقور البطن قد اقتلعت كبده من صدره والقيت ممزقة على الثرى ، اخذه من الحزن ما يطير بالجنان فقال وهو محنق يناجيه ويعده الانتقام :

« لن اصاب بمثلك ابدا .. ما وقفت موقفا قط هو اغيظ الى من هذا .. ولئن أظفرنى الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم .. » .

لكنه لا يلبث ان يهدأ ويصبر ، امتثالا لأمر ربه :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ... ... »

ثم ينهى المسلمين عن المثلة :

« اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور .. »

ولو استرجع القوم ايضا امسهم الدانى ، وعادوا صفحة اخرى إلى الوراء في تاريخهم ، لذكروا ان أصحاب محمد الذين خلفوه في امته ، قد ساروا على سنته ، احتذاء بهديه ، ورعاية لكرامة الانسانية وإن في شخص عدو مشاق لدود يتشبث بكفره ، ويذودهم بالسلاح أن ينشروا دعوة الله .. وها هم أولاء لا ريب قد أدركوا ابا بكر الصديق ابا القتيل ، وسمعوه يقول لأسامة وجيشه وهو يتقدمهم الى الشام :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا .. »

ولقد كان أحرى امرىء فيهم بأن يلتزم هذه الجادة عمرو بن العاص صاحب أمرهم وقائدهم اذ اجتاز تجربة خالف فيها الخلق الاسلامى وغدا بها محور لوم الخليفة الأول وتثريبه ..

كان اذ ذاك على راس القوات العربية المغيرة لفتح فلسطين والاسلام عندئذ في مطلع فجره ، فلما اظفره الله النصر ، واستخفته الفرحة ، شاء أن يدل بالظفر الذى حازه عسى ان يرتفع درجة في عينى الخليفة ، فبعث اليه بالمدينة بشرى نصره ، راس بنان بطريق الروم ، أعدى اعداء المسلمين ، واشد قومه عليهم في ساحة القتال ..

ولم ترض الفعلة أبا بكر ، بل روعته واسخطته على عمرو . وكانما شاء بعض من حضر الموقف ان يهون الأمر عليه ، ويبرر مسلك القائد الظافر فقال له :

« لكنهم يصنعون ذلك بنا ، يا خليفة رسول الله .. »

فلم يزده هذا العذر الا ثورة .. وزجر محدثه في انكار :

« اتستنون بفارس والروم !.. »

ثم القى بامره :

« .. الا لا يحمل الى راس . انما يكفى الكتاب والخبر .. »
هذا هو راى الاسلام ، وجادة سلوكه مع المسلم وغير المسلم على

السواء اذ هم جميعا ، في حساب خالقهم ، وبمعيار قيم الأخلاق ، بشر كرمهم الله ، وفضلهم على كافة خلقه ..

غير أن الطغمة الجائرة المتجبرة جنحت الى جاهليتها الأولى تحيى شرعتها البالية . وتقتدى القدوة التى لا يطيب لها أن تقتدى بسواها ، متنكرة لقيم الانسانية ، ومخالفة قواعد الدين .. وهل كان أدنى الى نفوسها المدخولة ، وأقرب الى قلوبها الغلف الصماء التى لم يمس منها الاسلام غير قشرتها ، من تلك القدوة الأموية التى رسمتها هند ابنة عتبة ، أم عاهلهم معاوية ، وانحدرت مع دمها في عروقهم بطنا في عقب بطن ، وجيلا في اثر جيل ؟..

وما لها لا تكون قدوتهم وها هم أولاء يبارونها في الضراوة ؟.. لكأنهم آثروا إحياء سنتها ، إمعانا في الحقد واتباعا لنهمه ، فاستحضروها في أخيلتهم وهى تدور كالضبع على ارض معركة أحد تعبث بالقتلى ، فتلعق الدماء وتنهش الأشلاء !.. لكأنما طاب لهم أن يروها بعين التصور — وقد اغرت بحمزة من قتله — أن تأخذ جثته وتبقر بطنه وتقتلع كبده ثم تلوكها في فيها كلبؤة لتأكل منها ما لعلها تسيغ !.. لكأنما استهواهم أن راحت ، وصواحبها القرشيات ، يجدعن أنوف شهداء المسلمين ويقطعن آذانهم ، ليتخذنها لهن حلية : عقودا وقلائد تزين الأجياد والصدور الملساء !.. لكأنما شاءوا لأنفسهم أن يغدوا حلقة في سلسلة المثلة التى تصل بين بنت عتبة وبين حفيدها يزيد ابن معاوية إذ اندفع زبانيته يتلعبون بجثة الحسين سبط الرسول ، وقد أصيبت بسبعين طعنة ، فيدوسها عشرة من فرسانهم بخيلهم مرارا مرارا ، ذهابا وجيئة ، حتى دقوا عظمها وهرسوا لحمها وسووها بالأرض ، فلما أعياهم التركاض احتزوا راسها وحملوه لسيدهم ينكت في ثغره بقضيب معه ، تشفيا وشماتة ، محطما ثناياه ..

تلك طائفة من الناس كان التعذيب — فيما يلوح — لديها ملهاة ، وكانت المثلة تسلية !..

لو كان بهذه الفئة فضلة من طباع السباع — دون البشر — لعافت ما فعلت بابن أبى بكر بعد مصرعه ، ولانفض سامرها الخبيث ذلك اليوم بشهود راسه وهو يسقط على شفرة سيف ابن حديج ما دام حقدها حملها على قتله .. فالوحش قد يصرع فريسته دفعا لأذاها

عن نفسه ، وقد يلتهم لحمها سدا لجوعته وحفظا لحياته ، ولكنه يدعها ولا يتلعب بعد هذا بجيفتها ما دام قد قضى منها وطره ..

افكانوا اذن قوما ـ كما تضمنت سيرتهم ـ شغفوا بالشر وكلفوا به يجترحونه لذاته ، ويقترفونه للذاته ؟.. بارئهم اعلم بهم ، وبما اكنت قلوبهم وركب في طبائعهم .. ولكنهم دائما دائما مضوا على هذا السنن لا يخرجون عنه . فاذا أعوزهم من عدوهم ما يبيح ـ في شرعتهم ـ تعذيبه وقتله والتمثيل بجثته ، لجأوا الى ركوبه بهجر القول ومقذع السباب إدلالا عليه بسطوتهم وإذلالا له . وحين خلا لهم الميدان من بعد ، واستطاعوا ان يخفتوا صوت الحق ويرزأوا اهله مجردينهم من كل سلاح حتى سلاح الكلمة ، غلوا في الفجور الى غايته ، وراحوا يفظعون في تحطيم اقدار خصمهم وتشويه سيرتهم على الاشهاد وهم آمنون منهم ان يدفعوا الافتراء عن انفسهم ، ويكيلوا الكيل لهم بمثله .. حالهم كحال المبارز الذي ينازل خصمه بعد ان يشد وثاقه !..

عواهل أمية وعمالهم أسرفوا في هذه النزعة ما شاءوا وشاءت الضغينة ، ينالون بأذاهم عليا ومن تبعه ، اهله وصحبه ، موتى واحياء .. ولقد اخذ معاوية يسبه ويغرى به رجاله يلعنونه على المنابر .. ولقد قيل انه لم يقلع من هذا الفحش بعد موت الامام ، بل امعن فيه .. فما ان افضى اليه الأمر ، عام الجماعة ، حتى كتب ـ وعهد الصلح بينه وبين الحسن بن على لما يجف مداده ـ يأمر عماله :

« برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبى تراب واهل بيته .. »

ثم تعقبه وخلفاؤه ، في نسله وفي شيعته ، يطاردونهم وينكلون بهم في الذات وفي المال ، لا يجيزون لأحدهم شهادة ولا يؤدون له عطاءه .. وكم اهلكوا من حرث وأحرقوا من دور !.. وكم عذبوا سملا للأعين وقطعا للأيدى والأرجل ! وكم قتلوا وصلبوا على جذوع النخل وحملوا رءوسا على الحراب !.. لقد كانوا يأخذون الناس بالظنة ، وبالقربى ، وبالصلات الفكرية ويجتاحونهم بالحملات الارهابية حتى ان الرجل منهم ليقال عنه : زنديق او كافر أسلم له وابقى عليه من ان يقال من شيعة الامام !..

ومع ذلك فلم يعدم الزمن ان يطلع لهم من يثبت لبغيهم وهو مجرد من كل سلاح الا كلمة حق تنبعث من ايمانه وتلصق بشفتيه فاذا هو لا يكتمها بل يلفظها في وجوههم وان كان فيها حينه !.. من هذه الشاكلة التى التزمت الهدى واستمسكت بقداسة الراى : قيس بن مهر الصيداوى ، رسول الحسين الى ابن عمه مسلم بن عقيل بالكوفة .. دخل البلدة ومعه رسالة تعلن لمسلم مقدم ابن عمه بعد اذ دعاه اهلها وبايعوا له ، فاذا هو يقع في يدى عبيد الله بن زياد عامل بنى امية عليها بعد أن خانت الكوفة عهدها ، ونكثت كلمتها ، وصبأت ثانية الى طاعة يزيد ...

وجيء بقيس اسيرا فلاينه عبيد الله مليا ، كأنما سيفسح له في عفوه ، حتى إذا حسب انه اطمأن ، قال يغريه بلعن الحسين وابيه على الأشهاد :

« اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب .. »

فأظهر الرجل الانصياع ، واعتلى الدار يشرف من فوقها على اهل الكوفة ، فلما اجتمع ملؤهم ، خطبهم يقول :

« أيها الناس .. هذا الحسين بن على خير خلق الله ، وابن فاطمة بنت رسول الله ، قادم عليكم .. وانا رسوله اليكم .. فأجيبوه .. »

ثم تمهل قليلا وصاح :

« اللهم العن عبيد الله بن زياد واباه .. اللهم العن .. »

ولم يكفه عن ترديد لعناته الا أن امر ابن زياد رجاله فالقوا به من فوق القصر ..

وحتى النساء اقتحمن هذا المجال المحفوف بالمكاره ، غير هائبات غشما ولا خائفات لسطوة وانهن لفى احلك الظروف واشدها عليهن وجبروت القوم عندئذ على ارفع ذراه .. وهل ثمة احلك من يوم مقتل سيد الشهداء وآل بيته وصحبه ؟..

كان ذلك وقد حملت الرءوس بعد المذبحة الى يزيد ، واحاط به ذووه واشراف أهل الشام ، فدعا بمن سلم حيا من أهل الحسين ، صبية ونساء فأدخلوا عليه ..

وكأنما عطفت الرحم يحيى بن الحكم ، اخا مروان عليهم وقد غاب عنهم سيد بيتهم بأجله ، وخلفوا وراءهم رجالهم جثثا على ارض الوقعة تصهرها الشمس وتسفى عليها الريح ، فقال وهو يرثى لحالهم ، ويذكر قرابتهم :

« لهام بجنب الطف أدنى قـــرابة
من ابن زياد العبد ذى النسب الدغل

سميـــة أمسى نسلهـا عـدد الحصى
وليس لآل المصطفى اليوم من نسل »

فعاجله يزيد بضرب في صدره ، ليكفه عن رقته :

« اسكت !.. »

وجلس الصبية والنســاء ينتظرن ما يكون من العاهل . فاذا رجل من رجاله قد اخذت عينه فاطمة ابنة الحسين ، اذ رآها وضيئة ريانة ، يقبل على يزيد يحدثه :

« يا امير المؤمنين .. هب لى هذه .. »

وارتاعت الصغيرة . وملكها خوف غامر دفعها أن تلتصق بزينب ، وتستتر بها عن هذا الشامى الاحمق ، تلتمس عندها الحماية ..

وعلى الاثر انبرت زينب للرجل تزجره ، وتضعه حيث يجب ان يكون :

« كذبت والله ولؤمت !.. ما ذلك لك ولا له !.. »

واشارت الى يزيد ..

فأغضبت العاهل الأموى جراتهــا التى لعله رآها تنتقص من سلطانه ، وتخفض مقداره في أعين بطانته ، وصاح بها مدلا بجبروته :

« بل كذبت أنت !.. والله ان ذلك لى ، ولو شئت ان افعله لفعلت .. »

كأنما آل الرسول قد غدوا ملك يمينه ، يبيع منهم من شاء ، ويهب من شاء لمن شاء !..

لكن ادعاءه لم يرهبها ، واجابت :

« كلا والله !.. ما جعل الله ذلك لك الا ان تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا .. »

فاستطار غيظا ، والحت عليه المكابرة فعصف يقول :

« آاياى تستقبلين بهذا ؟.. إنما خرج من الدين أبوك وأخوك ..

قالت وراسها رافع وانفها اشم ، ترد عليه الرد الذى لا رد غيره يقمؤه ويخزيه :

« بدين الله .. دين جدى وابى واخى ، اهتديت انت وابوك وجدك .. » .

فلما ابى إلا اللجاج وقال :

« كذبت يا عدوة الله .. » .

اجابته في هدوء :

« انت أمير مسلط ، تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك !.. » .

وكان قولها فصل الخطابَ ..

.. لا مراء اذن في جنوح اولئكم القوم الى الغشم ، ما انفسح لهم ميدانه ، وتوافرت لديهم وسائله ، يقارفونه بالفعل والقول : مثلة وقتلة وتعذيبا ، أو لعنا وشتما وافتراء على الخصم وهم آمنون منه أن يرد فعلهم وقولهم عليهم ، لأنهم يملكون دونه سطوة البطش وصولة الارهاب ..

وكذلك فعلوا ، يومهم هذا ، بابن أبى بكر ..

عذبوه ، ثم قتلوه ، ثم احرقوه وهو لا يملك دفعا عن نفسه الا بالكلمة .. لهوا به ما شاءوا ، ليطعموا الحقد ويرووا الشماتة .. صبأوا إلى شرعة جاهليتهم العمياء فثاروا ومثلوا . وهم بين الثأر وبين المثلة يجدون المتعة التى اياها يحرمهم القصاص العادل ، او الصفح الكريم ..

وتصاعد حولهم في الجو دخان لحمه المحترق وان انوفهم لتكاد تنتهيه . وان لعابهم ليوشك معه أن يسيل كحال الجائع المتضور يلتذ بريح الشواء قبل التهامه !.. أم لا فكم منهم من تقزز وقرف والنار تتلهب وتشوى أمامه جثة آدمية يفوح منها ما يملأ خياشيمه ؟.. كم منهم من غثت نفسه فجهد ليبعد عن الوليمة الكريهة ؟.. كم منهم، في اقل القليل، من حاول، ولو باللسان، أن يدعوهم الى سلوك مسلك غراب ابنى نوح ليواروا سواة القتيل وهو — ما بلغت العداوة — أخ لهم في الانسانية ؟..

وبلغ هذا البلاء عائشة فأذهلها النبأ، وجمد الدمع في مآقيها ان تذرفه، وحبس الحزن في صدرها أن تنفثه حتى آدها الكظم فتسخبت دما وهي تلجأ إلى الله بمسجدها، تبثه شكواها في وجوم، سليبة اللب مثقلة القلب معقودة اللسان .. وعندما وسعها من بعد أن تثوب، حرمت على نفسها الشواء لا تذوقه ما عاشت .. وكيف تسيغه وهو لحم كلحم، ورائحة كرائحة، يستحضران أمامها جثة اخيها وهى تشوى على النار ؟..

وظلت السيدة حياتها مكروبة، تجتر أساها على محمد، ولا تتوقف عن هذا الاجترار كأنما لتعيش مع الاخ الحبيب في حزنها عليه !.. ولم يكن في طوقها ان تأخذ له من جلاديه فقد وكلتهم الى الله . ولكنها اخذت نفسها بما في قصاراها فاستراحت الى الدعوة عليهم، كلما عثرت هتفت في لهفة وألم من قرار فؤادها المحطم المصدوع :

« تعس ابن أبى سفيان !. تعس ابن العاص !. تعس ابن حديج!.» .

وصدق رسول الله .

فلقد اوشك من قبل أن يلهم نبأ هذه المحنة الذى ختمت حياة محمد بن ابى بكر وانه عندئذ حمل مستور في بطن امه لم يكشف الغيب عنه .. ومن غير رسول الله اولى بأن يفتح له ربه، حين تشاء قدرته سبحانه، أبواب غيبه، ليطلع من خصاصها على بعض ما فيه ؟.

ذاك ما تجلى له في رؤيا أسماء، ذات ليلة في مستهل الدعوة، وقد خرج ابو بكر في غزاة .. فقد رأت السيدة زوجها الغائب، في المنام،

مخضوب الراس واللحية بالحناء ، وعليه ثياب بيض . فأقبلت تقص رؤياها على عائشة ، وتلتمس من لدنها التأويل .

وريعت عائشة لما سمعت ، وجزعت على ابيها .. ولكنها صارحت السيدة :

« ان صدقت رؤياك فقد قتل ابو بكر .. ان خضابه الدم ، وان ثيابه اكفانه » ..

وند دمع اسماء ، وعلا صوتها تبكى زوجها ، حتى سمعها رسول الله ..

فسأل :

« ما ابكاها ؟ .. »

قيل له :

« ما ابكاها احد ، ولكنها ذكرت رؤيا لابى بكر » .

وقصوا عليه الحلم وتأويله :

عندئذ قال :

« ليس كما عبرت عائشة . ولكن يرجع ابو بكر صالحا ، فيلقى اسماء ، فتحمل منه بغلام ، فتسميه محمدا يجعله الله غيظا على الكافرين والمنافقين » .

وسلم الصديق . وانجب غلاما كان من صفته ما ذكره الرسول ، وعبر عنه على من بعد بقوله : « يبغض شكل الفاجر » .. وكان من قدره انه هو الذى خضبت راسه ولحيته بالحناء !.

الفصل الثاني

١

تطير معاوية وهو يصغى لبعض خاصته حين حملوا اليه راى الفلك في بعثته التى شاء أشخاصها الى العراق . فالطالع نحس . والنجوم تحذره ان يوفدها في هذا الموعد . والخطر الذى يستشفه من مخالفة مشورة منجميه لا تجمل معه مجازفة .

وعلى الأثر كتب الى ابن الحضرمى يأمره :

« لا تبرح .. حتى يأتيك امرى . » .

وكذلك توقفت الى حين بعثة الارهاب والتخذيل التى اعدها لاغتصاب البصرة . الى غير هذه الساعة من يومه ارجأ سيرها واجله .. الى ساعة يمن تقبل فيقرن بها السير .. وماله لا يفعل حتى تأذن الأنجم .. ويقطع القمر في رحلة فلكه شوطا ينقله من برج نحسه إلى برج سعد يحسن برجاله الانطلاق في ابانه نحو غرضه بين يدى البركة واليمن الى الظفر ؟..

ان العاهل ليتطير . وانه ليسترشد بأجرام السماء والكواكب استرشاد مستقرىء للغيب لا مهتد بها في بر أو بحر ،كأنما في استطاعتها الكشف له عن نفع يقتنصه أو شر يجتنبه .. ولو انه علم لأدرك ان ايمانه هذا بما يظنها تومىء اليه وتنبئه به هو أدنى الى الوثوق بقدرتها على تشكيل مصاير الخلق وتلوينها فهو ادعى الى الحمل على محمل الشرك بالله ..

فلعله لا يعلم . او لعله يعلم ولم ينتفع بما يعلم .. ومنذ قريب اجتاز الامام نفس تجربته فأبى على الكواكب قدرتها ، ونها اصحابه عن الاصغاء لما يظنون أنها تشير به ، لأن استنباء الأنجم عقبى الأحداث ومصاير الناس ضرب من الكهانة ، من صدق به فقد كذب بالقرآن ..

على ان معاوية ، فيما بدا ، آثر الرضوخ للخرافة ، او لهذا الانحراف عن جادة الإيمان الخالص بربه ، فأنس إلى مشورة منجميه .

وبقى من بعد اياما عدة يرقب صاحب بعثته حتى لقد حسب الرجل أنه عدل عن رأيه . ثم مكث يصابر الوقت ، ويهدىء — ما وسعه — من فورة رغبته الجامحة في العصف بالمصر من داخله ، بلوغا الى تمزيق وحدة أهله وانتقاضهم على عدوه .

وراح يشغل الوقت عندئذ بتدبر خطته ويحاول تجسيدها بدءا ونتيجة — في خياله ، ويسطر العوامل التى دفعته الى رسمها ، والأسباب التى علقت بها أمله ..

ولم يملك عندئذ الا الاقرار بالفضل لعباس بن الضحاك العبدى صنيعته بالبصرة . فهو موحي فكرة هذه البعثة اليه ، وغارس بذرتها في روعه . وهو عين له بالبلدة وعون ، خرج من اجل نصرته على اجماع قومه . وهو ، بعد هذا وقبله ، واضع الخطة ، ومبين دواعيها ، والمشير عليه بما يجمل اتباعه ..

فلقد كتب له ذلك الصنيعة ، غب غزو ارض النيل ، ودخولها في حوزة الشام ، يقول :

« ... بلغنا وقعتك بأهل مصر ، الذين بغوا على امامهم ، وقتلوا خليفتهم .. فقرت بذلك العيون .. وبردت افئدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوه مفارقين ، ولكم موالين ، وبك راضين .. ان ابن عباس غائب عن المصر . فان رأيت أن تبعث الينا اميرا طيبا ذكيا ذا عفاف ودين ، للطلب بدم عثمان ، فعلت . فإني لا اخال الناس إلا مجمعين عليك ... »

واعجبت الخطة معاوية ، فأجاب :

« ... قبلت مشورتك ، رحمك الله وسددك .. فاثبت ، هداك الله ، على رأيك الرشيد . فكأنك بالرجل الذى سألت قد أتاك . وكأنك بالجيش قد أطل عليك .. »

وكانت الخطة يسيرة على التنفيذ ، خليقة بالنجاح .

فالفراغ الذى تركه رحيل عبد الله بن عباس ، عامل البصرة ، عنها إلى الكوفة ، ليواسى ابن عمه في فجيعته بمحمد بن أبى بكر ، وليهون عليه بعض ما لقى من محنة مصر ....

والمرارة التى ما زالت بقية منها ، لا يغفل قدرها ، عالقة بحلوق كثرة من البصريين منذ وقعة الجمل ، التى كسرت قواتهم ، وخضدت شوكتهم ، وجرحت كبرياءهم ، وقهرتهم على الخضوع للامام كارهين . . . .

ودعوة الثأر المكتومة في صدور عديدة للدماء والدموع التى فجرتها تلك الوقعة في كل اسرة ، وبجستها من كل عين . . . .

وشراذم العثمانية اللائذة بالمصر ، والعائذة باظهار الطاعة لعلى رياء ومداجاة حتى تلوح في الأفق فرصة للقود لعثمان من العهد الذى ألصقوا به — ظالمين أو مخدوعين — جريرة قتله . . . .

والتناحر القبلى — تيها بالبأس ، ومفاخرة بالأصل — بين العشائر المقيمة بالبصرة والضاربة على تخومها وفي ربوعها ، كالأزد ومضر وربيعة ، وما كان دائما يثيره هذا الاحساس الفج في نفوس رجالها من تنافس جموح قد يبلغ بهم ذروة التباغض ، ومن تنافر في المجتمع البصرى يكاد يشق وحدته ويضعه على حافة هاوية الانقسام . . . .

كل هذه عوامل لم تكن بخافية وان توارت — بعد الجمل — خلف حجاب غير كثيف من الهدوء قرابة عامين ، لا اقرارا بالهدوء ولا ايمانا بجدواه وانما لانصراف الأذهان حينذاك الى ما كان يدور بالدولة من أحداث عامة خطيرة ، متابعة لها ، وانشغالا بها عما عداها من ظروف خاصة ومن دواع محلية محصورة في نطاق الاقليم .

ولقد كان معاوية ، بطبيعة الحال ، خليقا بأن يعلم الكثير عن ذلك التمزق الذى ينخر في جسد البصرة ، وان يدرك انه « جند » له لا يلبث ، حين تأزف الآزفة ، أن يدعم قواته او يكون طليعتها الى فتح البصرة وانتزاعها من يد الامام . ولعل يومه هذا لم يكن أول ما خايلته فيه الفكرة . غير ان الهيبة التى القاها علىّ في نفوس أهل البصرة بانتصاره الساحق في « الجمل » على أحزاب معارضيه ، والاستقرار الذى ساد فيها طوال ولاية ابن عباس واجتمع به شمث طوائفها المتناحرة تحت راية الولاء للامام ، والأحداث التى تعاقبت سراعا وشغلت عاهل الشام بنفسه وباقليمه عن كل ما عداه ، كلها لم تدع لمعاوية من قبل سبيلا الى الاقدام على تنفيذ ما عساه خايله واجتياز

تجربة قد لا تؤمن مغبتها وخليق بها ، لو اخفقت ، أن تدفنه تحت انقاض حلمه العريض !.

لكنه اليوم ، إذ جاءته مشورة العبدى ، غيره امس ، بعد أن حالفه قدره وفتح عليه أرض النيل . فانتصار جيش ابن العاص قد أعز شانه ، ونفخ في روح أنصاره بكل مكان ، والقى هيبتـه في قلوب المسلمين بأرضه وارض عدوه على السواء ، وأتاح له تأمين حدود دولته من ناحية فلسطين ، وضمن له ، الى جوار هذا كله ، موارد مصر من المال والرجال التى لا تعدلها موارد غيرها من الولايات .. فإذا هو الآن نازعته نفسه إلى فتح البصرة فإنه نزوع من امن العاقبة واطمأن للنتيجة وقد غدا صاحب النجم الصاعد واليد العليـا في الصراع المرير الناشب بينه وبين غريمه على السلطان .

ولم يخالف معاوية عن طبعه وهو يبنى « الخطة البصرية » على تلك العوامل المواتية التى هيأتها له الظروف ورآها كفيلة بتحقيق غرضه . فما كان ليتنكر لطبيعته الحذرة التى تؤثر الريث وتكاد تقدم الاحجام على الأمر على الاقدام عليه ما وسـعه أن يرجىء ويتمهـل ما دامت في الأفق بارقة رجاء في مطلع غد انسب لغرضه وأجدى عليه. وما كان ليركن الى احتمالات تحـدثه برجحان كفته ان هى دفعته لركوب مخاطرة قد تباغته فيها احتمالات غيرها معاكسة لم تطف بتقديره . وما كان ليجازف باقتحام خطر ــ وان كان أوهى من بيت عنكبوت ــ ليصل من خلاله إلى مغنم دان يراوده ويلمع له ، ضنا بما في يده ان يضيع لو خانه طالعه وأخفق في انقضاضه على ذلك المغنم الذى في يد سواه .

وها هى البصرة الآن .. انها كالثمرة اليانعة ، قد أنضجتها له الظروف فثقل بها غصنها ودنت للقاطف ، مغرية تخلب اللب ، شهية تثير الرغبة ، عاطلة من الشوك ، مستباحة بلا سياج .. ولكنه يكبح نفسه ، ويملك طموحه ان يمد اليها يده جهرة أمام العيون .. وهل كان ليفعل وقد علمته تجربة الأمس القاسية بصفين ان خيره كل خيره هو في السـير الى آرابه في دروب خفيـة تحتية ، وأن دواعى الحال تقتضيه تجنب العلانية والمواجهة والاخذ بأسلوب الالتفاف والالتواء ؟

بل قد تعلم درس صفين ووعاه ، وخلص منه بحقيقة واضحة

لا يشوبها ظل من ريبة تومىء بكل اصابعها الى قصور جهده وعجز قدرته عن الثبات للامام في ميدان قتال .. وليس هو بمن يهدر التجربة .. ولا بمن تستخفه مخايل الظفر الميسور الذى يهيب به الآن — بلسان عوامل التمزق الضاربة في البصرة — أن يبعث الى البلدة بجيش ما أن يقارب مشارفها حتى تهبه الولاء .. ولئن كانت مصر ، منذ قليل ، قد دانت له بقوة الفتح ، فان الظروف غير الظروف ، ومصر غير البصرة ، والشقة من الكوفة الى كل منهما غير الشقة ، لأنها الى الأولى ابعد مدى واعسر مراحل ، والى الثانية ادنى وايسر . ولن يكون مصير البصرة كمصير مصر لانها بموضعها من العراق تكاد تقع على قيد الشبر من على أن لم تكن في قبضة يمينه . وفي نطاق المحال لا ريب أن يفلح جيش أموى ، مهما كانت خفة حركته وسرعة انقضاضه ، أن ينتزعها ويطير بها هدية لصاحب الشام !.

لا قبل اذن لمعاوية ، في ظل ذلك الوضع ، بحرب سافرة في البصرة ما بلغت قوة العوامل المرجحة لانتصاره . فالمرحلة إليها من دمشق طويلة . وجيشه الغازى سينتشر على مسافات ترق بها كثافته وتتبعثر قواته . واللقاء عندئذ وسط أرض غريبة عنه ، يعوزه فيها تأمين خطوطه . وعنصر المباغتة لا سبيل إلى تحقيقه والاعتماد عليه . والمقارنة بعد هذا بين كفاءة القيادة في كلا الجيشين المتناجزين ترجح بلا جدال كفة الامام .

فكانى بالرجل ، وقد استحضر كل هذا في باله ، يعدل عن الحرب المكشوفة الى الحرب المستترة ، وعن الغزو الى التسلل ، وعن اقتحام البصرة عنوة بجيش فاتح الى دخولها خلسة بفريق من اصحابه لهم القدرة على اثارة الخواطر واشاعة القلق ، وضرب اهلها بعضهم ببعض توسيعا لهوة الانقسام بينهم وتوهينا لوحدتهم . فاذا هو استطاع أن يبلغ من هذا وطره ، فقد وقعت الفتنة التى يعز بها حزبه ، وتشتد قوة انصاره ، وتعلو بها هيبته بقدر ما تهبط هيبة غريمه .

وكذلك ابرم معاوية أمره ، وعدّل خطته . فلأن يعصف بالبصرة من داخلها لهو أسلم عقبى من غزوها بجيش مغير . ولأن يقلب الحكم بها على الولى الشرعى لهو ايسر واضمن نتيجة . ولن تكون هى عندئذ

اعصى عليه من مصر التى ما دانت له ــ في حقيقة الحال ــ إلا بانتشار دعوته ، واشتداد ساعد جيشه « السرى » فيها ، او « طابوره الخامس » بالتعبير الحديث !.

خطة يسيرة ، وجهد أيسر ثم تسقط الثمرة الناضجة تحت قدميه ..

ودبر الرجل كيده ، فأعد بعثة ابن الحضرمى لتتسلل الى البصرة ، لا في بزة قتال بل في طيالسة دعاة يتباكون على الحق ويحثون على اتباعه . وكان الحق الذى يراه رحبا فسيحا يتسع لكل خدعة من أخاديعه ودعوى ظالمة لا تقرها حقائق الواقع ولا شرائع الأخلاق . فهو اثارة الأحقاد . وهو صدع الوحدة . وهو التنادى بالثأر . وهو الاتهام الظالم والافتراء ، كلها مغلفة بالانتصاف لعثمان .

ومع ذلك فقد تردد معاوية مليا قبل ان ينفذ البعثة وان كاد يوقن انها تحالف الظفر وتسير في ركابه . فلعلها طيرته قد جعلته عندئذ لا يحسم .. ولعلها ايضا رويته التى تشده دائما إلى التريث . ولعله ، فوق هذه وتلك ، ذلك الاحساس الثقيل بالفراغ الذى كان يملأ عليه حياته بعد غياب مشيره ومبدع الراى الأثير عنده بعيدا عنه حينئذ على شاطىء النيل .

ونشط من لحظته الى كتاب دبجه الى رفيق كيده وشريك خدعه وصاحب شوراه عمرو بن العاص :

« ... رأيت رأيا هممت بامضائه ولم يخذلنى عنه الا استطلاع رأيك ، فان توافقنى أحمد الله .. ..

انى نظرت في امر البصرة فوجدت معظم اهلها لنا وليا ، ولعلى وشيعته عدوا وقد اوقع بهم الوقعة التى علمت فأحقاد تلك الدماء في صدورهم لا تبرح .. ..

وقد علمت أن قتلنا ابن ابى بكر ، ووقعتنا بأهل مصر قد اطفأت نيران على في الآفاق ، ورفعت رءوس أتباعنا اينما كانوا .. وقد بلغ من كان بالبصرة على رأينا من ذلك ما بلغ الناس ، وليس احد اكثر عددا ولا اضر خلافا على على من أولئك .. » .

ومضى في كتابه يوجز امره الذى القاه لابن الحضرمى ، صاحب البعثة الموقدة لاحداث الفتنة بالبصرة :

« ... ينزل في مضر ، ويتودد الازد ، ويحذر ربيعة ، ويبتغى دم ابن عفان ، ويذكرهم وقعة علىّ بهم التى اهلكت صالحى اخوانهم وآبائهم وابنائهم . فقد رجوت عند ذلك ان يفسد على علىّ وشيعته ذلك الفرج من الارض .. .. » .

وختم يتعجل رده :

« .. هذا رايى فما رايك ؟.. لا تحبس رسولى الا قدر مضى الساعة التى ينتظر فيها جواب كتابى .. والسلام » .

٢

المحور الذى كان لا بد ان تدور عليه اية فتنة ينشبها القوم ضد على هو دعوة الثأر لعثمان . فهى باعثة وقعة الجمل . وهى سبب ضياع مصر . وهى الباب الواسع المفتوح على مصراعيه الى قلوب العامة لالهاب مشاعرهم ، وتحريك احقادهم النائمة ، واثارة كوامن اعتزازهم بالمروءة والنجدة والانتصاف للمظلوم . وهى دون هذا وفوقه دعوة اكتست ثوبا براقا يبهر الاعين ويستهوى الأنفس ثم لا يكاد يفتقر — في خواطر الجماهير التى تغرها القشور والمظاهر — من مسحة حق بعد ان ارتفعت بها من قبل اصوات عائشة والزبير وطلحة وفريق غيرهم من القوم من بين الصفوة الذين لهم في الامة مكانة وذكر ، وفي القلوب هيبة واكبار ، وفي الاسلام قدم وسابقة ..

ولقد كان من الطبيعى أن يقر عمرو بن العاص صاحبه على رايه الذى ساقه ويحثه على انفاذه . فمعاوية اليوم ذو نجم بازغ ، وصاحب دنيا مقبلة يفسح فيها لكل طامع تستذله شهوة النفس فلا يانف ان يشترى منها اربه ولو بدينه ، او بالمثل العالية ، او بمكارم الاخلاق . وعمرو اليف نهم بالنفوذ واسباب الجاه لا يكاد يشبع ولا تكف امانيه الكبار عن مخايلته منها بمزيد . واذا كان ماهل الشام قد اطمعه

مصر بملكها الثرى العريض ، فتلك طعمة لا تملأ جوفه ، ورايه المؤيد التبيع خليق بأن يوطد ثقة سيده فيه ، ويدعم رضاءه عنه ، وليس بالمستبعد ان يفيء عليه طعمة جديدة !.

ولا غرابة ، مع ذلك ، إن هو أنس للراى واقره لأن التآمر بعض شيمته ، والكيد لعلى سلكه ومولاه في خيط ، وادعاء الانتصاف لعثمان بالانتقام والثأر مبدأ التزماه ، منذ بدء تحالفهما عقب الجمل ، وسيلة خادعة وناجعة ، لانتزاع السلطان .

وكتب في جوابه :

« .. فهمت رايك الذى رايته .. وان الذى ألقاه في روعك هو الثأر لابن عفان والطالب بدمه .. ولم يك منك ، ولا منا — منذ نهضنا في هذه الحروب — ولا رأى الناس رأيا أضر على عدوك ولا أسر لوليك من هذا الأمر الذى الهمته .. فامض رايك !.. » .

وآن لجأش معاوية عندئذ ان ينبت ، ولباله أن يهدأ وقد أشاع كتاب عمرو في قلبه الثقة بنفسه ، وهون عليه وطأة احساسه بالفراغ لغياب مشيره .. فكأنما اطمأن الى صواب تدبيره . وكأنما طالعته النجوم أخيرا ببرج سعده وأذنت له أن ينفذ بعثه . فاذا هو يخف من فوره فيدعو اليه عبد الله بن عامر بن الحضرمى الذى لقنه الخطة وأعده لانتزاع البصرة من يد على ويأمره بالسير :

« سر على بركة الله.. » .

ولم ينس وهو يكرر عليه ثانية خطته تلك التى تقوم على ايقاع الفرقة واثارة الأحقاد ودعوة الثأر أن يقرن ما ذكره بعنصر آخر درج دائما على ان يكون من أسلحته في النزاع ، هو عنصر الاغواء بزخرف المال الذى لا يستطيع أن يقاومه من النفوس الا القليل :

« .. ومن لمن سمع وأطاع دنيا لا تفنى ، وأثرة لا يفقدها حتى يفقدنا او نفقده .. » .

ثم لم يدع وعده هذا الذى يبتعث النهم ويسيل له لعاب الأطماع مجرد كلمة في فم ابن الحضرمى لو شاء بلعها او شاء لفظها ووضعها في الاسماع . وانما سجله عهدا على نفسه في كتاب مختوم يقطعه لكل

الذين يستهويهم نشبه وينحرفون اليـــه ، ويثمن به الفتنة في قائمة الأسعار !..

قال في كتابه مع مبعوثه الى أولئك الذين ايقن انهم لا بد ــ من اجــل الدنيا ــ مناصروه ، وخارجون وراء دعوته على النظـام العام والولاء للامام :

« .. وان لكم ان أعطيكم في السنة عطاءين !.. ولا احتمل فضلا من فيئكم عنكم أبدا .. فسارعوا الى ما تدعون اليه .. » ..

وما كانوا بالقليل . ولا كان ينتظر منهم ان يتحرجوا أو يتوانوا عن اتباع دعوته أو دعواه وانهم ليطوون جوانحهم ــ منذ الجمل ــ على غل لعلي مقيم وان تحاملوا طويلا على انفســهم راغمين فابدوا من نعـومة الطاعة مثل الزهو في جلد الثعبان !..

ومع طول الشقة من دمشق الى البصرة ، فقد استطاع ابن الحضرمي أن يمضي الطريق كله اليها آمنا موفور السلامة . واستطاع أن يتسلل الى المصر وليس من أحد ــ فيمن مر على كثب من ولاياتهم او اجتاز اراضيها ــ من عمال الامام من بدا انه تصدى له او حاول الوقوف في وجهه .. وهذه ظاهرة غالبة ومعجبــة تكاد تومىء الى ان هم كل عامل لم يكن الا منصرفا الى ضبط الأمن بداخل ولايته ما تعرضت لشغب محلي . فأما اذا مرت به ، أو بحدوده ، جماعة مريبة بل خارجة على الامام فذاك ما لا يكاد يعنيه ما دامت تمضي على حـدوده ولا تعرض لأرضه بشيء ..

والامثلة على هذا النوع من التهاون لا تغيب عن متقصيها . وهي توشك أن تنطق بضعف طائفة من العمال عن النهوض بتبعة واجبهم حيال الدولة جمعاء وافتقارهم الى القدرة على الارتفاع الى مستوى المسئولية المسندة اليهم . وتوشك كذلك أن تدلنا على عجزهم عن المبادرة الذاتية لمواجهة امثال هذه المواقف وايثارهم الانتظار حتى يأتيهم الامر عنها من حاضرة الدولة . ثم يوشك ثالثة أن يبديهم ذوي ادراك يقصر عن تفهم حقيقة السياســة العملية التى شرعهــا الامام واخذ نفســه واصحابه بانتهاجها حيال اعدائه او مخالفيــه لا يفاتحهم بحرب الا اذا هم بداوا العدوان . فاذا فهم بعض أولئك العمال من

هـذا المبدأ الا يـبدوا في ارضهم كل منفذ خلالهـا قد يجتازه مبتغى فتنة او غاز عاد الى ولاية أخرى في طاعة الامام فذاك فيه من التنكر للولاء ومن التفريط في الأمانة اكثر مما فيـه من تهاون وان حسنت النيات .

ولم يغب سوء عقبى مثل هذا السلوك عن على فحذر منه ، ولحا عليه أحد عماله فكتب اليه :

« .. قد صرت جسرا لمن اراد الغارة من أعدائك على أوليائك ، غير شديد المنكب ، ولا مهيب الجانب ، ولا ساد ثغرة ، ولا كاسر لعدو شوكة ، ولا مغن عن أهل النصرة ، ولا مجز عن اميره .. .. » .

بلغ ابن الحضرمى اذن البصرة ، متسللا او على عين أولى الأمر فيها فلم يلق من ينهض له ، او يحول بينه وبين دخولها لا بسيف ولا بكلمة. ومضى وجهته ، كمـا أمره عاهله ، فنزل في بنى تميم الذين يؤمن له تأييدهم ، ويؤمن منهم مخالفتهم عليه . وكان أصحابه ، فيما بدا ، قد سعوا بين يديه في جنبات المصر يحدثون عنه ويبثون دعوته ، فاذا جموع العثمانية تنساب اليه من كل ناحية ، الأذناب والرءوس على السواء . واذا هو حين يلتفون به ويستشعر بينهم المنعة وعزة الجوار، لا يجد بنفسه حاجة الى التزام اسلوب الدعاة الذى يبدأ عادة بالهوادة ولين الكلام تدرجا وئيدا الى لب الدعوة وغرضها الخطير . انما يحمله ما شاع حوله من تأييد الى القفز دفعة واحدة الى مطالبتهم ، بغير مواربة ، بالتشرع للعنف والثأر والانتقام :

« أيها الناس .. ان أمامكم ، امام الهدى عثمان بن عفان ، قتله على بن ابى طالب ظلما .. فطلبتم بدمه ، وقاتلتم من قتله ، واصيب منكم الملأ الأخيار .. وقد جاءكم الله بإخوان لكم ، لهم باس يتقى ، وعدد لا يحصى .. فمالئوهم وساعدوهم ، وتذكروا ثأركم لتشفوا صدوركم من عدوكم .. » .

وكان حريا بدعوته ان تلقى في الصدور أصداء مختلفة . بعضها يرحب ، وبعضهـا ينكر ، وبعضها يقف بين هـذه وتلك ــ على تردد أو بينة ــ لا يقطع الى اى الفريقين ينحاز .. فالبصرة كما علمنا ، من قبل الجمل ، جمعت في أهلها الطوائف الثلاث : العثمانية ، وأصحاب

على ، ومن رأوا الحيدة عن كليهما ، لا إيثارا للسلامة بل إيمانا بجدوى حيدتهم على الخير العام وتجنيب الامة شر الانقسام . وهى اليوم كأمس وان عز نفر حزب وقل نفر آخر . ولكن الذى لا يستطاع اغفاله أن أناسا انضووا في الماضى تحت لواء المناهضة للامام ابوا الآن ان يعيدوا الكرة ويرجعوا كبدئهم . بل استمسكوا بولائهم للدولة ، انتفاعا بعبرة الأحداث ..

وقام منهم من صاح في وجه الداعية :

« قبح الله ما جئتنا به !.. جئتنا بمثل ما جاء به صاحباك طلحة والزبير .. اتيانا وقد بايعنا عليا ، فكلمتنا واحدة .. فدعوانا الى الفرقة حتى ضربنا بعضنا ببعض عدوانا وظلما .. فما سلمنا من عظيم وبال .. » .

فقطع عليه رجل من الحزب الآخر حديثه :

« اسكت فلست بأهل أن تتكلم في أمر العامة .. » .

لكنه تابع قوله :

« .. نحن الآن مجمعون على بيعة هذا العبد الصالح الذى اقال العثرة ، وعفا عن المسيء ، واخذ بيعة غائبنا وشاهدنا .. » .

ثم التفت الى ابن الحضرمى يقول له كالساخر :

« .. افتأمرنا الآن ان نختلع اسيافنا من اغمادها ثم يضرب بعضنا بعضا ليكون معاوية أميرا ، وتكون له وزيرا ، ونعدل بهذا الأمر عن على ؟.. لا والله !.. ليوم من أيام على مع رسول الله خير من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا ما الدنيا باقية !.. » .

واشتبكت الآراء . واستعر الحديث حتى غدا سبابا وملاحاة . وأوشك العنف أن يصرف القوم عن ابن الحضرمى ويغرق دعوته في لجة التهاتر .. عندئذ تصدى لهم ، عبد الرحمن بن عمير ، أحد بنى تميم ، وهو يلوذ فيحديثه بهوادة الدعاة وترفقهم ، لعله يزخرفالقول والموعظة الحسنة يهيىء لدعوة الداعية في نفوسهم ما لم يهيئه خشن الحديث .

قال في هدوء :

« عباد الله ، انا لم ندعكم الى الاختلاف والفرقة ، ولا نريد ان تقتتلوا .. انما ندعوكم ان تجمعوا كلمتكم ، وتؤازروا اخوانكم الذين هم على رايكم .. وتصلحوا ذات بينكم .. فمهلا مهلا رحمكم الله ، واستمعوا لهذا الكتاب ..... »

فألقوا السمع .

ونض امامهم كتاب معاوية ، ونثر عليهم ما فيه :

« .. ان سفك الدماء بغير حلها .... هلاك موبق وخسران مبين .. وقد رايتم آثار ابن عفان وسيرته ، ومعدلته .... حتى توثب عليه المتوثبون ، وتظاهر الظالمون ، فقتلوه مسلما محرما ظمآن صائما لم يسفك فيهم دما .... وانما ندعوكم ، أيها المسلمون ، الى الطلب بدمه ، وقتال من قتله .... فاذا اجتمعت الكلمة ، اقر الظالمون الذين قتلوا امامهم بغير حق فأخذوا بجرائرهم .... »

دعوة ذكية ، لانها مرسلة ، لا تحصر الاتهام في امرىء بعينه ، فليفهمها اذن من شاء وليؤولها كيف شاء !.. وهي بعد دعوة عادلة ، في راى كل مجتمع بشرى ، وفي رأى الدين ، لانها تحث على القود والقصاص ، انتصافا من القاتل للمقتول ..

ومع هذا فقد قرنها معاوية بالتلويح لمن سمعها وتابعه عليها بدنياه ، وانه ليعلم ان الدنيا احيانا اقرب الى استهواء الأنفس وأقدر من الدين !.. وها هو الآن – على البعد – قد ضمن من الكثرة المجتمعة حول مبعوثه الانضمام اليه ، ان لم يكن من اجل الشرع ، فاستجابة لما وعدهم في كتابه من مضاعفة العطاء !..

وعقب ابن الحضرمى :

« اجيبونى الى الحق ، وانصرونى .... »

فنهض على الاثر ابن ضحاك العبدى ، صاحب خطة هذا البعث ، المشير به على معاوية ، يبادر بتلبية الدعوة :

« والذى له اسعى ، واياه اخشى ، لننصرنك باسيافنا وايدينا .. »

فما اكمل عبارته حتى تبعته كثرة من القوم ، لمعظمهم هوى – بلا شك – في نشب صاحب الشام وسخائه المعروض :

« سمعنا واطعنا .. »

وطفا على هزيم هتافهم ، طفو الزبد على الماء ، صوت خافت ، كأنما يعلن على استحياء عن رأى حزب الحياد بلسان الاحنف بن قيس :

« اما انا فلا !.. لا ناقة لى ولا جمل في هذا الأمر .... »

وعندما حسب انصار معاوية ان كلمة حزبهم قد طغت على ماعداها واستقر لهم الأمر ، باغتهم المثنى بن مخرمة العبدى بصوته الجهير :

« لا والذى لا اله الا هو !.. »

ثم رمق ابن الحضرمي بعين ملتهبة النظـرة . وقال ـ توعـدا وتهديدا ـ وهو يضغط على حروف كلماته ، إبانة عن العزم والاصرار :

« .. لئن لم ترجع الى مكانك الذى اقبلت منه لنجاهدنك !.. اندع ابن عم رسول الله وسيد المسلمين وندخل في طاعة حزب من الاحزاب طاغ ؟.. والله لا يكون ذلك حتي تفلق السيوف السهام !.. »

٣

مع ما أسفر عنه الاتجاه العام من انتصار دعاة الانتقام ، فقد راى ابن الحضرمي ان الحذر اولى به ما دامت ثمة طائفة بالبصرة ، كابن مخرمة ، لم ترهبها كثرة ناصره ، ولم يخدعها التلويح بجاه المال عما استمسكت به واتخذت نفسها بالتزامه وفاء وطاعة ، وان غدت وقودا للنار ..

ولم يكن الرجل قد سعى بعد الى الأزد يعرض نفسه وامره ، متوددا كراى عاهله ، او متحسسا نبضهم كما ينبغى على مشعل فتنة ان يفعل قبل ان يقدح الزناد !.. تلك خطوة تالية في منهج عمله آن له ان يقطعها بعد ان فرغ من لقائه الميمون المشهود . فماله لا يحث الخطى الى حى اولئك الذين عليه ان يتالفهم ليجمعهم حوله فيامن بانضمامهم اليه . ما قد لا يامن اذا تركهم في صفوف اعدائه ، او على الاقل منحازين عنه ، لا يعادونه ولا ينصرونه ؟..

وكذلك مضى . واقبل على سيدهم يحدثه ، ويحرك في نفسه لواعج المواجد القديمة ، وحصاد « الجمل » الذى كان له فيهم بكل قلب ضغن ، وبكل بيت ضحية :

« يا صبرة .. انت راس قومك ، وعظيم من عظماء العرب ، واحد الطلبة بدم عثمان . راينا رايك ، ورايك راينا ، وبلاء القوم عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورايت .. فانصرنى وكن من دونى . »

فتفكر صبرة مليا يتدبر ..

انها لدعوة الى الثأر سافرة . والى الفتنة . والى الانسلاخ من الطاعة . لها بلا ريب صدى في قلب كل موتور .. ولقد وتره على وتر قومه . ونال منهم يوم الوقعة اذ هم سور حول عائشة حتى شاعت فيهم المقتلة كما لم تشع في غيرهم من الناس .. ومع ذلك فذاك بالأمس ، والأمس ذهب . الدم جف والجراح التأمت . والعفو الكريم ــ مع القدرة ــ عن ارتدادهم عن بيعة على ، ونكثهم عهده ، قد مسح هونا على قلوبهم ومآقيهم .. فهل يا ترى يعود كرة أخرى بقومه الى خلاف جديد ومحنة جديدة ؟..

لكأنى به قد تذاءب هنيهــة بين النكوث وبين الثبــات . بين الاستجابة لدعوة الثار والاستقامة على واجب الولاء . بين المشاركة في انقسام الأمة وبين الابقاء على وحدتها التى كادت أخيرا تلتئم بعد دم وقعقعة سلاح .. لكأنه كان نهبا بين واجبه وعاطفته . عقله وقلبه ، امته وقبيله ..

تلك اللحظات القلائل التى عاشها الرجل عندئذ كانت ــ فيما يلوح ــ دهرا طويلا من الصراع النفسى في دخيلته ، عانى ابانه ما لم يعان من قبل مثله في كل ما قطع من سنى الحياة . فكذلك تختبر الانفس . وكذلك تجرب الضمائر . والهنيهات التى يواجه المرء فيها مفرق الطرق ليحسم الى اين وجهته هى اشق محنة يجتازها واقدرها على تشكيل مصيره وتغيير اتجاه التيار ..

وبدا من صبرة كأنما حزم أمره فطالع ضيفه بوجه باسر لا تكاد بشرته تنم عما وراءه ، ثم عرض عليه ما تمليه شيمة الاريحية العربية التى تأبى أن ترد طالب حاجة ، لائذا بالكنف ، عائذا بالجوار ..

قال في هدوء :

« ان أنت اتيتنى فنزلت في دارى نصرتك ومنعتك .. »

فكان بهذا العرض ، من دعوة ضيفه ، لا الى الرفض ولا الى القبول ..

لكن هذا الرد منه راق ابن الحضرمي لانه نضح بالرد المأمول ، وأفسح له الأمل في نجاح بعثته . فلم ير خيرا من ان يقول ، كاشفا عن رضاه واعتذاره في آن :

« .. لولا ان امير المؤمنين معاوية أمرنى ان انزل في قومه من مضر .... »

فعقب صبرة على الأثر :

« فاتبع ما أمرك به .. »

وخرج وافد عاهل الشام من لدنه مطمئن البال وقد حسب انه كفى بهذا الحديث امر الأزد فاحتواهم بجعبته وضمهم لجمهور انصاره. ولو درى الرجل لسارع الى اقتناص دعوة الجوار التى عرضها صبرة عليه في لحظة اريحية ، ولما غادر الأزد ليلحق بمضر وانه ليعلم أن هذه الأخيرة موالية لمولاه لا يغيرها عليه نزول وافده في غيرها من القبائل . ولكنه آثر التزام امر أميره واحتذاء خطته بالشبر والفتر ، بغير ترخص ولا تبديل ، فخلى جوار الأزد لمن شاء — غيره — أن يلتمس فيه الحماية . وقضى بهذا على نفسه وامره بالوبال ..

والواقع ان طبيعة التقاليد العربية ، في تلك الآونة ، كان لها اكبر اثر في توجيه الأحداث ، وفي تحويلها أحيانا عديدة عن المجرى الذى يظن انه كان لابد لها أن تسير فيه .. وما أكثر ما لهذه التقاليد من اصول وفروع !.. وما ارحب جنبات الميدان الذى تمارس صولتها فيه !.. فهى مرة منافرة ومباراة على التفوق بين خصمين رهانا برهان . وهى مرة ثانية نخوة وتعظهم ينشآن عادة من تملق الغرائز والعواطف الخرقاء فيسدر المرء — حتف عقله — في سلوك لا يلائم مقتضيات الواقع ولا تمليه طبيعة الأوضاع . وهى مرة ثالثة التزام اختيارى بحماية اللاجىء المستجير ، ولو كان عدوا موغلا في العداء ،

ومنعه كما يمنع الطفل والنساء .. وفي كل صورها والوانها نراها تفرض نفسها في المجتمع العربى على الاحداث كقوة محركة ، دافعة او معوقة ، تؤثر أبلغ الأثر في سير التاريخ ..

تقاليد قد تبدو لأول وهلة مجرد ظاهرات اجتماعية لا تزيد على ما عداها وأشباهها من مألوف العادات ، ولا يكاد يظن لها ان تنشط الا ببيئتها الطبيعية – في اطار سلوك الأفراد – فاذا هى لا تلبث أن تطغى كالسيل وتستشرى كالنار ، فتقتحم السدود وتخترق الأسوار ، ثم تذهب في تغيير المصاير وتشكيل الغايات الى ابعد النتائج واقصى الآماد ..

ودع الامثلة فهى كثيرة تترى بها الصحف ، وتتواتر الروايات . فما خلت بعد أخيلة العرب من بقية اثر لقصة المنافرة القديمة بين هاشم وأمية التى انشبت بين البيتين تنافسا عنيفا ، قوامه الإدلال بالقدرة ، ما زال يتحدر في عقبيهما حتى تمثل اليوم ، في على ومعاوية ، خلافا دمويا ترامى مجاله على طول أرض الإسلام . وما غابت ايضا عن الاذهان تلك النخوة الجامحة التى ابتعثها غلو عائشة في الثناء على العشائر العربية بالبصرة غلوا تحلهم من الفخر وعلو القدر ما فتنهم عن انفسهم فنقضوا بيعتهم ، ثم فتنهم بالجمل فذادوا عنه ذيادهم عن اقدس المقدسات . وما يمكن الآن ان نغفل هذه الأريحية التى استقبل بها صبرة بن شيمان ضيفه وافد معاوية ، وعرض بها عليه حمايته ومنعه لو انه نزل في رحابه وشاء لنفسه أن ينتفع بما تفرضه اصول الجوار ..

المنافرة يشبها هنا معاوية من جديد ، محاولا ان يحتاز البصرة بيمينه وسيلة من وسائل شتى اعدها للسيطرة على الدولة بملكها الواسع العريض . والنخوة يثيرها ابن الحضرمى من خلال التلويح بما كان للأزد ، وغيرهم من اهل الإقليم ، من « امجاد » أبان الجمل ، لا اعترافا بفضلهم بل تذكيرا بصرعاهم يوقظ في نفوسهم ولعها الجاهلى للثأر . ومنعة الجار التى تسربت من بين اصابع مبعوث الشام ، تجد من ينقض عليها كالصقر ، يحوزها ، ويدفع بها الى حلبة الصراع ، لتلعب دورها التقليدى في تغيير سير الاحداث .

كان زياد بن عبيد عند ذاك اميرا للبصرة بالاستخلاف . استخلفه ابن عباس عليها عند مخرجه للكوفة لتعزية الإمام في ابن أبي بكر . وكان ، مذ اقتحم ابن الحضرمى عليه ارضه ، يعيش كالمضيع . يوشك الا يعرف موضعا لقدمه في زحام الحوادث التى تتابعت سراعا ككسف الغيم في يوم عاصف وقد تدافعتها الرياح الهوج ..

في خلال أيام ، وربما ساعات ، بدا للرجل كأنما تشابكت وانتكثت الخيوط . الأمور تضطرب . الصدور تموج . الهدوء يلتحف بالتذمر .. ليكاد يوقن الآن أن الأرض غير الأرض ، وان الناس غير الناس . فالبصرة تغيرت عليه . رفاق امسه ذابوا في هرج النقمة . الولى تنكر والعدو تنمر . وهو بين أولئك وهؤلاء في حيرة . إن استطاع أن يفكر فلا يستطيع أن يدبر . وإن وسعه أن يعزم فلا يسعه أن يحسم . فما هو إلا خليفة لابن عباس على المصر ، ليس في نطاق مهمته غير ان يرقب ويتابع ، ثم يبعث بالخبر ويطلب الراى من الأمير ..

وهاله ان تتهاوى هيبة الدولة من حوله كقصر من الرمال .. فقد علا شأن ابن الحضرمى واستفحل . واكبته العشائر . ترامت اليه الجموع . كثر تبعه وعز ناصره . اما شيعة على الذين كانت لهم من قبل الكلمة فقد غدوا على تخاذل . واما من عسى كان يرتجى منهم العون سواهم من قادة الراى في الإقليم ، فقد وقفوا موقفا غريبا ليس اشبه بهم وليس انسب له . انأى عنهم ، وابعد عن ظنه !..

واحس أن ظله يتقلص . ما تحت يده من رقعة عمله اصبح الآن محصورا في دار الإمارة ، لا يمتد إلى ما يجاوز الجدران !.. وهو بعد لا يدرى إلى متى يبقى له هذا الظل وما من رجل في أصحاب على يتقدم إليه بشيء من راى او من قوة يشد ازره ويسند ظهره ..

ولم يكن زياد بالذى يتطير . ولا بالكلف بالانحياز للريبة . ولكن سلوك ذوى ثقته لم يكشف له إلا عن الجوانب السوداء في الأمور .

وكفاه ان دعا إليه بعض سادتهم يعرض الموقف عليهم ، مستطلعا الراى ، وطالبا العون على كبح الفتنة المقبلة ، فلم يحظ منهم إلا بما يزيد قلقه ..

اوما لهم إلى دعوة ابن الحضرمي ، وانفجارها المدوى بين الناس :

« .. إنكم انصار امير المؤمنين وثقته . وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم .. فأجيروني حتى يأتيني أمر امير المؤمنين ورايه .. »

فأما احدهم فإنه موه ، فطالعه برد ظاهره استشارة قومه ، وباطنه تراخ وتخاذل .. إذ قال :

« هذا امر فيه نظر .. ارجع إلى من ورائي ، وانظر واستشير .. »

واما الآخر فقد أطلقها عبارة في كلماتها معنى الإقدام ، وفي جرسها فتور التردد :

« .. نحن فاعلون ، ولن نخذلك .. ولن نسلمك .. »

ولم يسترح زياد لما سمع . بل لعله ارتاح إذ عرف به خافية انفسهم فايس منهم وقد ايقن انهم لابد قاعدون عنه او خاذلوه .. فمعرفة الشر المنتظر خير من توقع خير موهوم . واليأس راحة على اية حال !..

عندئذ نفض منهم يده . فلا حيلة له فيهم . ولا طاقة بحملهم ــ حتف رغباتهم ــ على ما يشاء .

وقلب عينيه في اقوام اقليمه لعله يقع بينهم على نصير ، فإذا البصر يعود حسيرا إليه كأنما قد جال في فضاء رحب به ظلام فوقه ظلام !.. أو كأنما ارتاد غرفة مغلقة بغير كوى دارت بها النظرات حائرة تتخبط من جدار لجدار !.. فمضر عليه . وتميم ترامت إلى عدوه . والأزد لا أمل فيهم وموقعة الجمل ما زالت تفصل بينهم وبين على بن أبى طالب بسور ضخم من جماجم صرعاهم التى لا تنى تتنادى بالانتقام !..

وتذاكر الأمير الموقف وهو مثقل القلب والفكر ، مع رفيقه ابي الأسود الدؤلي ، لينفض بعض ما يضيق به صدره ، وإن علم أن الامر قد اعضل وغدا عصيا على المذاكرة والنقاش :

« أما ترى ؟.. صغى أهل البصرة إلى معاوية . وما في الأزد لي مطمع .. »

فالتمعت على الأثر عينا الدؤلي .

الأزد !..

إن اللفظة لتحمل في حروفها قبسا من نور خليقا بأن يلقى شعاعا يضيء للأمير بعض الطريق !.. املا في غد !.. منفذا إلى الخلاص !..

كمثل خطفة البرق سطعت في خاطر ابى الأسود فكرة عابرة .. لعلها لمحة إلهام .. أو لعلها نتاج فطنة لم تكن — فيما بدا — لصاحبه ، وتفرد بها دونه عقل الدؤلي الذى هيأته طبيعته الذهنية للاستنباط الموفق السريع .. فلقد كانت للرجل — لا ريب — قدرة على استخلاص النتائج من المقدمات ، والنظريات من العموميات نعرفها له فيما استخرجه من كلام العرب من قواعد النحو التى تحكم اللغة وتسير بها على سننها السليم . وهذه القدرة هى التى يسرت له أن يغوص في الموقف الضنك الذى يقفه زياد ، ليأتى له بما قد يصلح شأنه ، ويحل عقدته . تماما كالغواص الذى لا تلفته ثورة البحر ولا ما يغطى صفحته من الزبد أو العشب عن انتجاع ابعد المواقع في قاعه وهو عليم بموضع أصدافه التى تحتوى درها الثمين ..

هنا يتبدى لنا ابو الاسود الدؤلي رجل سياسة متفتح الافق طويل الباع لا يعسر عليه ان يستقبل الأزمة العارضة بالعلاج الذى يكف عاديتها ، ويروضها ترويض فارس بارع لفرس جموح . وكيف يعسر عليه ان يفعل ، وقد عايشها في بيئتها ، بكل ظروفها ودواعيها ، منشأ وغاية ؟.. إنه إذن ليس بالفطن الذى يستنبط ويستخرج إن لم يسعفه ذهنه باستخلاص « قاعدة » تستطيع أن تتحكم في الموقف وتسير به على النسق المرغوب !..

وتريث هنيهة وقد زوى ما بين عينيه ..

الأزد !..

ثم قال للأمير :

« .. إن أصبحت فيهم منعوك . »

فهذه هى القاعدة !.. ان يطوع الأوضاع الاجتماعية لخدمة قضيته . ان يستخلص من التقاليد العربية مفتاح الحل . ان يطبق نظرية « الجوار » !..

وقلبت عبارته الأوضاع !..

فقد هب زياد على الأثر ، يبعث لصبرة :

« يابن شيمان .. انت سيد قومك ، واحد عظماء هذا المصر ، فإن يكن فيه احد هو اعظم اهله فأنت ذاك .. افلا تجيرنى ، وتمنعنى وتمنع بيت مال المسلمين فإنما انا امين عليه ؟.. »

ولم تتنكر الاريحية العربية لطبيعتها فلم يتأخر الجواب ..

رد صبرة :

« إن تحملت حتى تنزل في دارى منعتك .. .. »

وعادت الطمأنينة الى قلب زياد .

٤

خرج من دار الإمارة بليل ، مستخفيا بالظلام . كأنما ليكتم عن العدو حركته . او ليتقي نظرات الأعين الشامتة . او لينأى بمال المسلمين ان تغتصبه فئة قد هان عليها سلطانه .. فما كان يملك بعد ان يرد عن نفسه ، وما في يمينه ، عادية من قد يعرضون له بسوء وانه عندئذ لمستباح الحرمة لم يبلغ مأمنه ..

وخلا منه القصر كما عطل هو من سمة السلطة بخروجه وان يكن استبدل بهما كليهما دار طمأنينة هى اروح لباله وامنع له .. فالبصرة الآن مرتع ثرى هين لابن الحضرمى واصحابه ، ينشرون بها دعوتهم المتمردة ما شاءوا . ويملكون منها ما شاءوا . ويغشونها بسطوتهم وقد غلبوا على ارجائها ونواحيها ، إلا ذلك الحى الأزدى الذى اصبح منها مثل جزيرة من الولاء في بحر صاخب من العداء والخصومة ..

حتى معالم الإمرة المظهرية قد اغتصبوها منه . فلهم انتهت إمامة الصلاة . وهم الذين يجبون المال . وفي أيديهم سياسة الأمور . والإقليم يعنو لهم ويخضع ثم يصغى وراءهم لمعاوية صغيا كأنه قرية من قرى الشام تقع في نطاق سيفه وماله !..

ومع ذلك فنحوة الأزد كانت له !.. بكل روحها ساندته .. بأيدها وغيرتها . ببأسها وشوكتها . باندفاعها المغامر الذى جل عن تصوره وارتفع الى ما فوق طموحه .. فإن هى إلا ليلة قضاها في جوارهم حتى طلع عليه صبرة مع اول شروق يقول :

« .. ليس حسنا ان تقيم فينا مختفيا اكثر من يومك هذا .. » .

فرفع زياد إليه نظرة لعل فيها من اثر البغتة اكثر مما احتوته من ملامح التساؤل .. لكن الجواب المنتظر لم ترسمه عبارة ، وإنما جسدته أعمال ..

فيما لا يكاد يستغرق وقتا ملحوظا كان سيد الأزد قد عوضه ما سلبته الفتنة من مظاهر السلطان .. أعد له مسجدا للصلاة ، ومنبرا للخطبة ، وسريرا للحكم ، وشرطا للأمن والحراسة . فهو إذن قد ارتدت له مقومات الإمارة : هيئة وكلمة وعدة ، لولا ان انحسر ظله عن بعض رقعة الأرض التي كان يغشاها بنفوذه ..

ومارس زياد مهمته على الفور ، فأم « شعبه » الأزد في صلاة الجمعة بمسجد الحدان الذي جعلوه مركز دعوته وحكمه . وصعد المنبر يخطب الجموع :

« يا معشر الأزد .. إنكم كنتم أعدائي فأصبحتم أوليائي .. ولو كنت في بني تميم وابن الحضرمي فيكم لم أطمع فيه أبدا وانتم دونه . فلا يطمع ابن الحضرمي في وانتم دوني .. .. »

وتمهل قليلا ، ثم عرج مترفقا على ماضيهم :

« .. يا معشر الأزد .. ليس ابن آكلة الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار . وقد رأينا وقفتكم يوم الجمل ، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل .. .. »

ثم ختم كلامه :

« .. إنكم لا تحمدون إلا على النجدة ، ولا تعذرون على الجبن .. وقد اصبحت فيكم مضمونا وامانة مؤداة !.. »

فالتهبت قلوبهم نخوة . وهب شيمان أبو صبرة يهيب بقومه :

« .. ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر !.. قد كنتم امس على علي فكونوا اليوم له .. فأنتم حي مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء .. .. »

وعقب ابنه بعده :

« .. .. لسنا نخاف من علي ما نخاف من معاوية .. وهذا

زياد جاركم والجار مضمون ، فهبوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم او فأبلغوه مأمنه .. .. »

وكذلك انشطرت البصرة شطرين بين الأزد ومن عداهم كأنما غدت امارتين كل أمارة منهما في طاعة امير وسلطانه تماما كانقسام الدولة نفوذا وولاء بين على ومعاوية . ولئن قيل ان مبدا من المبادىء — جادا كان أو موهوما — هو الذى شطر وحدة الأمة الإسلامية ، فليس عن ذلك المبدأ نفسه ، ولا عن سواه ، انقسمت البصرة وافترق أهلها فرقتين ، وإنما الذى أدى بها إلى وضعها ذاك ما ركب في طبائع العرب من حرص بالغ على رعاية تقاليدهم والوفاء لها اعظم الوفاء وإن خاضوا إلى وفائهم هذا بحارا من الدم ، واجتازوا دروبا طويلة من الأشلاء والجماجم .

لا مراء في أن انضمام الأزد إلى زياد لم يكن منهم ولاء لعلى ، ولا رعاية لمبدأ ، ولا نصرة لرأى ارتأوه إذ قامت الحجة على رجحانه فظاهروه على ما عداه . فلو كان لمبدأ في نفوسهم مكانة تعطفهم حينذاك على الرجل لما رحب صاحبهم بابن الحضرمى عندما اقبل ولا اوشك أن يفسح له في رحابه . ولو انهم حقا كانوا يكنون بضعة من ولاء لأمير المؤمنين لثاروا بوافد معاوية ، ولوقفوا دونه ودون بلدتهم أن يدخلها من البدء أو يجمع أهلها حول دعوته . ولو شاموا رأيا خليقا بالاتباع والمناصرة في حديث زياد لشممناه معهم ، فليس بالحديث ما يطالعنا بفكرة جديدة او حجة مقنعة ، وكل عباراته استثارة للنخوة وتدرع بالجوار ..

إنما التفاخر هو الذى حركهم ودفعهم للالتفاف بالأمير الذى انفض عنه الناس . فالعار كله أن يستنجد بهم فلا تسعفه نجدتهم ، وان ينزل في جوارهم فلا يجد عندهم حق الجوار . والعار كله ، وقد أجاروه ، أن يعز جار تميم ويهون جارهم على أهل الإقليم . والعار كله ان يصبح ابن الحضرمى ذا صولة ويبقى زياد ، وهو بين ظهرانيهم ، عاطلا من مظاهر القوة ومقومات السلطان !..

هى إذن منافرة بينهم وبين تميم ومباراة على أى الفريقين اثبت في المضمار واقدر على الانتصار .. اما مظاهرة الحق على الباطل ، واما حماية وحدة الدولة ان تمزقها فتنة ، وأما الطاعة لعلى صاحب السلطة الشرعية في البلاد ، فكلها ليست اصلا لوقوفهم موقفهم هذا ، بل هى ذيل وتبع للغيرة على سمعتهم ان يقال اخلت الأزد بواجب الجوار !..

على هذا النحو سارت الأزمة وابلغت الكوفة بأمرها في كتاب ، بعث به زياد إلى اميره ابن عباس :

« .. .. ان عبد الله بن عامر بن الحضرمى اقبل من قبل معاوية حتى نزل في بنى تميم ، ونعى ابن عفان ، ودعا إلى حرب ، فبايعه جل أهل البصرة . فلما رأيت ذلك استجرت بالأزد ، بصبرة بن شيمان وقومه لنفسى ، ولبيت مال المسلمين .. .. والقصر خال منا ومنهم .. .. فارفع الامر إلى امير المؤمنين ليرى فيه رايه ، واعجل إلى بالذى ترى ان يكون منه فيه .. .. »

وليس هذا الكتاب — فيما اخال — باول نبا وصل الكوفة عن دخول ابن الحضرمى البصرة ، ولا عن دعوته المعادية بها ، ولا عن اعتزاز شأنه فيها بامتناعه بمن بها من بنى تميم .. فلقد جرى الذكر بأن تميم الكوفة خشيت ان يستفحل الامر فتقع الحرب بين الأزد وبين عشيرتهم في البصرة ، فأسرع منها من يشير على الإمام وهو يرجو السلامة لقومه من خلال ابتغاء السلام !..

قال له :

« يا امير المؤمنين .. ابعث إلى هذا الحى من تميم ، فادعه إلى طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلط عليهم ازدعمان البعداء البغضاء !.. فإن واحدا من قومك خير لك من عشرة من غيرهم .. »

وساءت عبارته هذه رفيقا من ازد الكوفة ، فثار :

« إن البعيد البغيض من عصى الله ، وخالف امير المؤمنين ، وهم

قومك !.. وأن الحبيب القريب من أطاع الله ، ونصر أمير المؤمنين ، وهم قومى !.. »

تفاخر آخر !.. ادلال بالمكارم والميزات يهم أن ينفث سمه ، ويوقع النفور والتباغض بين حليفى الكوفة وقوعهما بين عشيرتيهما في ارض زياد !.. لكن الإمام كان أسرع إلى حسم الداء ، فصاح بهما ينهرهما ومن وراءهما لدنه من الأزد وتميم ، ويؤدبهم جميعا بأدب القرآن :

« .. تناهوا أيها الناس !.. وليردعكم الإسلام ووقاره عن التباغى والتهاذى ، ولتجتمع كلمتكم .. .. واذكروا إذ كنتم قليلا مشركين ، متباغضين متفرقين ، فألف بينكم الإسلام فكثرتم .. فلا تفرقوا بعد إذ اجتمعتم . ولا تباغضوا بعد إذ تحاببتم .. .. فأما تلك الحمية من خطرات الشيطان فانتهوا عنها — لا أبا لكم ! — تفلحوا وتنجحوا .. »

وقد اخذ الإمام بالمشورة فاستنفر تميم الكوفة أن يفرقوا عن ابن الحضرمى عشيرتهم بالبصرة التى آوته ونصرته واعزت شانه في الاقليم .. ومضى يكرر دعوته فيهم . ويحثهم ان ينهضوا لها حماية لقومهم ان تقع بينهم وبين جيرانهم الأزد حرب قد لا تحمد مغبتها عليهم ..

لكنهم ، فيما بدا ، لم يصغوا له ، وإن ظل أياما عدة يهيب بهم ، وينتظر منهم أن يلبوا نداءه .. فما نهض منهم احد . ولا قام عنهم بالأمر غيرهم من أصحابه . بل بقوا ، والكوفة وراءهم بجميع شعبها ، كدابهم اجمعين في هذه الفترة في مختتم عهده ، سادرين فيما استمرأوا من تهاون وتخاذل وثبوط همة ، يستقبلون ما يطرأ من الحوادث — خطيرها كصغيرها — بغير احتفال !..

وضاق أخيرا بموقفهم :

« .. أليس من العجب أن ينصرني الأزد وتخذلنى مضر !..

واعجب من ذلك تقاعد تميم الكوفة بي ، وخلاف تميم البصرة علي !..
وان استنجد بطائفة منها تشخص إلى اخوانها فتدعوهم إلى الرشاد

فإن اجابوا وإلا فالمنابذة والحرب فكأني اخاطب صما بكما لا يفقهون حوارا .. جبنا عن الناس ، وحبا للحياة !.. »

وصمت هنيهة . إن العزم الذى كان يملأ القلوب بالأسى ، ويدفعها إلى اقتحام المكاره والغمرات ، اباء للضيم ، وأنفة من الاستسلام

ــ ولو للأهل الأدنين ــ جدا في نصرة الحق واعلاء كلمة الله ، قد فتر اليوم . خبت ناره . بردت جذوته التى كان الإيمان يمدها من قبسه بما يشعل النفوس غيرة وتحولت إلى رماد !..

واتبع يقول :

« .. .. لقد كنا مع رسول الله فقتل آباءنا وأبناءنا واخوتنا واعمامنا ، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما .. فلما رأى الله صدقنا ، أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل بنا النصر ، حتى استقر الإسلام .. .. ولعمرى لو كنا نأتى ما اتيتم ، ما قام الدين عمود ، ولا اخضر للإيمان عــود .. .. »

ثم رماهم بنظرة أسف وزراية ، وهو ينهى حديثه :

« .. وايم الله لتحتلبنها دما ، ولتتبعنها ندما !.. »

فلعل كلماته تلك فعلت بعض فعلها في نفوس طائفة منهم ، فتهامست مليا ، ولغطت ، ثم أقبل بعضها على بعض يتلاومون .. كيفما كان أمرهم فإن احدهم قد حركه اللوم ، وأثار غيرته ، فانبرى من بينهم يعتذر :

« لا تسأ يا أمير المؤمنين . ولا يكن ما تكره .. »

« ألم يبلغك ، يا أعين ، أن قومك وثبوا على عاملي مع ابن الحضرمي بالبصرة ، يدعون الى فراقي وشقاقي ، ويساعدون الضلال القاسطين علي !.. »

« فابعثني إليهم !.. انا لك زعيم بطاعتهم ، وتفريق جماعتهم ، ونفي ابن الحضرمي من البصرة او قتله .. »

« فاخرج الساعة . »

غير أن الحوادث بمستقر الفتنة لم تكن لتقف حيث هي لا تتقدم حتى يقدم اعين بن ضبيعة من الكوفة ليهدي قومه .. فللحوادث احيانا اقدام تمشي ، واحيانا تعدو ، واحيانا اخرى لها اجنحة ترفرف لتطير !.. والشرار يلد الشرار فينتشر وتندلع النار !..

في لحظة من لحظات زهوهم بما ادركوا من غلبة وبلغوا من نصر ، شاءت تميم وقيس ان تجمع لحزبها الظافر بالبصرة مظهر السلطة الى جوار قوة الحول وبسطة النفوذ .. فالكثرة لها . ورقعة أرض الاقليم تحت ظلها إلا ناحية . والمال يأتيها من جوانب الولاية وارجائها جباية . وهي من العدة والعدد على النحو الذي يمكن أن تستقيم لها به كافة الأمور .. فإذا هي شاءت ان يتوفر لها أيضا « شكل » الحكم فإنها إذن لا تطمع بهذه المشيئة إلى محال لأنها لا تجاوز حدود ما هيأه لها الواقع الملموس ..

وكذلك ارادوا الاستيلاء « رسميا » على السلطة — بعد استيلائهم فعلا عليها — تحقيقا للغرض الأصيل من وفادة مبعوث الشام . وهل شيء ايسر عليهم وادنى منه وليس امامهم غير خطا قصيرة يقطعونها وينزل بعدها صاحبهم بقصر الامارة المهجور ؟..

ورحب ابن الحضرمي لا ريب بالفكرة على الفور ، وقد راقه انهم ترجموا عن ضميره ، واخذوا انفسهم بتنفيذ ما رسمه إلى آخر مداه .. فإن هي إلا ساعة من زمان ويبلغ وطره .. يقتعد الأريكة الخالية في القصر ، فيصبح عاملا على البصرة ، يضمها الى ملك الشام تحت سلطان صاحبه ابن ابي سفيان ..

واتعدوا ..

لكنهم ما تهيأوا للمسير حتى علمت الأزد فثارت حمية .. وبرزت لهم في فرسان كفرسانهم ، وعدة كعدتهم ، وعلى عزيمة وتصميم

الا يدخل القوم القصر إلا بقتال !.. فالهوان كله ان يجلس ابن الحضرمى مجلس زياد . وان تنفرد تميم وقيس بتنصيب الوالى . وأن يتحدث الناس ان الأزد لم تحفظ على جارها ما هو له ، وما لم يدعه ــ طائعا ــ لسواه . وليس ابن الحضرمى ، على أية حال ، لهم برضا يخلون بينه وبين الامرة عليهم وسياسة الأمور في الاقليم .. فاما إذا كان لابد اليوم من امير ، فليكن إذن رجلا يرضاه أولئك ويرضاه هؤلاء ..

وتأزم الموقف ..

ذاع في الجو عرف الحرب وقد أبى كل فريق إلا ما رآه .. فإذا الصدور تغلى . وإذا القلوب تشتعل . وإذا السيوف تتعرى وتبعث بريقها يخطف العيون .. لا معدى إذن عن لقاء دام بين الحزبين ، يحسم الخلاف ، ويضع الفخر منهما حيثما ينبغى ان يكون .

وهال الأحنف بن قيس ذلك الخطر المحلق على الرءوس ، فمشى إليهما جميعا يحاول أن يهدىء الثائرة ، ويحد من الغلواء .. إن الرجل لعلى حيدة من كليهما ، قد كف يده منذ البدء عن الدخول في الأمر ، فهو لا إلى ابن الحضرمى ولا إلى زياد . لكنه يخشى ، إن هو تركهم وما هم فيه ، ان تتسع الهوة ، ويلجوا في عنادهم حتى الدم .. والحمية دائما عشواء عمياء !..

واستطاع بعد طول جهد ان يكبح الجماح ..

وانصرف الجمعان .

ومع ذلك فقد شق على جماعة ابن الحضرمى ما كان . فرأت أن ترمى القوم بسهم قاتل مما في جعبتها من مكر ، لعلها أن تخضد شوكتهم ، وتكسر حدتهم ، وتقضى على هذه المعارضة التى لا تظنهم ــ وإن جنحوا الآن للهدوء ــ مقلعين عنها ما بقى الجانبان في تنافس على نصرة مستنصر او حيازة نفوذ ..

وهداها خبثها إلى خدعة هى السبيل المفتوح إلى تحقيق ما تريد .. فماذا عليها لو ادعت الحيدة من الخلاف الناشب بين العاهلين بالكوفة ودمشق ، ودعت خصمها أن يسلك وإياها سلوكا سلبيا

ازاءهما ، وازاء كل ما لعله قد يؤازر احدهما او الآخر ، من اشخاص واعمال ؟.. إنها إذن للسياسة الرشيدة الخليقة من كليهما بالاتباع ، والكفيلة بتجميد الموقف ثم حقن الدماء حتى تستبين الأمور .

وارسلت تميم الى الأزد :

« اخرجوا صاحبكم ، ونحن نخرج صاحبنا ، فأى الاميرين غلب : على او معاوية ، دخلنا في طاعته ، ولا نهلك عامتنا .. »

لكن الحيلة لم تجز على الأزد ، وكان جوابها على هذه الدعوة الخبيثة ، بلسان صبرة بن شيمان :

« لا !.. إنما كان هذا يرجى عندنا قبل ان نجيره .. ولعمرى ما قتل زياد وإخراجه إلا سواء .. .. »

٥

افترة هدات البصرة . قرت النفوس بها بعض قرار ، واظل ربوعها سلام ظاهر طفا على سطح الاضطراب !..

الأزد اراحها أن نجحت، في حسبانها ، وقادة الأحنف بن قيس فوقف خصمها عند القصر لا يجتاز تلك « الشقة الحرام ! » التى تمنعه طبيعة الوضع السياسى القائم بالاقليم أن يجتازها ، أو يعبث بحرمتها ، ما دام مجموع السكان لم يتفق على التغيير .. فالحاكم الشرعى هو زياد . والقصر ما زال قاعدة حكمه وإن أخلاه . وامتثال قيس وتميم ومن وراءهم نصيحة الأحنف بالكف عن اقتحامه فيه تسليم برأى الأزد ، واعتراف — رمزى على الأقل — بقدرتها على حماية الجار ..

وانصار ابن الحضرمى قبلوا الانسحاب — انصياعا للتعقل واخذا بسنة الدهاء — راضين ككارهين ، وكارهين كراضين !.. فأما الكره فلأنه حال بينهم وبين مظهر السلطة المنشود ، ولو إلى حين . واما الرضا فلأنه اسلوب عمل صاحبهم وجادة سلوكه في حدود الخطة التى رسمتها الشام .. فما قطع وافد معاوية كل هذه المراحل الطويلة إلى الجنوب البعيد ليدخل البصرة عنوة ، أو ليغتصب امارتها بحرب حامية على بحر هائج من الدماء هو القادم إليها في حفنة قليلة من الأعوان . بل قد جاء ليتسلل إلى نفوس اهلها ، وليختلس أرضها وسلطانها اختلاسا بانقلاب سلمى هادىء او بثورة باردة بيضاء !..

غير ان الاحداث ابت إلا ان تعجل القوم عن هدوئهم وتسرع إليهم بلحظة الحسم التى كان لابد أن تكون . فليس من طبيعة الأمور أن يسود السلام اقليما انشق اهله ، وتنازع مصيره فريقان منهم يتصارعان على النفوذ . وليس ايضا بمقبول أن تجمد الدولة فلا تتحرك وهي ترى جزءا منها يوشك ان يقع في براثن فتنة تفصله

عنها وتقتطمه نهبا مباحا لمتمرد خارج على النظام . وليس كذلك مما يساغ ان يصبر إلى الابد على هذا الوضع المتميع فريق لمست الظفر اناملة ثم لا يمد إليه يده قيد اصبع ليحتويه في قبضته !..

تلك كانت العوامل والأحاسيس المحركة للظروف والموجهة للأحداث ووافد امير المؤمنين يمضى شوطه من الكوفة ليدعو اهله وعشيرته بالبصرة أن يرشدوا فيلزموا الطاعة ويصموا الأذن عن وسوسة الشيطان !..

بدا اعين بن ضبيعة مهمته خير بدء ، وكما ينبغى ان يبدأ مثلها سفير . فلم يتجه لقومه وإن كانوا عساهم قد علموا بحضوره ، وإنما جعل همه ، من اول خطوة خطاها ، زيارة زياد ، إعلاما له من جانب بوفادته ، وإشعارا لجمهور السكان ، من جانب آخر ، إنه الأمير الذى يجب أن تحط عنده الرحال ولا محط لقادم عند سواه ..

وتذاكر الرجلان الأزمة . وأدلى كلاهما فيها بما يراه . ثم زودهما ، بعد قليل ، بريد الكوفة براى أمير المؤمنين :

« .. إنى قد بعثت بن ضبيعة ليفرق قومه عن ابن الحضرمى . فارقب ما يكون منه . فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظن به .. فهو ما نحب. وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان .. فجاهدهم .. وإلا فطاولهم .. فكأن كتائب المسلمين قد أطلت عليك .. » .

وقال اعين لزياد وقد سمع ما في الكتاب :

« إني لأرجو أن يكفى هذا الأمر إن شاء الله .. » .

ثم خرج يشتد لتحقيق ما ندب له .

إن الكيل قد امتلأ وفاض . وسيرة الحسنى التى سارها الإمام في هذه الارض — عفوا ورحمة — لم تلق ، فيما يلوح ، عند قومها ما هى اهله من العرفان والوفاء . فالصبر إذن عليهم نقيصة ، والتسامح ضعف ، وليس لهم عند حاكم يعرف تبعته ، ويستشعر حق امته عليه إلا الحزم الذى يقطع ويردع ، وآخر الدواء الكى فيما يقال !..

بهذه النظرة انطلق اعين ليجتمع ببعض قومه يبصرهم الأمر ، ويحثهم ان يجتنبوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة :

« .. على ماذا تقتلون انفسكم ، وتهريقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار ؟.. » .

ثم حذرهم :

« .. إني والله ما جئت حتى عبيت إليكم الجنود . فإن تنيبوا إلى الحق يقبل منكم ، ويكف عنكم . وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبواركم .. » .

فقبلوا منه . ومضوا وإياه إلى إخوانهم الذين التفوا حول دعوة ابن الحضرمى ، يحاولون معه نصحهم لعلهم يرشدون ..

لكن العصيان الذى خامرهم وترسبت في نفوسهم رواسبه حملهم على استقباله اسوا استقبال .. ما ان حل حيث كانوا حتى اسرعوا إليه بالسخط كانما قد جاء يدعوهم لغير الوفاء والشرف والسلام !.. بل قد خرجوا إليه مصطفين في العدة والسلاح !.. بل قد حشدوا حشودهم له كانه هو جيش وحده لا يجمل بهم لقاؤه إلا وهم على أهبة القتال !.. بل قد قدموا ابن الحضرمى امامهم يحفون به . ويلتفون حوله كانه علم الكتيبة ، إمعانا في التحدى ، وإغراقا في المجاهرة الرعناء بالمخالفة والعداء !..

وعجب الرجل لهذا السلوك منهم وإنه لابن عشيرتهم ، الناصح لهم ، الأمين عليهم ، القادم عبر تلك الشقة الطويلة المضنية ليكف عنهم البلاء .. وراح من إشفاق يناشدهم الله :

« يا قوم .. لا تنكثوا بيعتكم ، ولا تخالفوا إمامكم .. » .

ثم مضى يشرح ويبين ، آنا يذكر ، وآنا يحذر . فمنهم من يصغى، ومنهم من يعزف عنه ، ومنهم من يقطع عليه الحديث في تبرم وإنكار او في لدد سافر وعداء صريح ..

ومع ذلك فقد سار شوطه ، وشحذ كل منطقه وهو يحاور ويجادل، يبصر وينور ، يمنى وينذر . وماله لا يفصل وقد بدا له من ملامح

الوجوه ومن رشاش اللغط المتناثر من هنا ومن هناك أن ثمة ما يومىء إلى تصدع طائفة غير قليلة من الحاضرين عن ابن الحضرمى تصدعا يكاد يخرجها من صفوفه ، ويعود بها ــ وقد انجابت عن عيونها غشاوة الغى ــ إلى طاعة الإمام ؟..

ولقد كان من الطبيعى ان تهول هذه الظاهرة الخطرة حاملى دعوة ابن الحضرمى الباذرين معه بذور الشقاق . فما مآل حديث اعين إلا ان يرفع الاكنة عن قلوب كثيرة فترى النور . وما غاية النور إلا ان يبين ويهدى ، فتهدأ الخواطر وتثوب الألباب . وما نتيجة استنارة العقول إلا تصدع جمعهم ، وانفضاض جمهرة اعوانهم عنهم التى تابعتهم من قبل بروح القطيع وتهافتت عليهم تهافت الفراش ــ مسلوب الإرادة ــ على النار !..

جزعت إذن هذه الفئة المشاقة الغالية في العداء للإمام وهى تلمح الأثر الذى يتركه حوار ابن ضبيعة في الناس ، وخشيت إن هى املت له في الحديث ان ينقلب الأمر ، فتنطفىء نارها ، وتذهب قوتها ، ويتهاوى ذلك الصرح الشامخ للفتنة الذى اقامته بالخداع والدسيسة ليصبح غبارا تذروه الريح .. وعندئذ نشطت للعمل واخذت نفسها بالتصدى لأعين ، وللذين مالوا إليه ، لعلها ان تدرا عاديته عن دعوتها ، وتخرج من المحنة التى اغرقها فيها بخير ما تستطيع ..

ولم يكن لها ان تقابله حجة بحجة وبرهانا ببرهان لأن الحوار في مثل هذا المقام له لا عليه . فهو ينضح عن قضية الوفاء بالعهد ، والولاء للدولة . وهو قادم لسلام يجنب الناس انقساما يشدهم لا محالة إلى دم .. وهو يأخذ على يد القوم ان يصبأوا إلى الوقوع ثانية فيما علمتهم التجربة وبال الوقوع فيه . وهو بعد هذا في فريق من اهله إن لم تعطفهم إليه صلة الرحم فقد عطفهم حرصه عليهم ان تقصفهم المصارع وتتخطفهم الحتوف ..

ليس بالمنطق يظهر صانعو الفتنة على اعين ، وإنما بدرء منطقه ان يبلغ المسامع ويرسخ في الافهام .. بعزل صاحب المنطق عن الناس وإن وقف فيهم لا تغيب هيئته عنهم ، وظل حديثه يجول بين الآذان.. بإقامة سور ضخم من الضجيج والضوضاء بينه وبين الإصغاء !..

وفعلوا .

ضجوا على أعين ، وشغبوا على حديثه بأصوات نكراء كالعواء .

والشغب دائما سلاح كل متهور عاجز ، وسلاح كل فتنة تفتقر من الحق او من القوة إلى ما تقدر به على التماس المسالك إلى العقول، لأنه السلاح الذى يستطيع صوته الهادر ان يطغى على ما عداه من أصوات ويملأ بهديره الأسماع ..

ولم ييأس الرجل ، بل ظل يعيد ما يقول ، ويكرر ما يعيد ، عسى ان تنفذ من ثغرة هنا او ثغرة هناك في سور هذا الضجيج كلمة او كلمات .. مرارا عديدة ثبت لهذه الضوضاء القاصفة ، وحاول ان يخترق سدها المنيع ، حتى مضت به عامة يومه ينصح واصحاب الفتنة يهدرون . يبصر ويضجون . يحذر ولا يكفون ، ومن ورائهم بقية الناس في معزل عن قوله ، لا يكادون يلقفون كلمة من عبارة ، ولا حرفا من كلمة ، او يعرفون لهم منفذا إلى الاستماع .. حتى إذا آده عنت أصحاب الصخب ، واعياه أن يحملهم على الإصغاء والهدوء . ثم أيس أن يرشدوا ويستقيموا ، صرح محاولا ان يذكرهم وبقية الجمع محنة امسهم القريب التى جرها عليهم مسلكهم الأحمق حين آثروا الخلاف والعصيان :

« .. يا قوم ، لا تجعلوا على انفسكم سبيلا .. قد رأيتم وجربتم كيف صنع الله بكم ، عند نكثكم بيعتكم ، وخلافكم ... » .

فإذا بمثيرى الفتنة ، وقد أضلهم هواهم ، وأعماهم عنادهم ، يثورون به أعنف ثورة تجزيه عن حرصه على سلامتهم شر جزاء .. فقد أفحشوا له في القول ، فلفطوا عليه بأقذع السباب . ثم نالوا منه باللفظ والإشارة . ثم أوشكوا أن يذيقوه حينه ..

ورأى الرجل ألا مناص — لحظته هذه — عن الانصراف عنهم ، فغادر مكانه وهو اسيف حزين وإن يكن قد استشعر الرضا وراحة الضمير .. فكفاه ان فئة منهم وعت قوله في مستهل الاجتماع ولعلها تكون نواة الهداية وبشائر الجنوح للسلام في الإقليم . وكفاه ان بلغ

رسالته للكافة ، ولم يكذبهم الرأى والمشورة ، مبينا لهم مغبة التمرد والانقسام ..

وهل هو إلا نذير ؟..

لكن اصحاب الشعب غالوا — إلى العمى — في سخطهم وحقدهم عليه ، حتى لقد نسوا انه منهم . وانه قد اتاهم برسالة سلام ووئام لا برسالة حرب وضغينة . وانه آمن بينهم — او ينبغى عليهم ان يكون — على ماله ونفسه إذ هو رسول ..

نسى القوم هذه العوامل ، ونسوا معها كل شيمة كريمة ، فابوا إلا التنكر لكافة ما تقضى به الشرائع ، وتوجبه قيم الأخلاق ، وتبرمه فروض التقاليد .. فإذا بجماعة منهم تتسلل إليه ، في جوف الليل ، وهو نائم برحله ، وحيدا بلا رفيق ، اعزل بلا سلاح ، وتنقض عليه بأسيافها تتعاوره لتقتله غيلة ..

واوشك اعين ان يفر منهم بجراحه وقد ايقظته الطعنات . ولكنهم لم يدعوه . إنما تبعوه في الطريق الخالى على خيط دمه وانين اوجاعه ، حتى مزقوا جسده وقضوا عليه ..

ونجح الغدر حيث اخفق الشغب فسكن المنطق الذى هالهم انتشار جرسه الوقور في الآذان ، وراعهم ان يسيطر على الأذهان ..

والتهب الموقف في البصرة من جديد نتيجة لهذه الفعلة النكراء ..

وعاد شبح الحرب ، كرة اخرى ، يطرق الباب ..

فلقد غضب مسجد الحدان لمصرع وافد الإمام .. غضب زياد ، وغضبت الازد معه بطبيعة الحال . ربما كان غضبها انتصارا للوافد ، وربما غيرة إنسانية للدم المراق .. لكنه لا ريب غضب قد انبعث من تشيعها لزياد ، ومن وفائها لتقاليدها العربية الكلفة عادة بإكرام الضيف ، ورعاية النازح الغريب ، وتأمين الرسل واصحاب الوفادات إذ هم امنة ، في اعتبار كافة الشرائع ، ايما كانوا ، وكيفما كانت الرسالات ..

٦

روعته النذر ..

في الجو رائحة عاصفة .. الهدوء يتحطم . الافق الصافي ينجاب صفاؤه ويتلون بالدكنة كأنما يلتف بدثار الليل . الغمام يتدافع ويتصارع ، ثم يتزاحم ويتلاحم ، ثم يلتئم كسفة واحدة شهباء تغشى السماء . البرق يخطف ويندلع كالحريق . الرعد يقصف فتترنح الأرض بهديره وترتعد رعدة محموم .. ومن وراء هذا كله سيول وصواعق تهم ان تنهمر وتنتثر ، لتنشر الغرق والنار والدمار ..

وتفكر مبعوث الشام .

وكان آونة كالحالم ، وآونة كالمبغوت .. فالصورة الآن أبعد عن ظنه واقرب إلى ما تسوقه صرعة كابوس !.. وذهنه فيها تائه ، تزامت امامه الأبعاد نائية ، وعمقت الاغوار سحيقة ، فكاد من حيرة يدور حول نفسه كدوامة !.. والخطر هذه المرة لا يخايل العيون والعقول من بعيد ، ولا هو متربص متاهب ينتظر ويرقب ، بل يوشك أن يطير بجناح !..

وقلّب الرجل امره ما اسعفه عند ذاك جنانه ..

افيكون اجدى عليه ، على نفسه ومجده ، واقوم لسياسة صاحبه القابع هناك بدمشق يخطط ويدبر ، ان يخوضها الآن حربا سافرة على اعدائه ؟.. أم الخير في المطاولة ــ إرجاء للحظة الفصل ، إن وسعه إليها سبيل ؟..

كادت الفيلة الحمقاء ان تعجله عن أمره ، وتفسد تدبيره ، وتدفعه دفعا ، كأنما يحمله تيار جارف ، إلى مغادرة قلعة التريث المتحصن بها ، لتخرج به إلى الصراع في العراء المكشوف !.. حتى أمسه كان آمنا في حصنه ، يعمل على مهل ، من وراء جدر الإعداد الخفى ،

واسوار التآمر والدس ؛ ناسجا شراكه المتينة الدقيقة ليقتنص النصر، ليختلسه .. ليمتصه قطرة قطرة والخواطر مسترخية او غافلة عنه .. أما وقد غدر أصحابه بأعين ، وقتلوه غيلة ، فتلك الغدرة هي الوخزة المؤلمة التي نبهت عدوه من الغفوة وحفزته .. فها هو زياد يتنمر بعد ضعف ووهن ، أو بعد تماوت وقبوع إلى المسالمة أو الاستسلام .. ها هي الأزد تشتعل حمية أن يجللها سكوتها على الغدر بصاحب جارها الهوان والعار .. هاهم شيعة وأعوان أخر للإمام في الاقليم ، كانوا إلى الأمس في تردد ، يقهرهم الموقف ــ إذ انكشف عن بصيرتهم الغطاء ــ على نفض ذلك الجمود الذى صفدهم به ، طويلا ، التخاذل وكبلهم الثبوط ..

وحقا قد نهض زياد في السلاح ، بالأزد جميعا ، وبمن فاءوا إلى الهدى والطاعة من شيعة الإمام ، وبمن عساهم كذلك أثارتهم الغدرة الفاجرة بين أهل الإقليم .. ولم يكن له إلا ان ينهض نهوضه ، في لحظته تلك على الفور وقد جاءته حماقة تميم بفرصة العمر دون أن يجهد فتيلا لتحريك الأحداث .. ولم يكن له إلا ان يفيد ما استطاع من هذه البادرة التي ــ عن سوء تبصر وانطماس وعى ــ اهدتها زلة عدوه إليه ..

ونوشك ان نجد الآن من يقول إن هذا النزوع المفاجيء إلى العنف الذى باغتهم به زياد ، كان مجازفة غير مأمونة المغبة ؛ خليقة بأن تصبح نتيجتها عليه ولا تصبح له لو استقبلها ابن الحضرمى وحزبه بعزم ثابت ، او برد جرىء .. ولكنه قول من يحكم بعد أن تجمعت لديه شوارد الشواهد والأدلة من هنا وهناك ، وعرف مواطن الضعف والقوة في كلا الفريقين المتنافرين كانما يقراها في كتاب أو يزنها بكفتى ميزان !.. وهو أيضا الرأى الحرى بأن يبعد ، في تلك اللحظة ، عن ذهن ابن الحضرمى واذهان اعوانه هم الذين كانوا ــ إلى امس ، بل إلى ثوان معدودات قبل انتفاضة زياد ! ــ يدلون بالصولة والجبروت ولا يعلمون لهم بالبصرة كفئا يباريهم ، زيادا كان أو غير زياد !.. فإن يكن ، مع ذلك ، ما اقدم العامل عليه يعتبر في المجازفات ، فهى إذن

المجازفة التي لا سلوك غيرها أولى بالموقف ، ولا اليق منها بصاحبها ، أو افعل منها وابلغ اثرا في مثل هذا المقام ..

مجازفة فيها من اليمن قدر ما فيها من الأمن ، دلت عقباها على انها المبادرة الحكيمة لا المخاطرة الرعناء !.. فقد اخذت العدو الصلف على غرة ، وفاجأت أفراده وجماعاته بغير ما قر في روعهم وخلد في اذهانهم حتى لأوحت إليهم أن بروز غريمهم لهم في السلاح هذا البروز لابد وراءه طاقة حرب مكتنزة ، قد أعدها خفية ، وعوض بها ما كان من افتقاره قبلها إلى القدرة على اللقاء !.. وهي — هكذا — كانت كفيلة بأن تهز ثقتهم القديمة بأنفسهم ، وتخرج بهم من نطاق الاعتزاز بشوكتهم ، والاطمئنان إلى ما لديهم من قوة وبأس ، وما ظنوه من تفوق واستعلاء .. وهي ، إلى جوار هذا وذاك ، بيان للناس ، يعلن للملئهم ان سكوت العامل — إلى ما قبيل لحظة النهوض — على أصحاب الفتنة ، النافخين في حريق الخلاف ، لم يكن عن عجز أو رهبة ، بل كان صدى لميله الكريم إلى معالجة العصاة والخارجين على النظام بالصبر والترفق ، تجنبا للحرب ، وتشبثا بالسلام ..

ومع هذا ، فليس يجمل أن يزعم زاعم أن زيادا ، حين برز بأصحابه يومئذ في عدة الحرب ، كان قد بيته نيته على القتال ، فذاك ما لا تشف عنه شواهد الظروف ولا قرائن الأحوال .. إنما الأرجح الأدنى إلى منطق الأمور ، أن يذكر للرجل انه — بتعبير اليوم ! — قد « ناور » فأجاد المناورة ، أو موه فأحسن التمويه !.. فلا مراء في انه استطاع أن يظهر كمن كان على أهبة كاملة ، وعن طواعية واختيار ، لخوض معركة لابد له من خوضها ليحسم موقفا شق عليه اخيرا احتماله ، وليستعيد أزمة الأمور في يديه .. فأما ما يبطن ويوارى عن العيون والأفهام فالرغبة كل الرغبة في أرجاء الالتحام — إن لم نقل تجنبه — امتثالا واعيا منه لمقتضيات الأوضاع واحكام الظروف المهيمنة ، حتى ساعته تلك ، على الاقليم ..

كذلك لا نحسب الرجل قد استخفه ان عز جانبه بعد ضعف ، وزاد انصاره بعد قلة ، فظن الظروف والأوضاع قد تحولت له ، فدانت لأمره ، وحشدت في صفوفه كافة عوامل النصر وإن كنا

لا ننكر انها ، حقا ، أبعدت عنه ، إلى مسافة غير قصيرة ، معظم احتمالات الهزيمة .. كلا . فما هو بالغافل عن الأغوار والابعاد تتغره المظاهر ، ولا بالأحمق فيخدع نفسه ويركن إلى الأماني والأحلام . وعندما نتعقب خبره ، ونتأثر خطاه على أرض الصراع ابان الأزمة ، لا نكاد نجد بسلوكه ، من قبل ومن بعد ، اثرا من نزق الحمق ولا من خطل الغفلة .. فها هو يرتضى من الأزد قرارها القاضى بكف الحرب ، ولما تنشب ، ولا يضيق به .. وها هو يجنح إلى الاستعانة كرة أخرى بمن عساه يعوض عليه ابن ضبيعة ويفرق بالدعوة أصحاب الفتنة ، فيحقق بالرفق ما قد يحقق القتال .. وها هو في تصرفه ، على نحويه ، يلتزم بسياسة المطاولة التى نصحه بها الإمام ، ويؤثرها ، عادة ، كل حريص متبصر يأخذ نفسه بتجنب المخاطرة حتى تستقيم الأمور له ، وتتجمع في يديه مُقومات الغلبة جميعها على وجه اليقين والقطع لا على وجه الاحتمال والترجيح ..

وإذن فلم يسؤ زيادا من الأزد أن تخلت عن القتال ، وفضت حشدها مستجيبة لطلب عدوه حين بعثت إليها تميم من يقول :

« .. .. والله ما عرضنا لجاركم إذ أجرتموه .. .. فما تريدون إلى حربنا ، وإلى جارنا !.. »

ما كان قط ليسوءه من انصاره موقفهم ذاك الذى مال بهم عن العنف إلى اللين ، وعن الحرب إلى الهدنة ، لأنه في حقيقته ليس الموقف الذى لابد له أن ينصاع لقبوله ، بل لأنه الموقف الذى كان يصبو إليه فعلا ويرجوه .. فكفاه أن يلغ بالمناورة في هذا المقام ما أغناه عن السلاح .. كفاه أن عز شأنه ، وبدت هيبته ، وظهرت للملأ قوته وقد تصدعت عن غريمه كثرة من رجاله ، بعضهم من شيعة على فاءوا إلى الطاعة بعد عصيان ، وبعضهم من عشيرة اعين ومن سواها هالتهم الغيلة ، واسخطهم ما كشفت عنه من خسة القوم ، واجترائهم الآثم الفاجر على شريعة التقاليد .. كفاه أن انحسر عن البصرة مد الموجة الإرهابية العاتية التى حركتها عصابة ابن الحضرمى ، واوشكت ان تجرف في تيارها الناس اجمعين لولا هذه المبادرة المسلحة التى

فاجأت اعداءه ، وحطمت ما كان قد اســتقر في الأذهان من خرافة تفوقهم ، ثم كبحت فتنتهم الهدامة ان تعم الاقليم ..

ولم يخف عن أمير المؤمنين انه رد نفســه عن اقاء القوم ، بعد ان اوشك ان يناجزهم ، لأسباب رأى الا يعلنها بكتابه كأنما قد خشي ان تذيع ، وصارح الإمام بحرصه — دون القتال — على انتهاج سياسة سلمية ، مآلها في رايه ، محق الفرقة ، وجمع الشمل ، ووقاية البصرة المصارع . فهو آمل ان يبلغ بالرفق ما قد يبلغ بالعنف ، راغب أن يحسم بالكلمة ما قد يحسم بالسيف ..

كتب في رسالته وهو يشير إلى الغيلة :

« .. .. فأردت أن اناهض ابن الحضرمي عند ذلك .. فحــدث امر أمرت صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمير المؤمنين .. .. »

فلعله يوميء إلى مناورته التى جرت في إخــلاد خصمه مجرى اليقين ..

ومضى يعرض رايه :

« .. وقــد رايت ، إن رأى أمير المؤمنين ما رايت ، ان يبعث إليهم جارية بن قدامة ، فإنه نافذ البصيرة ، مطاع في العشيرة ، شديد على عدو أمير المؤمنين .. فإن يقدم ، فإنه يفرق بينهم بإذن الله .. .. »

وأحسن الاختيار بدلالة الماضي والحاضر ، وبشــهادة ما انتهت إليه وفادة جارية ، وآلت إليه بعدها الأمور ..

فلقد كان الوافد الجديد كما قال ، من الألى عرفوا بالعزم والصبر وقوة الشكيمة ، الذين يشتعلون حمية ، ويلتهبون غيرة ، ويكادون من ولائهم للإمام ، وتشيعهم له ، يحملون بين جنوبهم قلوبا من نار ، لا تكف لها فورة ، ولا يهدأ ضرام . إنما تغلي وتتوثب برغبة عاصفة مشبوبة السعير تهم ان تطلع على العدو بكل نقمة مدمرة ، وعذاب مهين .. ولا ادل على الإفصاح عما في نفسه ، مما قاله يوم مخرجه من الكوفة إلى البصرة لكعب بن قعين ..

يومها استأذنه كعب أن يستلحقه في مهمته الخطرة :

« إن شئت كنت معك ، وإن شئت ملت إلى قومى ..

فإذا هو على الفور يقول :

« بل معى !.. فوالله لوددت أن الطير والبهائم تنصرنى عليهم ، فضلا عن الإنس !.. »

ومضى على الطريق كاعصار غاضب ، بين خمسين انتقاهم بطانة له من تميم الموتورة التى هاجها من أهلها بالبصرة أن شجبت الطاعة ، ووالت العصيان ، ولم ترع ذمة العشيرة ، ولا صلة الرحم في دم أعين المراق ..

وكان في قلبه حريق تتوثب للاندلاع !..

٧

بدأ جارية بن قدامة ، اول دخوله البصرة ، بمنزل زياد إذ هو الامير . ثم ثنى بمنازل الأزد وقد شاقه أن يحييهم ، ويذكر لهم بالخير ثباتهم في الحق ، ووقوفهم في وجه الباطل .. فلما استقر به المجلس ، وتشعب الحديث ، وطابت نفسه بما هم عليه ، تلا عليهم رسالة أمير المؤمنين إلى أهل الاقليم ..

وكانت الرسالة كما تكون الرسالات أمثالها في مثل هذا المقام ، نذيرا وبشيرا ، ووعيدا ووعدا في آن .. نذيرا لمن خالف وعصى ، وبشيرا لمن تابع واستقام ، تحمل الويل كما تحمل الأمان . وتشد الذاكرات إلى أمس الذاهب الذى تناثرت فيه على ارض البلدة المشاقة جوارح واشلاء استذل أصحابها التمرد واسلمهم طعمة شهية للبوار . ثم تهب الرضا للطائع ، والأمان للتائب ، وتتوعد بعد هذا أولئك الذين قد يستخفهم النزق والضلال إلى الصبوء القادر كرة أخرى لخيانة العهد ــ ردة حمقاء ــ للماضي المخذول ؟

« .. .. فها انا ذا قربت جيادى ، ورحلت ركابى !.. وأيم الله لو الجأتمونى إلى المسير اليكم ، لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلعقة لاعق ! .. .. .. »

وارتاحت الأزد للكتاب ارتياح من تفيأ الظل بعد وقدة الظهيرة المستعرة ، وطرق الواحة بعد تخبط في مفازة مقفرة .. فشتان بين يومهم الغابر ويومهم الحاضر .. بين جمجمة الهوى الأرعن وثبوت اليقين الرصين .. بين الظلمة والنور !..

وتكلم عنهم صبرة بن شيمان :

« سمعنا واطعنا . نحن لمن حاربه أمير المؤمنين حرب ، ولمن سالم سلم .. .. »

ولم يكن الوافد الجديد من الكوفة بحاجة لسماع مثل هذا الكلام. فأمرهم الآن معلوم . وانحيازهم للإمام عن عدوه لا شبهة فيه . وخلوصهم من الفتنة القائمة يعرفه الولى والغريم .. ولكنه حين جاءهم إنما عساه قد شاء ان يستوثق ان وقوفهم إلى جوار عامل الإقليم لم يعد — كبدئه — عن مجرد حمية وتعصب للجوار ، بل هو أيضا عن ولاء وإيمان ..

وأردف صبرة يقول ، تعقيبا على مهمة الرسول :

« .. إن كفيت يا جارية قومك بقومك فذاك . وإن احببت ان ننصرك نصرناك .. »

وتوالت في عقبه احاديث المتحدثين ، ينهجون نهجه ، ويلتزمون رايه ، ويرددون ما عبر عنه ، وقد انسوا بالطاعة ، وصبت قلوبهم إلى قمع الفتنة من اى جحر تسللت ، وبأى اناس استعزت ومضت تضرب بسيف ، أو تجأر بعبارة ، او تشير ببنان !..

وإنه لإجماع !..

وعندما نهض جارية ليغادر مجلسهم إلى ما قدم له وقد امتلأ ثقة ، همت كثرة منهم ، ولاء او حمية ، ان ينهضوا معه ، ويلتحقوا به موازرين في سيره إلى قومه المخالفين ..

لكنه كفهم عن المسير ، وأبى عليهم أن يصحبوه في رحلته ، وهو يستشعر الأمل ، بل القدرة ، على أن ينجز ـــ دونهم ما يريد ..

ومضى الرجل يحث خطاه إلى تميم ..

إنهم عشيرته . هو أولى بهم وهم أولى به . وقد جاءهم من لدن أمير المؤمنين بالعتاب المعذر ، وبالأناة المسمحة ، إذ خاطبه حين رأى إيفاده إليهم ليفضهم عن الفتنة :

« يا ابن قدامة .. تمنع الأزد عاملي ، وبيت مالي ، وتشاقني مضر وتنابذني !.. وبنا ابتداها الله بالكرامة ، وعرفها الهدى .. » .

لكم يأمل أن يصغوا له ، ويرشدوا بنصحه ، تجنبا لما يدرك أنهم لا ريب ملاقوه لو ظلوا سادرين سدورهم هذا في ضلالتهم العمياء مع الذين حادوا الله ورسوله .. ولكنه الآن يكاد يستشعر الطمأنينة ، ويعجل لهم ، في باله ، بالانابة قبل الزيغ ، وبالقبول قبل الخلاف . وإذا كانوا قد شاقوا أعين ، وشقوا عليه بالأمس ، فإنه لمستيقن أن منزلته هو في نفوسهم ، وشأنه عندهم ، وكلمته فيهم ، كلها ـــ فيما يقدر ويعتقد ـــ أبعد عن الهوان وفوق العصيان !..

وابتسم عن اعتداد وثقة ، وهو يذكر عبارة زياد له حين ودعه لهذا اللقاء ، يوصيه :

« يا جارية .. احذر على نفسك ، واتق أن تلقى ما لقى صاحبك القادم قبلك .. » .

أفياترى هم مناوئوه ؟..

بل كلا ، فما جال هذا له في خاطر وإن كان قد عقد العزم قبل مقدمه أن ينهج إلى حملهم على الطاعة كل منهج ولو مشى إليهم على موعظة حسنة ، أو عدة مأمولة ، أو وعيد مرهب ، أو دم مسفوح ..

وكذلك مضى جارية شوطه ، إلى موقع قومه ، يحدوه رجاؤه .. على لسانه عظة ، وبقلبه طمأنينة ، وفي خياله سلام ..

غير أن زيادا لم يشأ أن يترك أمر صاحبه بين يدي أمله واعتداده .

فالأمل احيانا خادع ، والاعتداد خوان !.. إنما رأى أن يتحوط فيعد له ما يحمى ظهره ، ويحوطه ومهمتــه الخطرة بما يجنبه مصــير سلفه ، ويكفل النجاح .. فما هو ان خرج جارية من لدن الأزد ، حتى خف إليهم العامل ، يكاشفهم ، ويشحن صدورهم بالتحفز ..

وكان من قوله لهم :

« .. إنى والله ما اخترتــكم إلا على تجربة .. فما رضـــيتم أن اجرتمونى حتى نصبتم لى منبرا وسريرا ، وجعلتم لى شرطا وأعوانا ، ومناديا وجمعة .. فما فقدت بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم لا أجبيه اليوم . فإن لم أجبه اليوم أجبه غدا إن شاء الله .. » .

فشد قلوبهم إليه هذا العرفان بما قدموا له ، وزادهم حمية ..

ومضى يقول :

« .. يا معشر الأزد .. إن حربكم اليوم معــاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم امس عليا ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة.. ليصــدع امر قومه ، وانتم الهامة العظمى ، والجمرة الحامية .. فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رأيتم .. » .

فأسرع أبو صبرة إليه برأيه في خارجة الإقليم :

« .. لو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء .. ولكنها جماعــة دماؤها حرام ، وجروحهــا قصاص . ونحن معــك نحب ما أحببت .. » .

وثنى ابنه في عزم صلب ، واصرار عنيد :

« .. يا زياد ، والله ما ادركت أملك فينا ، ولا أدركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك . ونحن رادوك إليها غدا !.. » .

وادرك زياد غايته ..

لكن ظن جارية في عشيرته خاب .. ما إن طلع عليهم وطلعوا عليه حتى تبين انه كان مغرقا في الخيال كل الإغراق حين حسبهم — لا بد —

منتصحين بنصحه ، ممتثلين رايه الذى لا راى غيره يهبهم الشرف والأمن والكرامة .

وكذلك تهاوى أمام عينى رســول الإمام ــ في لحظة ــ صرح تلك الطمأنينة الذى بناه رجاؤه المسرف عليه في التفاؤل ، كأنما نقضــه زلزال !.. واستشعر ، والمرارة ملء قلبه ، انه عاش أيامه السوالف ، منذ مخرجه من الكوفة ، في تيه سراب .. إن عيونهم لتتقد بالغل ، وإن ملامحهم لترعــد بالحقد ، وإن جلودهم لتكاد تشــف عن عروق لا تمتلىء بالدما بل بالعداء ..

ومع هذا فلم تضــطرب فيه جارحة ، ولا اهتزت ثقته بنفســه ولا إيمانه بصواب ما جاء فيه وإن تصدع أمله فيما خاله من إدراكهم المنصف .. ولئن كانت هــذه البادرة منهم ــ وهى بعــد عبسة على الوجوه الكالحة ــ قد وشت له بما يضمرون من شر ، ففي وفاضــه الدواء المر الذى تستطب به نفوسهم المريضة ، وتعتدل رقابهم التى لواها العنت ومالت بها الخيلاء !..

وكاد يحس عندئذ انه اعين بن ضبيعة وليس جارية بن قدامة !.. فالموقف كالموقف . الصورة هى الصورة ، والصوت هو الصوت .. قد اصطفوا له كسد أصم ، تتكسر عبارات دعوته الهادية على صخوره ثم ترتد إليه حطام اصداء !.. ولغطوا عليه بمثل هدير يغرق نصحه ونجواه في لجة الضياع .. وعندما استمسك بأناته ، وعاود مرارا مرارا حثهم على نبذ الفتنة والفىء إلى الطاعة ، خرج إليه من بينهم أوباش يقذعون له في السباب ما شاء الصلف وشاءت الضغينة . ثم راحت ثعابين الغدر تزحف إليه . ثم همت به لتنال منه ببطشة الكف ما لم تنل حدة اللسان !..

وهاله هذا الجحود من اناس يضن بهم على التلف فلا يكفيهم أن يقارعوه رايا براى وحجة بحجة لو انهم عرفوا سبيلا إلى الحجج والآراء، إنما تأبى عليهم نفوسهم السوداء إلا أن ينتاشوه كالكلاب المسعورة !.. ونفر به عندئذ حلمه كما ينفر جواد روعته حية !.. وتجمدت بين جنبيه الرحمة التى جاءهم بها إذ استقبلوها وعلى أيديهم أكفانه !..

هنا فار قلبه واندلع سعيره يرسل السنة النار !.. وماله لا يفور وإنه الآن لفى شرك طفمة حديثها غدر ، وعلى أرض ترابها عداوة ؟..

والهمته بديهته الصافية ، التى لم يطمسها الهول ، ما كان لابد أن تلهمه في هذا المقام .. فليس للرفق مكان . لم يبق للصبر منزع . لم يعد للجدل مجال .. إنما الألزم ، فضلا عن الأسلم ، ان تنسحب الكلمة من الميـدان وتخلى موضـعها للعنف وللسيف . فحديث الدم وحده ، الآن ، هو الحديث المسموع !..

وعلى الأثر بعث جارية إلى زياد وانصاره الأزد يستصرخهم أن يسيروا إليه ..

فكأنهم كانوا جميعهم تحت ثوبه !..

سويعة او بعضها تقضت ثم أنصب حشدهم يجرى على الأرض حوله يحمل الموت على الأسنة المشرعات !.. موجة بعد موجة أقبلوا ، وصفا صفا تراصـوا حيال أولئك الخارجة الغادرة الصابئـة ، التى اسكرتها سطوتها ، وغرتها كثرتها ، فآثرت الفرقة على الألفة ، والنكث على الوفاء ، والحرب على السلام ..

وتواقف ابن الحضرمى واعوانه ، فرسـانا وراجلين ، في وجـه انتفاضة الأزد الجديدة .. لا مناص الآن من خروجه عن نطاق خطته إلى لقاء سافر بات والذين معه يرون الا موجب بعد لإرجائه . فالمداورة أصبحت لا تفيـد ، وسياسة التسـلل والدس وما انطوت عليه من حركات تحتية أو خلفية قد فرغ ما في جعبتها كله واعتصرت إلى آخر قطرة . والوقت عليه لا له ،كلما انفسخ رقت بقدر فسحته هيبة حزبه، ورث نفوذه ، واستطار واستفحل شأن مناهضيه في الأقليم .. وإذا كان الأمس قد حمله على الإصغاء لدعوة الهدنة التى دعاهم إليها الأحنف ابن قيس ، فذهلة المباغتة هى التى حادت به عن القتال . فأما وقد جمعوا له اليـوم ، وتشرعوا لحربه ، فإنهـا إذن الجرأة التي يأباها ولا تسندها ــ في رأيه ــ قوة تفوق قوته ، او بأس يعلمه فيخشاه . والوضع هكذا يحتم عليه مبادرتها بما يقمعها قبل أن تطل على البصرة كتائب الكوفة التى وعدهم بها الإمام .

ووقعت الواقعة ..

ونوشك ان نقول إن سير القتال أفصح كل الإفصاح ان وافد معاوية كان أنأى عن الحكمة ، وأدنى إلى البطش — بل إلى الاغترار — حين مشى أولى خطواته إلى ذلك اللقاء .. فلم يبل رجاله البلاء الذى توقعه وتوقعناه . ولم يصبروا لعدوهم في الميدان صبر المستعز بالكثرة ، المدل بالطول ، الذى طالما رأيناهم قد لبسوا ثيابه ، واستعاروا إهابه ، وهم يشيعون الإرهاب ويركبون الناس في البصرة بالطغيان .

كلا ، فلم تطل الحرب . ولا بدت لنا من خلالها مواقف تصورهم مناجزين أكفاء .. بل أسرعت بهم الأقدام يهطعون كقطيع شارد إلى أيما وجهة لاح أنها تجنبهم عن ضربات خصمهم الغضوب وتقيم المهالك .. وكأنى بالكثرة الغالبة فيهم ، وقد حمى النزال ، وآنست من عدوها الصبر والإصرار على النصر ، تؤثر النجاة فتركن إلى الفرار . وكأنى بالبقية الباقية منهم ، وقد انجاب عن عيونهم وهم الاقتدار ، تلوذ بدار ابن سبيل التى كان مبعوث الشام ، منذ مقدمه عليهم ، يتخذها مقرا ودار إمارة ..

وكيفما تعددت أسباب هذا الانهيار المفاجىء الذى اصاب مثيرى الفتنة وتنوعت دواعيه ، فإن ابن الحضرمى لم يجد امنا بملاذه . إنما غدا حبيس هذه الدار التى طالما شهدت جبروته ، وخصمه حولها يحاصرونه ، ويغلقون دونه كل منافذ الخلاص حتى لقد بات منهم في قبضة ضخمة تشتد عليه وتعتصره لتستنزف ما به من حياة .. ولم يكن وحده في شرك الصياد ، بل كان في سبعين من الالى غرته نصرتهم ، وخدعتهم دعوته ، يتخبطون معا في الحبالة المحبوكة ، إن مدوا البصر ففى تيه من الذهول والضياع ، وإن ردوه فإلى حسرة واسترجاع ! ..

وسرعان ما عاجلتهم النهاية .. فإذا هى كأقسى ما تكون النهايات، وأفظع ما تسفر عنه العداوات في معترك قتال ..

في لحظة من لحظات الغضب العاصف ، فار تنور ذلك القلب النارى

المتأجج في جوف ابن قدامة ، وثارت ثائرته ، فاندبع لهيبه جحيما كأنما عن بركان تفجر وراح يرسل حممه طوفانا يجرف ويجتاح ..

وبدأ نذير هذا الانفجار المدمر على طرف لسان جارية بكلمة هتف بها لمن حوله من الثوار :

« على بالنار !.. » .

فكأنما صعقتهم الصيحة !..

طويلا ،كطول الدهر فيما حسبت الأخلاد ، تلبثوا في صمت أخرس، كتم الصوت ، وشل الجوارح ، وجمد الأنفاس . فالدهشة التى طغت عليهم عندئذ واغرقت منهم الأوصال والحواس في غمرة الخور لم تنبعث عن عجب وإنما عن صدمة عصبية جاءتهم بها دعوته المذهلة التى باغتتهم باغرب ما يجول في وهم ، ويطوف بخيال ، لأنه محال المحال!..

لكن صوته الغضوب عاد ثانية يكرر نداءه هادر الجرس ، حاد النبرة ، بارز المقاطع كأنما ليحفر في روع القوم انها الدعوة التى لا دعوة غيرها تناسب الوضع وتوافق الواقع .. حتى إذا ثاب بهم هديره إلى بعض الوعى ، واستطاعوا ان يشقوا الشفاه المزمومة ، ويحركوا الألسنة بالكلام ، صارحوه :

« لا !.. لسنا من الحريق في شيء .. » .

فلم يرده جوابهم عن الترديد . ولم يردهم ترديده عن إباء ما يريد ..

وحين اعياهم إقناعه : واستيقنوا منه الإصرار الذى لا يهزه جدل ولا يثنيه حوار ، عادوا يخاطبونه باللهجة الكفيلة بأن تحرك القلوب إن كان لا يسعها أن تحرك العقول ..

قالوا له يناشدونه الرحمة والرحم ووشائج العشيرة :

« يا جارية .. هم قومك ، وأنت اعلم .. » .

غير انه اصم اذنيه . او لعله لم يسمع وهو هكذا في هدير ثورته . فما كفه قولهم عن عزمه . ولا عطفته القربى على تلكم الفئة المستخفية

خلف الجدران من بنى اصله . إنما زادت غلواء حنقه عليها ، وتضرمت سعيرا ما لبث ان تجسد حطبا يشتعل ويضرب نطاقا محكما من الحريق حول دار ابن سبيل ..

ولا نرانا هنا نعتذر لجارية — وما ينبغي — عن فعلته هذه وإن كانت اليق بحنقه واشبه بطبعه النارى الحاد . ولكننا كذلك لا نظننا ننكر انها لم تكن لتبدر عن مجرد رغبة خالصة في التنكيل ، أو عفو الخاطر دون مقدمات وأسباب ..

ففيما تنم عنه خاتمة ذلك الصراع ، يكاد ابن الحضرمى يتمثل لنا في صورة المتشبث بالمقاومة ، المتعلق بالثبات لأعدائه إلى آخر نفس وآخر قطرة دماء .. بدا الرجل ، حينئذ ، المصابر الذى يخلق بالكلفين بالمجد المتصدين للعظائم امثاله ان يكونوه ، والمجالد الذى إن ذل نفره لم تذل نفسه وإن أعوزه العتاد لا يعوزه الاعتداد .. فما نعلم انه — إذ خذلته جموع انصاره في ساحة القتال — قد وضع سلاحه او رفع راية امان . بل قد اسرع إلى الدار والحفنة التى تابعته يتخذ منها قلعة ، ومن جدرها دريئة ، ويثبت بها ثبات المتأبى على التخاذل ، المترفع عن التسليم ، محاولا ان يقابل هجمات عدوه على ملاذه بكل ما يسعه صبر المستيئس الذى لا سلاح له غيره في مثل هذا المقام .

بهذا تطالعنا شواهد الحال . ثم تنطق بأن أمد هذه المقاومة اليائسة لم يكن بالقصير . ثم تظهر ابن الحضرمى قد لج في عناده ورفض ان ينزل على حكم الواقع فيخلي معقله ، ويلقى سلاحه ، ويضع نفسه ومن معه وديعة في ايدى المنتصرين وإن ايقن اليقين كله ان مقاومته هباء وفناء !.. ولا نشك هنا في انه دعى إلى التسلم وإن كنا لا نقطع اكان جارية ، ام زياد ، أم سواهما من أصحاب الراى في الجيش الظافر هو الذى دعاه . ولكنه دعى على اية حال . وأبى الاستجابة للدعوة . وتسامع الناس في البصرة بالدعوة وبالإباء كليهما فأقبلوا — على اختلاف ميولهم وعواطفهم : متشيعين أو معادين ، مشفقين او شامتين — ليشهدوا ما يكون : اهو استبسال فاستئصال ، ام انهيار فاسار !..

تكاد سيرة هذه المقاومة تنضح بما اسلفنا من صلابة ابن الحضرمى واصحابه المعتصمين وتابيهم على الاستسلام . فلقد اقبلت الجموع

لترى النهاية عسى أن نفرح بنجاة ولي أو ببلية غريم .. واقبلت فيها امة ولهى ، قد ملكها الجزع على ولدها الرابض وراء الاسوار .. ولعلها لم تكن إلا واحدة من امهات وآباء قد استطارهم خوفهم على الأبناء الذين اطبق عليهم الحصار .

وكانت حبشية ، داكنة اللون . ولكن وجهها الأسمر حال من هلع حتى غدا اشهب بلون شعرها الذى غزاه المشيب . وكانت تنصب — من عجل — في مشيتها كالسيل . وتضطرب ، من رعدة ، كشراع في بحر ثائر . وتمرق ، من لهفة ، في الزحام كالسيف وهى تهطع الى الدار . فلما أن افضت الى الباب ، راحت تقرعه بكلتا كفيها وهى تصرخ منادية ولدها الذى أجنته الجدران ويوشك أن يجنه بعدها الهلاك ..

وظهر لها ، على صرخاتها ، ابنها بعد قليل ، يطل عليها من بعض شرف معقله . فلوحت تدعوه .. وراحت تناشده نفسه وقلبها ، أن يخرج الى الحياة ..

لكن الولد ابى ان يسلك غير مسلك اصحابه ، فلم يلب النداء ..

فالهمتها غريزتها أن تتوسل اليه بما قد يكرهه على طاعتها ، فكشفت راسها ، وابدت قناعها ، وعادت تناديه :

« يا بنى ، انزل الى .. »

فأبى ثانية ، أنفة ان يخون عهد الثبات ..

عندئذ صرخت المراة :

« والله لتنزلن ، او لأتعرين !.. »

واهوت بيدها الى ثيابها تهم أن تخلعها ، لتكشف سواتها للناس ، وتجلل ذلك العنيد بعار اقسى عليه من عار التسليم ..

هذه الصورة النابضة ، إذ ترسم ما كان من صلابة أولئك المستعصمين بالدار ، الثابتين للحصار ، ترسم لنا ايضا صلابة ابن الحضرمى واصراره العنيد على المقاومة ما بقى فيه دماء .. فهى

صدى لعزمته ، وظل لثباته . وما ينزع جندى مثل هذا النزوع إلا امتثالا لخطة قائده ، وترسما لخطاه ..

وكذلك جاءت النهاية كأقسى ما تكون النهايات . فتفحمت دار ابن سبيل بمن ضمت . وذهب الرجل الوافد من الشام ليشعل في البصرة نار الفتنة وقودا للنار . وتبددت خطته الخداعة مع دخان الحريق ..

وعندما انطفأت الشعلة ونشر الموت ظلاله الثقيلة على المكان ، سارت الازد بزياد فأنزلته قصر الإمارة ومعه بيت المال . فلا منازع له اليوم ، ولا كلمة في الإقليم لسواه ..

وقال له قائلهم :

« هل بقى علينا من جوارك شيء ؟.. »

« لا .. »

« فبرئنا منه .. »

فلقد وفوا بالعهد ، وقضوا حق الجوار ..

الفصل الثالث

١

ما عن الحسد وحده حورب الإمام بالسيف وبالكلمة !..

عن الجهل الجامح في الظلمة رغبت به قلوب مطموسة لا تعرف الحق ، ثم تأبى — وإن تبلج واضاء — أن تراه ، سدورا في المكابرة والعناد ، ولجاجة في العمى والغواية ..

عن انحياز ظالم عن الله ، وافتتان صلف عن دينه .

عن قصور ذليل عن تفهم المثل والمبادىء القويمة ، وافتقار عاجز الى التطبع بالخلائق الكريمة ..

عن انتقام أرعن لماض ملوث مقهور ..

عن كل هذه الدنايا ، وغيرها ، التى فجرت حوله العداوات حورب الإمام رجلا وخليفة ، قوة وفكرة .. ولكل هذه العداوات ، وما حالفها ، ثبت مناضلا عن الحق والفضيلة انتصارا لكرامة الإنسان. فما عرف قط من سلوكه أنه سعى في مرحلة من مراحل كفاحه الطويل لتعزيز قدره أو لتحقيق مأرب خاص . ولا رنا يوما في عمره من الدنيا العريضة الطويلة الى غاية لنفسه من مغنم مال أو مغنم صولة..

.. .. .. فما المال ؟..

فيه قال كلمته التي ظلت دائما شعاره :

« المال مادة الشهوات . »

وإليه وجه نظرة العارف الزاهد الذى يراه تبعة ثقيلة على جامعه ، وعبئا يعييه لانه يشقيه ولا يكاد يغنيه :

« يا ابن آدم .. ما كسبت فوق قوتك فانت فيه خازن لغيرك .. »

ومن حصيلة بصيرة ملهمة وروح شفاف أوصى ولده الحسن ومن عسى – غيره – يصغى لنصحه ويعتبر :

« لا تخلفن وراءك شيئا من الدنيا ، فإنك تخلفه لأحد رجلين : إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به ، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عونا له على معصيته . وليس أحد هذين حقيقا أن تؤثره على نفسك .. »

.. .. .. وما السطوة ؟..

متاع يزول ، وعرض يحول فهى صفقة مغبون إلا أن تكون أداة لإعلاء الدين وتوكيد إنسانية الإنسان . أما جاهها فهباء ، وأما مجدها فطلاء .. دخل عليه ابن عباس إبان إمرته وهو جالس يخصف نعلا بالية ، فرفع بصره عما في يده ، وسأله :

« ما قيمة هذه النعل ؟.. »

قال ابن عباس :

« لا قيمة لها يا أمير المؤمنين .. »

فإذا هو يقول في هدوء :

« والله لهى أحب إلى من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقا ، أو أدفع باطلا .. »

.. .. .. وما الدنيا ؟..

سئل عنها فقال :

« ما أصف من دار أولها عناء ، وآخرها فناء .. في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب !.. »

ثم وصفها وهو يرجو أن يزوى عنها الناس :

« دار منى لها الفناء ، ولأهلها منها الجلاء . حلوة خضراء ، قد

عجلت للطالب ، والتبست بقلب الناظر .. فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف .. »

وعمل دائما بما قال . فإن هى إلا محنة واختبار . أو دار مجاز لدار قرار . ليس لها عليه سلطان ، ولا له فيها هوى ، لأنه ازهد من أن يتعلق منها بنشب ، أو يهفو إلى طلب . ولأن قصاراه فيها لقمة تقيم أوده هو اوثق بأنها حتما بالفته إذ هو أوثق بما عند الله منه بما في يده أو يد اى انسان ما بلغ الشأو في بسطة الغنى والثراء أو بسطة النفوذ والسلطان .

قيل له :

« لو سد على رجل باب بيته وترك فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟.. »

فجرى جوابه على منطق السجية النقية والفطرة السليمة ، لا على منطق الشهوة الجشعة والرغبة المنهومة :

« من حيث كان يأتيه أجله !.. »

أفقد أصاب ؟..

كيف لا !..

وإنما الرزق منذ الأزل ، وإلى الأبد ، أمر مقدور ، وقدر محتوم مسطور .. فمن رأى في هذه النظرة إيمانا أوثق الإيمان بالله فقد عاين الصواب . ومن رأى فيها استكانة واستسلاما يحبسان صاحبها بين اسوار واقعه القائم ولا يسميان به إلى الخروج منه بتغييره لواقع « أفضل » ، فقد مشى على الخطأ وتردى فيه .. فالفضل ليس بالمال . والمال ليس الحياة . والسعي يتسع لنشدان قيم كثيرة اخرى فاضلة ، سوى المال ، أجدى على الفرد واصلح لشأنه كإنسان لا يعيش بدنا خالصا في هذه الدنيا بين ابناء جنسه وإنما يعيش ايضا بالروح .. والاصل في المال ان يكون دولة بين الناس ليحقق غرضه في إنعاش المجتمع وتنميته وليس الاصل ان يحتجز في ايدى فئة يستأثرون به ويستعلون على من عداهم بجبروته . فما ينبغى له ان

يكون أثرة ، كما لا ينبغي لهم ان يكونوا خزنة ، لأنه « وظيفة » هم العاملون فيها ، يعطلها بلا ريب حجبه واكتنازه .. وكفى المرء منه ما يسد حاجته ، كسرا لجشع نفسه ، ودفعا لحسده غيره ، وضمانا لقيام مجتمع بشرى متطهر على أسس خلقيـة كريمة ، ينحسر فيه طغيان المادة ، وتضعف سطوة الأنانية ، ويخف جموح السخط الذى يضطرب دائما بالعلاقات الاجتماعية بين الناس اضطراب الغرائز الحيوانية بالضوارى في الغاب خضوعا منها لشريعة الظفر والناب !..

أجل قد أصاب .. وما كان في هذا المجال إلا مترسما خطوات رسـول الله الذى لو شاء أن تجتمع له كنوز الأرض لاجتمعت له ، أو يشير الى ذهبها لاقبل عليه ، فإذا هو يعف عنها ، ويزهد فيها لأن كل هذه الحياة وما تضم ليست سؤله . وإذا هو حين يأتيه جبريل ، عارضا عليه خزائن الدنيا يردها ويأباها رد غنى مستغن ، وإباء كاره عزوف :

« لا حاجة لي فيها .. بل جوعتان وشبعة !.. »

من معين النبوة نهل الإمام . وبخلق محمد تخلق . وبالهدى الإلهى اهتدى في علاقته بالناس اجمعين ، أولياء واعداء .. لم يكن قط يثيره أن يخسره أحدهم بعض حقه ، أو يعدو عاد على خاصة ماله ، لأن الحق الشخصى ، في اعتباره ، ليس سوى عرض زائل لا يرى ضيرا في الرخصة فيه .. ولكنه كان ، إلى جوار هذه الأريحية المسمحة ، يحنق الحنق كله ، ويثور اعنف الثورة ثم يشتد في حساب من يجور على حق الأمة أو يحاول الانتقاص منه إلا في الله ..

وها هو الآن ، وقد تضافرت عليه عوامل الظلام والضلالة ، لا يجنح فتيلا إلى مهادنتها أو الصبر عليها ، فلا يترخص في التصدى لها بكل ما في قلبه من إيمان ، وفي جنانه من ثبات ، وفي يمينه من سلاح لأنها قد طغت على حق الأمة ، واجترأت على شرعة الله .. ففى الترخص بهذا المقام صد عن سبيل ربه ، وزيغ عن جادة دينه ، وخذلان لما ألقى في روعه وقر في يقينه .. وهل قد ولى امور الناس ، تحت ضغط منهم ، وعلى كره منه ، إلا ليحمى الإسلام من نكسة كانت خليقة عندئذ أن تذهب بريحه ؟..

قال مرة يحـدث عما دفعه لقبول الإمرة بعد ما كان من تأبيه ، حرصا على إصلاح ما أفسـد الولاة في عهد عثمان ، وعودا بالدين الى نهجه الصحيح :

« .. .. أمسكت يدى ، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإســـلام يدعون إلى محق دين محمد .. فخشيت إن لم انصر الإسلام وأهله ان أرى فيه ثلما أو هدما تكون المصيبة به على اعظم من فوت ولايتكم التى هى متاع أيام قلائل يزول منهـــا ما كان كما يزول السراب .. .. »

لا حيلة له إذن فيما طرأ من تقلبات إلا ان يصدع بما يحتمه عليه إيمانه ، وما يرتقبه منه دينه . ولو أنه كان غفلا من النفوذ ، أو قد قشر عنه سلطانه وذهبت شوكته كحاكم مسئول لما هادن ولا لان . بل لاستبدل الكف بالسيف ، واللسان بالسنان حتى يقضي على قوى الشر والغواية ، التى راحت تناوىء الله في عباده ودينه ، ليطهر الأرض منها أو يلتقمه التراب .. فكيف وما زال بوفاضه ذخر من بأس يسنده ، ورفقة من صحب تؤيده وإن بدات الدنيا تشغل بنشبها وزخرفها كثرة ضخمة من رجاله وتلهيهم عنه ؟..

يقول في صدد نهوضه لأعداء الله :

« .. .. وإنى والله لو لقيتهم واحدا ، وهم طلاع الأرض كلها ، ما باليت ، ولا استوحشت .. .. »

إن تلك العداوات لم تكن لترده عن عزمه وإن جمت ، ولا لتعجزه عن تعقبها وإن توالت ، ولا لتوئسه من صبره وإن اشتد ايدها وصلبت شوكتها ما دام يستطيع أن ينهض لها ــ ولو بالبقية الباقية من اعوانه على يقينه ، ولو بنضـه : بلسانه او يمينه !.. ولقد كان فيما ظهر من انحرافها وهو بعد في مستهل عهده ، ما يكفيه للمعاجلة بالصراع ، فكيف وقد أطلعت قرنيهـا ونشرت له زبانييهـا وبدات الإغارة والانقضاض ؟.. إنما اتحادها اليوم على حربه ، وتفاقم خطرها على الضمير العام ، وامتداد طغيانها على الثرى الإسلامي حقيق بأن يزيد صلابته ، ويلهب حميته وإن تمثلت كوحش اسطورى اشبه شيء

بأخطبوط تعددت شعبه واطرافه وأوشك الا يسلم من عدوانها مكان أو إنسان ، بعد تزايدها فرقا وطوائف ، وتغايرها مذاهب وآراء ، وامتداد حركاتها المدمرة وتغلغلها ــ كسروح الزيت في الثوب ــ في كلا الأديمين السياسى والاجتماعى للدولة ..

أفيهدأ ؟.. أم يصانع ؟.. أم يصارع ؟..

في كلمات قلائل أجمل نظرته ، ورسم الدافع الذى يحدد اتجاهه :

« .. .. ولكننى آسى أن يلى أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ، فيتخذوا مال الله دولا ، وعباده خولا ، والصالحين حربا ، والفاسقين حزبا .. .. »

نذر في الأفق تنبىء عن طوفان جاهلية ، وعاصفة استذلال ، وزلزال ردة عن كل كريم وقويم في حياة الإنسان ترسمه القيم الخلقية الرفيعة ، ويقوم عليه خير البشر ، ويحتمه الدين ..

محنة ماحقة ما لها غير الجهاد ..

٢

طولا من الشمال للجنوب ، وعرضا من الشرق للغرب ، وعمقا في السهول والقفار وفي الجبال والأغوار ، كانت تلك المداوات تنتفش وتنكمش ، وتنبسط وتنقبض كانبساط الصدر وانقباضه في الشهيق والزفير !.. كانت تتربص لتثب ، وتثب لتنقض ، وتنقض لتدمر ، ثم تفتر حدتها بعض فتور أو تسكن ، تلتقط النفس ، وتنظم الصف ، لتتربص ثانية وتعاود دورة حياتها من جديد ..

صور عدة عدوانية تلاحقت في سنى عهده القصير . إذا اجملت دلالتها فنبعها الذى لا ينضب ذات الإنسان بما ركب فيها من عقل ونفس وجسد . وبما انضمت عليه من فكرة خادعة او مخدوعة ، وهوى مضلل أو ضال ؛ ومادة معتمة صماء . وبما في طاقة ثالوثها

البشرى ان يفرز من اباطيل ومطامع وشهوات .. وإذا أوجزت غاياتها فإنها القضاء عليه ، إذ هو أمير المؤمنين أو هو واحد من جمهور الناس ، وضرب نفوذه : سلطة زمنية حاكمة كان هذا النفوذ تسندها قوة الإمرة ، او سلطة روحية هادية تنبعث من قوة العقيدة .

فإذا قيل هنا إن الذات البشرية هى الذات البشرية في كل زمان ومكان ، وإن الإنسان على مدى الأعصر هو الإنسان ولا غرابة إذن أن تتحالف على على نزعات الانفس لأنها كانت خليقة أيضا أن تتحالف على سواه لقلنا إنها لكذلك . ولكن الغرابة ، مع ذلك في هذا الموضع ، ليست في نضح النفوس بما فيها وإصدارها في سلوكها الخبيث عما هى مجبولة عليه ، بل في انحرافها المسرف نحو الشر ، وإغراقها المسف في الدنايا في وقت ظن خلاله انها أقدر على التحكم في غرائزها الجلفة وادنى الى الترفع عن المغويات .. فمحمد عندئذ لم يكن قد طال العهد بغيابه ، والدين لم تخلق جدته ، وتعاليمه التى جاءت لتدعم الخير وتوهن الشر عن طريق تنقية السلائق وتهذيب الطبائع لم تكد صحفها تطوى وترفع عنها الأقلام !..

والحركات المضادة التى شنها عليه أعداؤه توشك أن تعلم لنا بملامح وسمات قد تباين بعضها عن بعضها الآخر حتى لتبدو للباحث تلك العداوات التى تنشبها كالمتفرقة او المنقسمة على نفسها لاختلاف الأسباب التى أنجبتها ، والبواعث التى حركتها ودفعتها الى المجاهرة بالعداء . ولكنها ، وإن تفردت كل واحدة منها باتجاه احادى وبسلوك خاص أفرزته طبيعتها ، قد اجتمعت كلها على غرض عام موحد هو محق الرجل الذى تعاديه ، تماما كالفيالق التى تحارب على عدة جبهات ، لكل فيلق قيادته ، وأسلوبه القتالى ، وهدفه المحدود ثم لا تكون غايتها الكبرى غير نصر مشترك يحقق الغرض العام .

على هذا النحو نرى الإمام موزع الجهد والتفكير بين العناصر المعادية التى تشرعت لحربه ، وبخاصة في هذه الآونة الأخيرة من عهده إذ تبدت حصائل الماضى القريب والبعيد وقد تراكمت ووجدت التربة الخصبة لاستنبات الخلافات .. ولا مجال هنا لتتبع هذه الحصائل إلى جذورها فرادى أو بطول الاستقصاء .. ولكن طبيعة العصر يمكن

ان تمدنا بخيط يسلكها كلها وتنتظم فيه كحبات العقد تتوالى وتتجاور كيانا متسقا وإن اختلفت فيهـا الحجوم والالوان ثم تباينت مصادر النشاة او تغايرت مناجم التعدين !.. ولعل اقدر ما قد يعيننا على استكناه هـذه الطبيعة ، وهتك سرها ، هو أن نرد اصلها قليـلا إلى الوراء ، ثم نستشف كيف كان السلوك العام للمجتمع العربى الأول تجاه الإسلام في مستهل فجره .. عندئذ تقع العين الناقدة على دين جديد يطلع بكل ما هو غير مألوف على مجتمع متمزق ، يحيا حياة كالبدائية ، وتسوده روح القبيلة المنبعثة من السلطة « الأبوية » تمثلها السيطرة « الفردية » للشيخ ، ويضطرب فيما تثيره هذه الروح من حمية وتعصب ، فمن تنافر وتنـاحر ، ثم من تخلخل وتفكك في المجتمع الكلى بمقدار تعدد القبائل والعشائر ، أو الوحدات الاجتماعية التى تعيش فيه ..

فما هو المنحى الخليق بمثل هذا المجتمع ان ينحوه ، وما هو المنتظر من مثله أن يسلك إزاء ذلك الدين ؟..

مفتاح سلوكه ، أو دافع اتجاهه ، بغير جدال ، ومن أقرب مورد ، هو « النفع » الذى يسـتطيع ذلك الدين ان يحققه لكل وحـدة من وحدات المجتمع كمجموعة ، ثم لكل طبقة او فئة في النسيج الاجتماعي للوحـدة على انفراد .. وتقدير قيمة هـذا النفع في هذا المقام رهن — بطبيعة الحـال — بعوامل شتى تتصـل بمكونات أمزجـة الأفراد والجماعات ، وأوضاعهم النفسـية ، وأساليب تفكيرهم ، ودوافعهم السلوكية التى تحددها جميعا البيئة المكانية والزمانية ، والطباع والتقاليد ، وتراثات تواريخهم القبلية المنحدرة في عروقهم عبر الأجيال . ولكنه ، آخر الأمر ، أشبه شيء بحساب الأرباح والخسـائر الذى لا يعول فيه على دلالة المفردات الرقمية واتجاهاتها إلى الصعود والهبوط ، الغنم أو الغرم ، بل على الحصيلة النهائية لهذا الجانب او ذاك .

ولا يمكن أن يطعن هنا بأن تناول الدين من هذه الناحية لا يتفق وما له من طبيعة روحانية لا توزن عناصرها ، ولا آثارها ، بميزان الذهب أو تعاير بمعيار المال فلا وجه إذن لإخضاعه لتفكير مادى يربط بينه وبين المنافع المادية ، ويعتبره سلعة في سوق المتاجرة بالبيع والشراء

يروجها الكسب ، وتكسدها الخسارة .. لا يمكن هذا ولا يسوغ اعتباره إلا ان تكون النفوس كافة ــ وعلى غير حقيقتها « الأرضية » ــ ذات جبلة « سماوية » خالصة صيغت من الصفاء والنور فتنجذب تلقائيا إلى الدعوات الإلهية دون التأثر قليلا ولا كثيرا بالمرغبات والمرهبات . فأما والبشر هم البشر ، ونفوسهم فيها جانب مظلم وجانب مضيء ، فنظرتهم إلى الدين خليقة بالا تتجرد مما بنظرتهم إلى أى معروض يقاس إقبالهم عليه بمقدار الرغبة فيه ، والحاجة إليه ، والمنفعة المنتظرة منه !..

وإذا كان علينا الا ننكر ان مواكب الإنسانية على طريق التاريخ لم تخل ــ حتى في اظلم العصور واشدها جاهلية ــ من نفوس لاهوتية نقية وبشر ربانيين فنوا في ذات الله ، وقصدوا بابه شغفا وحبا وليس خشية عقاب او ابتغاء ثواب ، فإن لنا أيضا ان نقرر ان جموع هؤلاء في كل عصر ــ ولا نقول في كل جيل ــ لا تجاوز الآحاد المعدودة والأفراد المحدودة ، وهم بهذا خروج على الإجماع ، وشذوذ عن القاعدة كحبة اللؤلؤ في صحراء شاسعة من الحصباء !..

المنفعة على اختلاف صورها ، وبتعدد قيمها في حدود تباين التقدير ، هى التى ربطت العرب بالإسلام ، من بدء نزوله ، ومن بعد اشتداد أيده وانتشاره ، ثم صنفتهم طوائف ومجموعات نمت لها على الزمن خصائص مميزة ذات اثر فعال في تحديد سلوك كل مجموعة ، ففى توجيه السلوك العام .. ولا حاجة هنا لذكر اولئك الذين صفوا نفوسا وضمائر ، وهيأتهم خلائقهم السوية لاستقبال دين الله بالقبول عن إيمان مرده حاسة روحية مرهفة أو تقدير عقلى سليم . فهؤلاء هم الرواد وبناة الدعوة الذين امتلأوا بها ، واخذوا انفسهم بغرسها في القلوب والأذهان .. أما من نعرض لهم بالحديث في هذا الموضع ، إبانة عن صنوفهم ، وكشفا عن مناحى سلوكهم ــ حينئذ ومن بعد ــ كيف كانت ، وكيف حولت حركة التاريخ خلال عهد الإمام ، فإنهم من عداهم من اتباع الدين .

ولقد يضفى على المنظر ما يدنيه إلى الواقع الإنسانى في كل آن ، أن نقرر هنا أن السلوك العربى تجاه الإسلام لم يخالف الطبيعة البشرية

في شيء وإنما طابقها ونضح عندئذ باتجاهها « التقليدى » المألوف حيال كل ما جد — قبله — من عقائد وأديان . فعبادة الله دائما على الوان ، بقدر تفاوت استنارة البصائر ، واختلاف القدرة على الإحاطة بذاته ، أو تغاير حدود الإحساس بالعقيدة ودرجات التقدير لما بها من شرائع ونواميس .. وفيما رسمه الإمام لهذه الألوان من الاتجاهات ما قد يصنف صور الإيمان ..

قال :

« .. إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار .. » .

ويكاد الأمر لا يتطرق بنا بعيدا عن النهج الحق لو رأينا أن الكثرة الغالبة ممن دخلوا الإسلام ، بدء ظهوره ، ومضوا عليه ، كانوا مشايعين لبضعة من قادة الرأى فيهم ، متأثرين لخطاهم ، استجابة لداعى الإبقاء على وحدة القبيلة وهيبتها ، أو نزولا على مشيئة السلطة الأبوية فيها المتمثلة في الشيخ . فكما وقفت العشائر العربية ، بزعامة شيوخها ، تناوئه عند إعلان مولده ، وتنكر عليه حقه في الذيوع بين رجالها ، وقفت ايضا تساند الدعوة ، بعد قليل ، بزعامة أولئك الشيوخ ، حين آن لهم أن يلحظوا ارتفاع نجمه وعجزهم عن حسر موجه المتدافع كالطوفان ..

وليس هذا — بطبيعة الحال — بالقول الفصل ، ولا القاعدة التى لا تقبل الاستثناء ، بل هو الرأى الذى نجده يؤخذ على الترجيح والتغليب فإذا هو يظفر من الحقيقة بأوفر قدر ومن الصواب بأكبر نصيب فما يغيب عن البال أن الإسلام قد أخذ — في البدء — يشيع في الناس فرادى ووحدانا ، ينصل المرء إليه من طاعة قومه ، ويخرج بإيمانه به على إجماع راى القبيلة . وما يغيب أيضا أن الإيمان « الجمعى » به لم يكد يقع إلا من السنة التاسعة للهجرة حين توالت الوفود العربية على المدينة بزعامة رءوس العشائر أو ممثليهم يبايعون الرسول لأنفسهم واقوامهم على الإسلام بعد أن رأوا قريشا ، وهى أمام العرب حينذاك ، تدين له ، ويخضع سادتها لسلطانه صاغرين ..

ومع ذلك ، فليس يطعن على القـادة ، او على طائفـة منهم ، أن دخلوا الدين خوفا وطمعا ، إذ خايلتهم فيه منفعة منتظرة او مؤكدة ، تحفظ عليهم هيبتهم ، أو تعيد لهم عزا دارسا وترفع شأنا موضوعا يغدون بفضله وهم رءوس من بعد ذيول وصدور من بعد أعجاز ، ما دام المظنون بتنافسهم على ارتياده ان يتقدموا في الدولة الجديدة على من عداهم من المتخلفين عنه من الاشباه المناظرين أو الغرماء المنافسين . وما دام تعضيدهم إياه ، وسيرهم في ركابه ــ كيفما كانت الدوافع ــ قد حسر المد الكفرى ، واضعف موجاته ، ثم حول الجزر العقيدى إلى تيار دافق كأنه شلال ..

وكما كان الإيمان على الوان ، فكذلك كانت الدوافع إليه عديدة بقدر تعدد الرغبات والمثيرات ..

فحمزة ، وهو على الكفر ، دفعه غضبه لابن اخيه إذ آذاه اناس من قريش أن يذهب إليهم ، فيشتمهم ، ويشج كبيرهم ابا جهل بن هشام، قصاصا وثأرا ، ثم يتحداهم ويعلن إسلامه ..

وعمر أخذته الرقة على أخته فاطمة بعد أن ضربها لإسلامها واسال دمها ، فاسترجع وأناب ، وتابعها على دينها الذى طالما وقف منه ومن أتباعه أشد مواقف العنف والعداء ..

والأنصار في العقبـة الأولى حفزتهم منافسـتهم يهود المدينة ان يسرعوا إلى محمد بالبيعة ، ويسـلموا على يديه ، وبعضـهم لبعض يقول :

« هذا والله النبى الذى تحدثكم به اليهود ، فلا يسبقونا إليه !.. »

وأبو سفيان بن حرب يعقدها صفقة تجارية ليسلم !.. فلا يقر بأن محمدا رسول من عند الله ، عن اقتناع وطيب نفس ، بل خشية سـيف يهم أن يومض وهو يهوى على عنقه ، ولقاء فخر يميزه به الرسول ..

وتتواتر الأمثلة لتعرض صور الرغبات فإذا هى تجل عن الحصر لأنها تكاد تتعدد عدد الأفراد !.. فإنما الناس أهواء . وإنما الدنيا أمل.

وإنما الدين سلعة « نفسية » تخضع ، كالسلع المادية ، لقواعد البيع والشراء !.. وفي حديث رسول الله لعدى بن حاتم وقد وفد من الشام المدينة عملا بمشورة اخته ليرى رأيه في الالتحاق بالإسلام ما يلقى ضوءا على جانبى الخوف والطمع في النفس البشرية إذ هما معين الرغبات ..

يقول الرسول لعدى ، باسطا له أوجه « المنفعة » المنتظرة من الدين :

« .. لعله يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فيوشك ان يفيض المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .. او لعله يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف.. او لعلك إنما يمنعك من الدخول فيه انك ترى الملك والسلطان لغيرهم ، فيوشك ان تسمع بالقصور البيض من بابل قد فتحت .. » .

هكذا كانت حالة العرب العقيدية ، وكان انفعالهم بالدين في فجر دعوته . ولئن بدت لنا الصورة منتقصة لا تنقل لنا الهيئة الكاملة لوضع المسلمين العام في عهد الإمام بعد جيل وبعض جيل من ظهور الإسلام ، فإنها لا ريب شريحة من هذا الوضع الكلى ، أو — بالتعبير المألوف — « قطاع » منه ، تجتمع فيه كافة خصائص الأصل وصفاته فلا يختلف احدهما عن الآخر في الكيف ، وإن اختلفا في الكم : ولا في النوع وإن اختلفا في المساحة او المقدار .. فإذا كان العرب — وهم على عهد الرسول قلة في مجتمع كالبدائى محدود المطالب ، وبحكم طبيعة بيئتهم اقل الشعوب المعاصرة إغراقا في ترف المدينة — لم يستطيعوا الارتفاع فوق طبيعتهم البشرية وتجريد نظرتهم إلى الدين من رغائب الطموح المادى ، فأولى بغيرهم من الأجناس المترفة ، التى التحقت بالإسلام ، أن تستفيض بهم الأمانى ، وتنبسط رقعة الطموح ، وتكثر المطالب والرغبات .. وإذا كانوا ايضا قد تسقطوا في الدين بابا للمنفعة اجتازوه فأحرى بهؤلاء إذن ، وإنهم لمتمرسون بالدنيا ، خبيرون بالآراب ، أن يتسقطوا فيه لمنافعهم عدة ابواب !..

٣

في حدود الإطار النفسي الذى ضم صورة المسلمين عامة في تلك الايام ، يتبدى لنا ان جمهرة كبرى منهم قد اعتنقت الإسلام عن اتباع لا عن اقتناع ، شانهم في هذا السلوك شأن غيرهم من انصار كل مبدأ ، واشياع كل عقيدة يتكاثرون وينتشرون وهم في حقيقة الأمر كثرة تنقاد لقلة تقود .. فإيمانهم به مشايعة لما هو اقوى او لمن هو اقدر ، يثيرها ما ركب في غرائز البشر من تطلع دائم إلى بلوغ الأمثل الاقوم ، ونزوع مضطرد إلى الوصول للأنفع الأجدى — او هو التعبير الصادق والتفسير الذاتي لظاهرة اجتماعية حتمية الحدوث في كافة المجتمعات الإنسانية هى ظاهرة التقليد .. ودوافعهم إلى اعتناقه تتغاير وتتعدد بتغاير مذاهب الامزجة وتعدد مناهج التفكير ثم لا يحول التغاير والتعدد دون التفافهم حوله كيانا موحدا — وإن تباينت عناصره — هو المجتمع الإسلامى الجديد ، لأن اجتماعهم عندئذ ليس اجتماع تنافر وتضاد بل هو اشبه أن يكون اجتماع « تعاهد » وتضافر إن لم يكن هو التناسق والتكامل ، كوحدة الجسد تقوم على تآلف عناصر متعارضة الطبائع متضاربة الخواص ، وكبنية المجتمعات تتحقق بترابط انسجة شتى فيها التماثل وفيها الاختلاف ..

أشتات من الناس سلكها الإسلام في خيط دولته لا نقول بتناقضها من تعدد الألوان أو تباين الأجناس ، وإنما نقول به عن تفرق الدوافع ، وتغاير الانفعالات ، واختلاف الاتجاهات . ولقد نرى انها تضافرت على نشر الدين ، وبناء الدولة ، وبسط النفوذ الإسلامى على وجه الأرض إلى ابعد الآماد واقصى الأبعاد ، ولكننا لا نستطيع ايضا أن نغفل اقتدارها — ككافة البنيات الحية — على النمو ، ولا أن ننكر خضوعها — كغيرها من الاحياء — لقانون التطور الذى يحقق الانتقاء الطبيعى للصفات كما يحققه للأنواع ، فليس إذن بمستغرب ان تبرز ، مع الزمن،

لكل طائفة منها خصائصها المميزة التى تعينها ، أو تحملها ، على التفرد بانتهاج لون خاص من السلوك .

هكذا غدت الحال والإمام عندئذ يخطو خطواته الأولى على جادة الخلافة ، ويحاول ما وسعه الجهد أن يجعل الحكم والرعية كليهما يعملان في نطاق دين الله ، ويسيران على ما شرعه الإسلام .. وليس معنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن الثلاثة الذين سبقوه في سياسة الامور قد تهاونوا في التزام ما يلتزمه ولم يرعوا ما يرعاه . ولكن طفرة التغيير الواسعة التى طفرتها الدعوة في فترات إمرتهم القصيرة ، وفاقت بها كل وثبات الأديان وقفزات الثورات ، كانت قد طوت إلى ابعد الحدود احياز المكان وأجناس الإنسان .. فعلى المستوى الأرضى غزت بقاعا تتنوع بها الفصول والأجواء في آن ، وتتغاير طبيعة ثراها وتربتها بين جدب ويانع ، وحزن وسهل ، وجبال ووديان .. وعلى المستوى البشرى شملت شعوبا وامما بينها تمايز في الأصول والمناشىء ، وتفرق في اللغات واللهجات ، وتباين في الأبشار والالوان ثم ما يلى ذلك من تغاير الحضارات والثقافات .. فإذا تلاقحت عندئذ نظرات كل هذه الجموع إلى الدين الجديد ببذور العناصر الحضارية مجتمعة إلى رواسب التراثات البيئية ومقومات الفكر القومى ، فإن هذا هو التلاقح المتوقع المقبول ، والتأثر الطبيعى الحتمى الذى تقره طبيعة الأوضاع ولا يأباه منطق العقول ..

على هذا المدخل تراكمت ، بمرور الاعوام ، كافة التيارات الفكرية والسياسية لكل هذا المحيط الكبير من اخلاط الأجناس والوان الشعوب والاجناس . ومن خلاله راحت — ما تهيأت فرصة وما اشتد تيار — تتسرب قطرة قطرة إلى أساس النظام العام ..

وقد بدت هذه التيارات إلى نهاية الشطر الأكبر من العهد العمرى باهتة لا تكاد تأخذ العين أو تثير الاهتمام ، ولكنها كانت بلا ريب حية في النفوس تعتمل أو تختمر ، وإن بردت حرارتها ، وجمدت حركتها كذوات الدم البارد في موسم البيات الشتوى الذى تكاد تنفصل إبانه عن دنيا الأحياء !.. حتى إذا أوشك ذلك العهد أن يطوى صحائفه ، كانت قد اخذت تنتفض بالحياة ، وتتحرك حركة محدودة ، آنا تدور

حول محورها ، وانا نسير في فلكها او تضطرب اضطرابة تكاد تخرج بها عن مداره المعلوم . فلما أن انتصف عهد عثمان نشطت النشاط الذى ينبىء عنها ، وينبه إليها ، وإن لاحت عند ذاك للخليفة ولكثيرين من ذوى الرأى أو السلطان غير ذات خطر ملحوظ . فكانها كانت ادنى إلى طبيعة البراكين ، تحسب في رأى العين خامدة وهى لاتنى تعتمل في جوف الأرض والسطح ثابت هادىء لا يريب حتى يئين لها ان تقع على موطن ضعف في القشرة الأرضية فتقتحمه منفذا للانفجار !..

ولم يكن عجبا ألا تستطيع سرعة هذه التيارات المتفضة ان تبارى سرعة انتشار الدين أو تسير معها ، على الأقل ، جنبا إلى جنب ما دامت عوامل تفجرها تجيش منذ البدء في النفوس .. فإنما الطبيعى أن تقصر بها خطاها ، والعجب ألا تتأخر عن موعدها المقدور وألا تتخلف بعض تخلف عن مسيرة الدعوة ثم تلهث في أعقابها وهى تحاول طى الزمن والعقبات لتفرض نفسها على الوجود الإسلامى وتقوم فيه بدورها الخطير .. ومن شاء هنا أن يتقصى لهذا التخلف من الأسباب والدواعى ما شاء فلن يعضل الأمر به ، ولن يكون بحاجة لتسقطها على مشقة ، لأنها في الحقيقة تعلو الندرة إلى الكثرة ، وتعسر على الغموض والخفاء فلا تغيب عن إحصاء ولا يعيى بها استقصاء ..

فما هى الدواعى والأسباب ؟..

لأن يطيف بها الذهن فيلتقط شواردها واشتاتها من هنا ومن هناك فهو التزيد الذى لا موجب له ولا حاجة فيه ما دام الإقصار يغنى عن الإطالة ، وذكر المحصلة الكلية يجزى عن الإفاضة في إيراد المفردات والأعداد .. فإنما يكفى ان يقال ، في هذا المقام ، إن علة العلل ، ومحور الأسباب والدواعى التى ادت إلى تأخير ظهور تلك التيارات يمثلها لنا أصلان جامعان ، هما نضرة الدين وصلابة اليقين وما أفاده كلاهما على طلائع أبطال الدعوة الإسلامية من قوة روحية لم تعدلها ، وما كانت لتثبت لها ، أية قوة مناهضة في تاريخ الإنسان . فانطلاقة الدين ، كعقيدة ، إلى النفوس على عهد رسول الله ، وهو عندئذ في رواء نضرته واوج عنفوانه ، كانت كاندفاعة السهم عن قوسه إلى الرمية ، إذا ضرب أصمى واصاب ، وإذا أصاب نفذ وغار ، وإذا غار لم يسهل نزعه ..

وصلابة اليقين في نفوس الطليعة المؤمنة كانت الردء لهم ، والدرع الواقية التى تهب الطمأنينة وتورث الثبات والإقدام عند الدفاع والهجوم . وفي رسوخ قدم الرسول في التبشير بدين الله ، وصبر أصحابه الأول معه ، ونضالهم واياه ذلك النضال الأسطورى العنيد الذى لم يلن لوعد ، ولم يخف بوعيد ، ولم ينل من شأو حدته تعذيب ولا تشريد ، ما يغنى عن كل بيان ولا حاجة بعده لبرهان ..

فأما النضرة فإنها تكسب الموصوف بها ــ فيما تكسب ــ سحر المنظر وبهاء الرونق . وهى على إطلاق مفهومها وطبيعتها ــ سواء أكانت في الأمور أم الأشياء ، في المعنويات أم الماديات ــ ظاهرة قادرة على الاستهواء وتحريك الفضول لأنها دائما تقترن بانفعال الدهشة نتيجة لاستحداثها خلاف المأمول وبروزها فجأة من وراء المجهول .. فما بها من جدة خليق بأن يعلق بها الأنظار والمشاعر طويلا أو قليلا من عجب أو من إعجاب . ولقد يسفر هذا التعلق البغتى ، بعد تأمل وتفكير ، عن انكار ونفور ، ولكنه قد يسفر أيضا عن رضا وقبول ..

وقد استطاع الإسلام ، وهو النضر في الأفكار والاتجاهات ، الحديث بين الأديان والمعتقدات ، أن يظفر ــ ككل جديد ، دع جانبا انه رسالة سماوية واجبة الاتباع ــ بطائفة من الأعوان المبهورين بجدته أو المتطلعين من خلاله الى الانسلاخ من القديم لتغيير الأوضاع .. وإذ هو عندئذ في زهرة عمره أخضر العود في قلوب انصاره الأول من الدعاة المؤمنين بدعوته ، أو الأشياع المأخوذين بنضرته ، فإنه أولى بألا تخلق له جدة ، أو يبهت لون ، فيفتر أثره في نفوسهم ، أو يتهاوى تمسكهم به ولما يطل بعد عليه الأمد طولا يغير النظرة أو يقسى القلوب .. وإذ محمد ما زال في الناس يأتيهم من السماء يوما يوما ، وساعة ساعة ، بالجديد من التنزيل ، ثم يفسر ويقرر ، ويرشد ويبصر ، فإنه لا سبيل حينئذ إلى نزوع أيما إنسان في المجتمع الإسلامى الجديد الى التأويل في الدين بما قد ينحرف بتعاليمه ، ولا لتطرق أفكار وآراء اليه من خارجه ــ وعبر ما عداه من الأديان والمعتقدات ، أو الفلسفات ونظرات العقول والأفهام ــ تطرفا يخلط

به ما يشوب صفوه ، أو يلتوى به عن نهجه ، بالانتقاص منه أو الإضافة إليه ..

واما اليقين فإن صلابته التى لم تكن لتلين قد جعلت من القلة المؤمنين بالدين ، المناضلين دون الاعداء والعقبات على بقائه وانتصاره ، قوة تعز في القوى ثم تهون امامها الكثرات .. فالإيمان هو خالق العزائم والإرادات ، وباعث الثبات والإصرار ، وموقظ القدرات الكامنة ومحركها لتندفع قدما اندفاع الاعصار . وهو بهذا سلاح باتر قاطع في مجالات الصراع والكفاح بل هو اول سلاح واقطع سلاح .

ولا غرابة هنا ، وقد اجتمع للإسلام عنصرا القوة : النضرة والإيمان ، أن يظهر على أعدائه ومناوئيه ، ويقتحم ما يعترضه من عراقيل وعقبات . فما رده عن انطلاقه أن ناواه ــ وهو ينشق أولى نسمات حياته ــ طاغوت قريش والقبائل العربية الأخريات التى اخذها عنت الكفر ، وازدهتها حمية الجاهلية ، واستطار بها ــ صلفا وكبرا ــ ولاؤها الأعمى للماضى ، وثباتها الجامد على القديم .. ولا حسر موجة انتشاره ، في إشراقة عمره ، أن تصدت له مدنيات ذلك العصر بما لها من تفوق علمى ومادى ، وبروز في جوانب الحرب والسياسة ، وبما تمثل من دول عظمى وامم عريقة كفارس والروم ، ومصر والشام ، وغيرها من بلاد وشعوب طوت حينذاك رقعة عالم تلك الايام ، وضربت في الحضارة وشأو القدرة إلى ابعد الحدود وأعلى الآفاق .. ولا غرابة ولا شبه غرابة في ظهور الإسلام ، تلك الآونة ، على جميع من اعترضوا طريقه ، وتحطيمه كل ما واجه من السدود والقيود . ولكن الغريب ، أو ما هو أشبه بالغريب ، أن عنصرى قوته اللذين تفاعلا معا ، وولدا طاقته الذاتية الهائلة ، كانت تجثم فيهما ، ومن نفس طبيعتهما لا من خارجها ، جراثيم هدم وتحلل ما لبثت ــ حين آن لها من بعد أن تختمر ــ أن اشاعت الضعف في انطلاقته ، وراحت تتعثر بخطاه ..

في جانب « النضرة » اخذ النفور ــ الذى يثور احيانا على الجديد بعد انحسار المفاجأة عن نفوس فريق من المبهورين ــ يطفو على السطح

إذ امتد الزمن بعض امتداد ، وبعد عهد هذه القلوب بالدين « الجديد » فخلقت فيها جدته وبهت رواؤه . ولا عبرة هنا بطول المدة محسوبا بالشهور والأيام أو القرون والأعوام . بل العبرة بمدى الشعور بهذا الطول . فقد يرث الجديد وهو في زهرة عمره لأن الإحساس به ــ إعجابا به أو عجبا منه ــ قد زال . وقد يرث لما قد يطرأ عليه من عوامل ناخرة وآكلة تنال منه وتغير فيه . كالثوب يرث بآفة قارضة ، أو بالقذر كتراب وغبار ، أو بلسع النار ..

وفي جانب « الإيمان » فشت فاشية من تعصب في نفوس طائفة من الذين تخطفوا الدين تخطفا كعقيدة استجابت لها مشاعرهم المتعطشة عند ذاك للتدين ليملأوا بها في دخائلهم فراغا روحيا كان لابد أن يملأوه .. فالإنسان « عابد » بالسليقة . منهوم بالاعتقاد . مشوق عادة إلى ربوبية إله لأن فيها التفسير الوحيد للأسرار الكونية المحيطة التى لا يستطيع ذهنه أن يرقى اليها على جناح تعليل ، ولأنها ملاذه من سطوة الغوامض والمجاهيل .. فإذا هم جنحوا الى اعتناق الإسلام فذاك انسياق طبيعى مع العاطفة الدينية وإن كان هذا الانسياق العاطفى لا يجيء دائما مطابقا للاقتناع الموضوعى الذى قد تبلغه العقول بعد روية كيفما كان استواء تفكيرها أو التواؤه ، ومدى قدرتها على الإحاطة بالموضوع .. وإذا هم دفعتهم العاطفة وحدها إلى أخذ الدين فإنه الأخذ المتمجد الذى يغدون به أوعية صماء قصاراها الامتلاء ، لأنهم احتووه ولم يفهموه ، شربوه ولم يشربوه !.. فكأنهم النهم الممعود الذى لا ينفعه بشيء إقباله المسرف على المآكل مقادير وألوانا إلا أن يتخم جوفه ، ويزيد داءه ما دامت معدته لا تقوى على الهضم فلا تتمثل عناصر الغذاء !.. وكأنه لديهم ليس سوى طقوس وأشكال ، وسور وآيات ، أشبه بهم أن يأخذوه على ظاهر هيئته وفي حدود حروفه بغير اقتدار على الغوص فيه تعرفا على أبعاده وأعماقه ، وتفهما لغاياته وأهدافه . وأن يترسموه شعائر ومعالم دون إدراكه كحكم وتعاليم ، لأنهم يرونه نصوصا تستظهر ، وحركات تؤدى وليس أسلوب حياة ..

من هاتين الثغرتين نفذت عوامل الانتقاض والانتكاس إلى المجتمع

الإسلامي الوليد ـ كمجتمع إنساني فاضل ـ ثم راحت تتسرب في كيانه رويدا رويدا تسرب العلة في الجسد المعلول لتجول فيه بالضعف والتحلل دولة وأمة ، مادة وعقيدة ، وما كان قد قطع بعد من أشواط حياته غير جيل وبعض جيل .. ولا نشك هنا في ان مرجع هذه النكسة الخطيرة ، لو أحيط به ، ومسحت رقعته الممدودة ، ثم أريد وصفه بما يحدد معالمه ، ويخطط حدوده ، لكانت العبارة التى تطابقه هى قصور أسلوب السلوك عن متابعة نهج الدين ..

فهل عن العجز كان هذا القصور ؟.. أم العمد وسوء النية ؟.. أم التهاون ؟.. أم الضيق بالتزام القيود ؟.. أم شطحات التأويل ينجبها الجهل أو يسوقها الادعاء المغرور ؟..

كل اولاء ، وأكثر ، بغير مراء !..

لكنها جميعا ، وان تستر بعضها بمنطوق النص ، كانت مجافاة خالصة لفلسفة الدين ، وخروجا على مضمونه ، أخلت بالتوازن المفترض بين الظاهر والباطن . الحرف والمعنى . الشكل والروح ..

٤

الاتجاهات السلوكية في اى مجتمع من المجتمعات ليست حركات عفوية عشواء تصدر عنه بغير بواعث محددة . ولا هى أيضا حركات إرادية معبرة يراد لها أن تكون فتكون . ولكنها مجموعة من الظواهر الاجتماعية التى قد تؤثر في تكوينها الصدفة كما قد يؤثر الإعداد ثم لا تكون آخر الأمر ، بعد نضجها واكتمال بنيتها ، إلا مستقلة الكيان بغير حد ، مطلقة اليد بغير عائق ، يحكمها في انطلاقها قانون طبيعى ثابت لا يتغير ولا يختل ميزانه ، فإذا هى به « التعبير » المجسد العملى عن الميول والنزعات ، والنتيجة المنطقية الحتمية للدوافع والتطلعات ، ممثلة في « الفعل » ناشئا عن مدى التكيف مع الظروف المحيطة بذلك المجتمع ومقدار الانفعال بالنظم السائدة فيه ..

وفي ابان تلك الفترة المتقدمة من تاريخ الإسلام ، فعلت هــذه الاتجاهات فعلها في المجتمع ، فحددت ملامحه ، وحركت خطاه ، وتفردت له بأسلوب حياة يخالف بلا ريب أسلوبه الأول عند نشأة الدعوة ، نتيجة لما طرأ من تغيرات عديدة على الأوضاع والنفوس باعدت ما بين الأصل والواقع ، والقديم والحديث .. ولا سبيل هنا الى الادعاء بأن هذا من طبيعة الأشياء إذا أخذت حتمية التطور في الاعتبار ، لأن التطور — بمفهومه السليم — نمو . والنمو زيادة وارتقاء وليس نقصانا أو رجوعا الى الوراء ..

ويدلنا الاستقراء على أن خط الاتجاه الســـلوكى عامة ، في ذلك الحين ، كان يتدلى ، جاذبا معه حركة التطور الى الانخفاض .. وهو بهذا لم يساير بأية حال من الأحوال سنة التطور السليم .. ولا كان صدى صادقا لروح التقدم التى احتواها الإسلام في طوايا تعاليمه . إنما كان ، في حقيقة الأمر ، نكوصا على العقب ، وردة عن النهج ، وخروجا على القواعد التى أرساها الدين ..

فالانحراف عن مضمون الدين آنذاك ، وإن جاء عن جهل به ، او قصور عن ادراكه ، أو تخبط في التأويل ، أو انسياقا مع الاهواء ، او كيفما كانت الدوافع والأسباب وتعددت التعللات والتبريرات ، هو الذى وضع بذرة التحلل في النفس المسلمة ، وفي المجتمع الإسلامى على السواء ، ثم تعهدها لتثمر كل عوامل الضعف والتخلخل التى راحت تنخر فيها وفيه .. ولقد يحسم الجدل في هذا المقام ان ننأى هنيهة عن التخصيص الى التعميم فلا نلصق التهمة بفرد بذاته ، ولا بطائفة من الطوائف ، ولا بجنس من الأجناس دون سواه ، لأن الانحراف فيما نرى — كان ظاهرة « مشتركة » . أو قد كان — مع الترفق في التعبير ! — أشبه بخطأ مشاع بين كافة الطبقات ومختلف الأشياع ..

هذه هى القضية !..

أما أن يقال إن اتساع نطاق الدولة الجديدة قد خلخل قدرتها الذاتية على التماسك كما تمط الثوب بين يديك مطا شديدا لا يكون مآله بعده غير تفكك نسيجه ، وانفراط قوامه ، وظهور تمزق به هنا

او خرق هناك .. واما ان يقال إن تعدد الاجناس ، وتنوع الثقافات ، وتضارب الطبائع وغيرها من وجوه التناقض والاختلاف ، قد يسفر اجتماعها عن كيان سياسى موحد هو الدولة ثم لا يسفر قط عن قوام عضوى واحد هو الشعب لانه عندئذ اجتماع اختلاط وتجاور وليس اجتماع تكامل وانسجام .. .. أما أن يقال هذا أو يقال ذاك فهو القول ــ لا ريب ــ الذى لا يسوغ أن يؤخذ به على إطلاق ظاهره وباطنه ، مبناه ومعناه ، كأنه قانون طبيعى ثابت . ولا ينبغى أيضا أن يعول عليه التعويل كله في تفسير ظاهرة الضعف والتحلل التى راحت تدب في مجتمع تلك الأيام . ذلك لانه القول الذى يلقى به عادة في مثل هذه الظروف تعليلا وتدليلا فلا يخلو هو نفسه من افتقار الى تعليل وحاجة لتدليل ، إذ لا يلبث أن يصطدم في مجرى منطق الأمور ، وفي نطاق واقع الحياة على السواء ، بشواهد لا تسنده ، وأمثلة لا تؤيده ان لم تنسخه وتنقضه او تجرده ــ في اقل القليل ــ من القدرة على الاطراد بغير استثناء في كافة الظروف والأحوال ..

فاتساع نطاق اية دولة ، وترامى حدودها ، أدنى الى ان يحسب لها ثقلا في ميزان القوة لا ان يحسب عليها سببا للوهن لأنه يمدها من الموارد الطبيعية والبشرية ــ الخليقة بأن تتوفر على امتداد المساحة ونتيجة لتنوع المناخ والتربة ــ بما يحقق لها من اسباب المنعة والتفوق ما لا يتحقق مثله لدولة صغيرة نصيبها من الارض والبشر قليل .. والتعدد العنصرى أيضا على أديم هذا النطاق الفسيح لا يحتم وقوع تنافر بين الاجناس يؤدى لا محالة الى الخروج على الدولة الأم وتفتيت وحدتها الاقليمية وكيانها السياسى الى دويلات عنصرية .. فكم هى الأمم ذات الأثر في الحياة الإنسانية على هذا الكوكب ، التى أوشك بنوها ان يكونوا انقياء الدم إذا ما أردنا بالنقاوة وحدانية العنصر ؟.. وهل من دولة ، قديما وحديثا ، في الشرق وفي الغرب ، قد حركت موكب الحضارة على طريق التاريخ ، ولم يكن قوامها يتألف من اجناس عدة تلاقحت ــ حيويا أو فكريا ــ وتوحدت ، على الاقل ، في تعاهد سياسى اقليمى إن لم تكن قد انصهرت في عنصر جنسى جديد ؟.. وما هى الفواصل الحادة بين الاجناس البشرية التى

تستطيع أن تحبس ، إلى أبد الدهر ، جنسا وراء اسوارها الشواهق فلا يتصل أو يمتزج بسواه ؟..

ليوشك هذا ان يردنا والزمن إلى الوراء حقبا سحيقة ، غائرة في القدم إلى الأعماق حتى مستهل النشأة الإنسانية على الأرض وجماعات البشر آنذاك شراذم مقطعة يعيشون معيشة بدائية ، لا يمكن أن توصف ـ إلا تجاوزا ورمزا ـ بأنها حياة ، أو يوصفوا بأنهم مجتمعات !.. فتلك كانت بداية « التجمع » الإنسانى او نواة الالتئام والاجتماع . وحركة الإنسان في آونتها هذه لا يكاد يحس لها بأثر في التاريخ العام للجنس البشرى لأنها عندئذ لم تكن لتدور إلا في حيز محدود مغلق من العزلة هو الأسرة أو هو القبيلة مع سخاء التقدير .. فأما وقد سارت البشرية في طريقها أشواطا شبت بها عن الطوق ، وخلفت بعدها طفولتها الغريرة الى مرحلة النضج عبر أعصر طويلة ، فإن إحساس الإنسان بذاته ، وإدراكه لدوره في الحياة ، ووعيه بالانتماء لأصل معلوم تناثرت آحاده وجماعاته هنا وهناك على مدى الأزمنة والمسافات ، قد غدت كلها ـ إلى جوار غريزته الاجتماعية ـ قوى فعالة تسيطر على سلوكه ، نفسيا وعضويا ، وتدفعه دفعا الى الالتقاء ببنى جنسه اينما شرقت به وغربت قدماه .

وكذلك تنشأ المجتمعات . بل كذلك يعود الإنسان ، بعد طول تجواله الضال ، الى بيئته الحيوية الأصيلة ، وتعود الشراذم البشرية المقطعة لتتصل وتلتئم كما تثوب الغنمات الشاردة الى مربض القطيع !..

ولا حاجة قط لتأييد هذه النتيجة استهداء بعلم الاجتماع ، ولا عن طريق استقراء التاريخ ، لأنها النتيجة الميسرة الظاهرة لأية نظرة عابرة بغير استهداء ولا استقراء . فالفرع لا ينفر من أصله . والشكل ينعطف على شكله . ولا عبرة أيضا بطول فترات الشرود والانفصال ، ولا باختلاف الألوان وتفاوتها كما بين غنمة سوداء وأخرى بيضاء !.. فمنطق الأمور ، وشواهد الحال يوما وراء يوم تؤكد ، بغير جدال ، ازدياد توثق الصلات بين جماعات البشر على تباعد المواقع البيئية ، وتباين السمات البدنية ، وتمايز الخصائص الفكرية وكل

ما يعلم مجتمعا عن مجتمع وإنسانا عن إنسان . وهذه المواقع والسمات والخصائص واشباهها مهما تعددت وجلت ليست سوى مظاهر خارجية لا تضرب في النفس الآدمية إلى عمق غريزة الاجتماع ، ولا في القدم الى عراقة النوع . فهى إذن فوارق عارضة ، كالرغوة الطافية على سطح الماء تغير مظهره ولا تغير جوهره ، الماء بها وبغيرها ماء !.. ولا مآل لهذه الفوارق ، طال بها العهد ام قصر ، إلا إلى الزوال والذوبان فناء في الأصل الثابت وتوحدا فيه ، وهو « الإنسان » على عموم معناه كنوع من المخلوقات ميزه الله بصفات خاصة ينفرد بها دون سائر الأنواع .

هذه هى نظرة الإسلام التى تنطق بها سطور القرآن ، وتقوم عليها أوامره ونواهيه . وهى دعامة فيه بغيرها يختل بناؤه ، وتهدر أهدافه ، ويفقد معانيه ومراميه ، لأنها تمثل في حقيقتها احد طرفي المحور الذى يدور عليه موضوعه ، وتنهض احكامه ، وهما : الله والإنسان .

فالدين الإسلامى ليس عقيدة بحتة لا تتناول إلا ما يرهف حاسة التدين ، ويهذبها ، ويوطد الرابطة بين الرب والمربوب بما رسم من شعائر ، وفرض من فروض .. لكنه عقيدة وتشريع وإن غلبت صفته الدينية الأذهان على حقيقة ما فيه فكادت — توهما وظنا — تجتزىء منه بشطر التأله دون شطره الآخر الذى يعرض لشئون هذه الحياة ..

والقرآن ليس قصصا يروى ، وكلاما يزجى ، وبيانا يستعذب فيردد ويستعاد . ولكنه قطعا قانون بالشكل والمضمون . وبالمعنى الكامل الصريح لكلمة قانون ، أريد به إنارة الطريق أمام المجتمع الذى سن له إلى حياة إجتماعية يسودها العدل ، ويتحقق لها الخير ، وينتشر في ربوعها السلام . فمن الطبيعى إذن ، وصولا لغرضه ، وابتغاء لغايته ، أن يجىء بما ينظم العلاقات في ذلك المجتمع بين أفراده وجماعاته من ناحية ، ثم بينهم وبين السلطة العليا التى يمثلها من ناحية أخرى ، مقيما تنظيمه على أساس من الدواعى والأسباب ، ومعقبا بأحكام الثواب والعقاب .. ومن اللازم الا يغفل ، أو يتغافل عن هذا الجانب الاجتماعى فيه ، تمحلا بأنه دين « الروحانيات ،

والغيبيات هى مجاله الأصيل . فلا جدوى قط من قانون تقتصر نصوصه على تحديد الصلة بين الحاكم والمحكومين دون ان يضع صلة رعاياه بعضهم ببعض موضع تقدير لانه عندئذ يجرى على التخصيص . والأصل في القوانين أن تكون على العموم لا على الخصوص ..

في هذا الضوء لا يعسر على من يستخلص الأسس العامة ، أن يرى في الإسلام حقيقة كبرى قد ابرزها كراس قواعده ، هى « الوحدانية » الخالصة التى تنتفى معها كل صور التعدد والوان التجزئة وما قد تومىء اليه هذه أو تلك بالتصريح أو التلميح . فالوحدانية التى يقول بها ثابتة لا تتغير ، كلية لا تتجزأ ، جلية لا تتناولها شبهة ، لأن التغير والتجزئة والاشتباه آفات خليقة لو وقعت بأن تذهب بالعقول مذاهب شتى في فهم ذلك القانون القرآنى ، وتغاير بين أساليب السلوك تجاه كل حكم من أحكامه ، ثم تفاوت بعد هذا بين العقوبات والمثوبات بغير ما يقتضيه الإنصاف . وما لمثل هذا شرعت القوانين ، ولا بمثله تساس الأمور والمجتمعات .

ولا يراد بهذا القول أن يعاد ما هو ثابت مستقر من « توحيد » الله في الإسلام فذلك طالما جرت به الأحاديث ، ووعته الأفهام ، حتى غدا بديهية في غنى عن التأييد . لكن الذى ينبغى بيانه أن التوحيد ، بشمول معناه ، وعلى تعدد مجالاته ، هو أساس الإسلام ، وأصل قواعده ، والمبدأ العام الذى يتقدم به ، ويعرض نفسه على العالمين عقيدة وشريعة ، دينا وقانونا ، سياسة ونهجا للإيمان والسلوك . فهذا التوحيد هو الوسيلة لتحديد علاقة الله بالبشر ، وعلاقة الناس بالناس ، دون ما ترخص هناك أو تأويل ، ودون ما تحيز هنا أو تجاوز . وهو الضمان الكامل لاستقرار الأمور في المجتمع : حاكما « علويا » ومحكومين « أرضيين » بغير زيادة ولا نقصان ..

فالإسلام كعقيدة لا يبيح مطلقا اى ترخص في شرائط الإيمان اخذا ببعضها وتركا للاخر وإن لاح ان فيها ما يجل أو يهون ، وإن اختلف حولها المكان او تغير الزمان ، لان الإيمان « وحدة » متسقة لا تقبل التجزئة ، كما لا تقبل الإفراط أو التفريط ..

والإسلام كشريعة له وحدته القانونية التي تربط احكامه ، وتلائم بينها ، وتعرف عادة في لغة العرف او العصر بروح القانون . فلا سبيل قط إلى الاحتكام إلى نص فيه بعيدا عن « جو » بقية النصوص . ولا إلى المغايرة قليلا أو كثيرا في التطبيق بسبب تفاوت اقدار المحتكمين أو المختصمين ، وتغاير عناصرهم ، واختلاف النظرة في التقدير بين هذا وذاك ممن يتصدون للتطبيق ، لأن في هذا ما فيه من إهدار الوحدة ومجافاة الروح ..

وكما لا يجزىء الإسلام الله فإنه لا يجزىء أيضا الإنسان . إنما يقضي بوحدة الربوبية الإلهية ووحدة العبودية البشرية فيآن . ويحرص الحرص كله على أن يرسخ هذا المبدأ في القلوب والأخلاد بكلا طرفيه : الله والبشر ، بما يبثه في تعاليمه ، وتردده آيات كتابه بجلى الحرف ومستتر الإيماء سواء بسواء ..

فتوحيدا لله ، ينزه الإسلام الذات العلوية عن مخالطة الأحياز زمانية ومكانية ، وعن المشاركة في الملك بالاجتزاء او المشورة ، وفي القدرة بالقول أو الفعل ، وعن المقارنة بالنظائر والأشباه ولو مقارنة تمثيل . فتنزيهه الله خالص كامل ، وقاطع مانع ، يجل عن الوصف ويعلو فوق تطاول المقول ..

ولقد صور الإمام هذا التنزيه ببيان رای ، أمام كماله سبحانه ، ان ينهى فيه عن وصف ذاته ، لقصور الأفهام عن الإحاطة بحقيقته ، وعجز الكلام عن رسم صفاته :

قال :

« .. كمال توحيده الإخلاص له . وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف انه غير الصفة .. فمن وصف الله فقد قرنه . ومن قرنه فقد ثناه . ومن ثناه فقد جزاه . ومن جزاه فقد جهله . ومن جهله فقد اشار إليه ومن اشار إليه فقد حده . ومن حده فقد عده .. » .

وقال مما جرى على نفس المثال :

« .. وحده لا شريك له . الأول لا شيء قبله . والآخر لا غاية له .. لا تقع الأوهام له على صفة . ولا تقعد القلوب منه على كيفية . ولا تناله التجزئة والتبعيض .. » .

وتوحيدا للبشرية أعلن الإسلام أنه دين الفطرة التى فطر الله عليها الناس قبل أن تفسدها الانحرافات المتسربة إلى النفوس والعقول من خلال المعتقدات والأفكار ، أو العادات والتقاليد ، أو فوارق العنصريات . أو حدود الزمان والمكان .. فهو يرد الإنسان إلى سجيته النقية الأولى ، كبدء نشأته ، مطهرا من أدرانه ، خالصا من شوائبه ، كأنما يلده من جديد . وهو بهذا يسوى بينه وبين كل من عداه من بنى نوعه لأن الفطرة هى العامل الوحيد المشترك فيهم جميعا فأساس المقارنة بينهم على هذا الوضع ثابت لأنه مساواة مطلقة لا وجه فيها للمفاضلة او الترجيح .. وهو يقيم رسالته على هذه القاعدة ، فلا يوجهها لطائفة من الناس ارتفعت — في حساب المعايير الدنيوية الموضوعة — بجاه ومال ، أو بعلم وثقافة ، أو بقدرة وقوة ، أو بجنس وعنصر .. لكنه يوجه هذه الرسالة إلى البشر كافة ، ثم يحتويهم في رحابها سواسية ، لأنهم وحدة مكتملة لا تقبل التجزئة ولا التفريق .. وليس أدل على هذه الحقيقة من نأيه في الدعوة إلى الإيمان عن التخصيص إلى التعميم فلا يخاطب إلا « الناس » أو « الإنسان » أو « بنى آدم » أو « عباد الله » دون أن يختص أى جنس أو عنصر بالخطاب ..

ويشير الإمام إلى وحدة البشر فيقول :

« .. إنما أنتم إخوان على دين الله ما فرق بينكم إلا خبث السرائر .. » .

ويحذر من عصبية الأحساب والأنساب والعناصر ، بل يهدر طاعة ذوى السلطان الذين يتخلقون بهذه العصبية ، لأنها — في حقيقة الأمر — تجافي منطق الطبيعة الذى يجمعهم وغيرهم من مدلوليهم المرجوحين ، في نسب واحد ، أصله واحد لا اختلاف فيه .

قال وهو يفرد العلو لله :

« .. لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه ، وجعلهما

حمى وحرما على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده .. الا فالحذر الحذر من طاعة سادتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم ، وترفعوا فوق نسبهم .. فإنهم قواعد اساس العصبية ، ودعائم أركان الفتنة ، وسيوف اعتزاء الجاهلية .. » .

ونسبهم هو الإنسانية فكيف يترفع إنسان على إنسان !

وانكر المفاوتة في تطبيق شريعة الله عند الاحتكام ، فقال فيمن يفاوتون ، منحرفين بهذه المفاوتة إلى آرائهم عن رأى الدين :

« .. إلههم واحد . ونبيهم واحد . وكتابهم واحد .. افأمرهم الله بالاختلاف فأطاعوه ؟.. أم نهاهم عنه فعصوه ؟.. ام انزل دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه ؟.. أم كانوا شركاء له فلهم ان يقولوا وعليه أن يرضى ؟.. أم انزل دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه ؟.. » .

هكذا هو المجتمع الذى عناه الإسلام ، وبناه على قواعد راسخة لا تهتز ، واضحة لا تستبهم على العقول ، لانها تجرى على جادة الميسرات البديهية التي لا تحتاج في إثباتها إلى عناء الجدال ، وتقوم على حقائق الواقع الملموس ومنطق الأمور الطبيعى لا على النظرات المنبثقة من التصور والافتراضات المستمدة من تطلعات الخيال !..

وحدة ..

وحدة سلطة عليا ، لا تتجزأ فلا تنقسم على نفسها . ولا تتغير فتختلف عليها البدائه أو تضطرب الآراء .

ووحدة أمة واحدة الأصل ، متفردة النوع ، بغير تباين بين جماعاتها وأفرادها في النشأة والفطرة والصفات النوعية ، هى البشرية . او هى الإنسان على اختلاف الزمان والمكان ..

ووحدة شريعة مكتملة ، تؤكد وحدة السلطة ووحدة الأمة ، وتتناول العقيدة والمعاملات ، بغير مجاز إلى تبديل في اصولها ، أو ترخص في قواعدها العامة ، لأن تعديل الشرائع موكول إلى الهيئة التى اصدرتها ، ومرتهن بحاجة المجتمع إلى هذا التعديل نتيجة

لافتقار المشرع إلى الإحاطة الكاملة بما قد يطرأ من بعد على ذلك المجتمع من ظروف ويجد من احوال ، وحاشى أن ينسب مثل هذا الافتقار إلى الله !..

ومساواة ..

مساواة بالنشأة ، لأن المجتمع البشرى كله من آدم ، فهو إذن متوحد في النوع ، مختزل في الإنسان على عموم صفته ، بغير تجنيس ولا تفريع ..

ومساواة بالكنه ، وهو الفطرة الأولى التى يشترك فيها أبناء ذلك النوع كافة ، قبل أن تغير منها او تفسد فيها عوامل الفرقة «الوضعية» التى تستند إلى تفاوت البيئات والألوان ، او تغاير الأهواء والثقافات..

ومساواة في التقدير أمام شريعة واحدة ، لا تمالىء إنسانا على إنسان ، لأنها عادلة شاملة ، لا تتغير من مكان لمكان ، ولا من زمان لزمان ..

٥

عوامل الضعف كلها التى انتابت المجتمع الإسلامى في ذلك الحين ، ومن بعد ، نبعث — فيما تنبىء الشواهد وتثبت الخواتيم — من قصور اسلوب السلوك عن متابعة نهج الدين ، أو ، بلغة اليوم ، من المفارقة بين النظرية وبين التطبيق .. فهذه المفارقة آفة مدمرة ، كغيرها من جراثيم الأوبئة والعلل الفتاكة ، قد تهدأ حينا ، وقد تنشط حينا ، ولكنها في الحالين لا تنقضى ولا تنقطع لما لها من طاقة ذاتية تجددها على الدوام وتعينها على البقاء والانتشار في كافة الظروف وتحت كل الأجواء بقدر استطاعتها التكيف بأوضاع المجتمع الذى تنشأ فيه !.

ذلك ما لا سبيل إلى نقضه ولا الطعن عليه وإن تعقبنا المجتمعات البشرية بأنواعها على مختلف مراحل التاريخ ، صعودا وهى في ذروة القوة والازدهار وهبوطا في حضيض التدلى والانهيار .. فما نشأ

مجتمع قط في هذه الدنيا إلا على مبدأ عام ـ إلهى او وضعى ـ يرمى إلى تحقيق لون من الخير يشيع في ربوعه ، كيفما تغايرت النظرات من خارجه إلى هذا الخير أو تفاوتت الآراء في تقديره .. وما قام مبدأ في مجتمع إلا على اساس من التوفيق بين مصالح القوى المتعارضة ونقائض الأفكار السائدة فيه ـ طبقية كانت أم فردية هذه المصالح والأفكار ـ ضمانا لخلق توازن نسبى بين أهله ، يذيب الفوارق او يكسر حدتها ، ويجمع شتات الآراء والجهود في وحدة تسعى لتبلغ الخير المقدور .. وما من خلل أصاب هذا التوازن وخلخل اتساقه في مجتمع من المجتمعات إلا كان ناجما من افتقار بنيه إلى الإحساس بالانتماء إليه افتقارا يهز إيمانهم به وثقتهم فيه ، بسبب اضطراب المعايير ، والمفاوتة في التقدير على خلاف ما يقضى به المبدأ العام ..

وظاهرة المفارقة بين النظرية وبين التطبيق برزت في المجتمع الإسلامى الجديد وهو يوشك أن ينسلخ من الخلافة « الراشدة » بأسلوب حكمها الخاضع لناموس علوى لا يأخذ بالملك القائم على مزايا وضعية كالعنصر والنسب وبسطة النفوذ . ولا مدعاة هنا لسوق الحديث إلى المفاضلة بين النظامين لاتساع الهوة ـ قطعا ودون حاجة للتدليل ـ بين الفاضل وبين المفضول ، سواء بالنتائج والعواقب أو بالأسس والأصول ، وكفى أن يقال إنها الهوة التى تضع إنكار الذات في جانب والأنانية في آخر ، وتقدم القهر على حرية الاختيار ، والاجتزاء على الشمول .. ولا مجال أيضا للزعم بأن هذه الظاهرة قد طفت فجأة على سطح المجتمع الإسلامى ، أو اقتحمته على حين غرة حينئذ ، لأن في هذا ما يخالف طبيعة الأمور . إنما الحق ان نقرر أنها ولدت مع المجتمع منذ نشأته ، وعاشت وتربت فيه . فلكل شيء آفة من جنسه ، كما يقال . والإسلام آنذاك ، وعلى عموم معناه ، « مبدأ » جديد . والمبادىء ، في كل موقع وعهد ، خليقة بأن تقابل دائما ، منذ نشوئها وطروئها على المجتمعات بما يضادها . ويصطلح عادة على تسميته « رد فعل » ، تماما كما تنشط كرات الدم في الجسد وتولد طاقة ذاتية لمقاومة اى طارىء دخيل !..

وهذا ما كان .

فلقد ظهرت قوى المقاومة للدين الجديد منذ نشأته ، واخذت ايضا عوامل التحلل والتخلخل تسرى في المجتمع في نفس الآونة ، وإن مشت حينا على استخفاء وحينا على سفور . ولقد لاح ، فيما سبق به الحديث ، كأنما كان أولى بهذه العوامل ، أن تفعل فعلها التخريبى منذ بدات ، ما دامت قد عاصرت مولد الدين ، ومشت وإياه إلى المجتمع خطوة خطوة على الطريق .. لاح هـذا ، وكان أولى به الحدوث قبل موعده ببضع سنين ، اولا ان ظروفا غلابة قد عوقتها ، وقهرت ضراوتها على أن ترجىء نشاطها الى حين !..

فلا شبهة قط في أن انطلاقة الدين بتلك السرعة البرقية من قلب مهده في الجزيرة العربية ، وعجز الجحافل الضخمة المادية ــ سياسية كانت ، أم عسكرية ، أم عقيدية ــ عن الثبات أمامه ، ثم تعاقب تساقطها ممزقة صرعى تحت قدميه ، قد شل عوامل التحلل ان تتحرك ، وجمد خطاها المتسللة الى المجتمع الجديد .. ولا شبهة ايضا في أن صليل السيوف ، وضجيج الخيل ، ودوى الأبواق التى انعقدت بها ألوية النصر لكتائب الطلائع الداعية في كل مكان قد شغلت الدنيا كلها بثورة الطوفان العارم الذى فجره الدين .. فالناس ، هنا وهناك ، في الجزيرة العربية وما وراءها ، مؤيدين ومعارضين ، قد أذهلهم عن أنفسهم ، وعن المطامع الشخصية والقومية جميعا ، ذلك الزحف الأسطورى الخاطف الذى حققته الدعـوة الإسلامية في مجالى غزوها للأرض وللنفس فيما لا يكاد يحسب شيئا يذكر في عمر شعب ، أو دولة ، أو مبدأ ، بل في عمر فرد من الأفراد ، ثم يوشك الا يدع مهلة لالتقاط النفس المبهور ، او فرصة لإمعان النظر فيما جد من الأوضاع والأمور ومقابلته بالتمرد أو التغيير ..

فعلى الأديم « العربى » نحلت حركة الفتوح أمة العرب ، التى ولد في حجرها الإسلام ، نوعا من الشعور بالتفوق على الحضارات العظيمة المعاصرة إن يكن قد حملها على الاعتزاز بالدين الجديد كطاقة معنوية تدفع إلى الاستهانة بالأخطار ، او كمشعل يضىء لها الطريق إلى النصر ويفرش ساحات الكفاح بالنور ، فإنه قد بسط لها أيضا في الثقة بالنفس ، والاعتداد بالجنس ، اعتدادا وثقة صورا لها

ـ أو كشفا ـ في دخائلها قدرات وملكات ذاتية ، شاهقة خارقة ، ظلت خبيئة عنها على مدى الأعصر الطوال حتى عرفت الآن اين السبيل للظهـور .. وإذا كانت للنصر سـورة كسورة الخمر التى تعرى بالمعاقرة ، وتحفز علي الإدمان انتجاعا للنشوة في كل كأس وبأى مكان ، فان تعاقب الليـل والنهار على انتصـار وراء انتصـار ، قد أبدل العرب زهوا بثقة ، وخيلاء باعتداد ، فزادوا عصبية على عصبية ، وحمية فوق حمية ، وغدوا ـ ولما يطل بهم عهد الازدهار ـ أفخر بأصلهم والصق ، فخرا يكاد يعمى عمـا عداه من أصـول فيورث الاسـتعلاء . ولصوقا يهم أن يحتازهم الى ركن قصى من « القومية الإسلامية » الجديدة ، إن صح هذا التعبير ، ويبنى حولهم غلافا من العزلة ، كصدفة القوقعة ، يفصل بينهم وبين سواهم من الأقوام الأخر الذين احتواهم الدين وإياهم على سـواء في أمة موحدة محت شريعتها السماوية طبقية الجنس وأذابت القوميات .. فإذا لم يكن في تعاقب النصر المؤزر السريع ما يشحذ إحساسهم بالتفوق ، ويلهب في نفوسهم غلواء افتتانها القديم بالعنصر ، فأى شيء غيره إذن ـ في اعتبار النظرة العربية المباهية ـ قادر أن يشعرهم أنهم وحدهم هم الجوهر الأنقى ، والأصل الأعرق ، وأن غيرهم من الشعوب والأقوام ، الملتحقة بفضلهم بالإسلام ، تبع لصقاء ، وطارئون دخلاء !..

وعلى الأديم « الأعجمى » قرنت صيحة الدين الجديد ، في البلاد التى مشت عليها الفتوح ، صـدمة المفاجأة برغبة التغيير .. فلقد هالت الناس فيها تلك الطاقة المذهلة التى فجرها الإسلام في أمة مستضعفة ، لم تكن قبله شيئا مذكورا ، فإذا هي به تزلزل الدنيا ، وتقلب موازين القوى ، وتغير المعايير والأوضاع ، فتصبح قبائلها المبعثرة دولة تديل شوامخ الدول ، وتلتهم اعظم الحضارات ، وتنسخ العقائد والاعراف ، ثم تطوى في قبضتها عالم يومها ذاك من طرفيه في بضع سنين .. وكان الانفعال الذى خلفته الصدمة المباغتة في البلاد المفتوحة ، ان دينا كهذا قد استطاع ـ وهو بعد وليد طرى العود بين عمالقة الشرائع والمعتقدات ، وبأنصار لا يحفل بهم في حساب كثرة او قدرة ـ أن يفعل مثل هذه الخوارق ، ويأتى من

النتائج بما لا تنم عنه المقدمات ، ولا يوحى التسلسل المنطقى للأمور ، محققا ما يخالف كل متوقع ومنظور ، اهو لابد دين جدير بأوفى اكبار وابلغ تقدير .. فإذا ارتبط هذا الانفعال ــ وهو في ذروة نشاطه ، والعقول لما تفق بعد من صدمة الدهشة ــ بما طبع عليه البشر عامة من تطلع نهم الى الجديد ، وبما راود عندئذ نفوس ابناء الأمم والشعوب التى طالما استعبدتها دول ذلك الحين قبل الإسلام من نزوع الى التبرم بأسلوب حياتها المهين ، والتمرد على الظروف والأوضاع التى حبستها في هذا الاسلوب ، فأى مسلك إذن كانتَ تلكم الشعوب والأمم تسلكه حيال طغيان الامبراطوريات واستبداد الحكام الا أن ترى الأمل ثم تتلمس المهرب في هذا الدين الذى بشر بالعدالة والمساواة بين الأجناس ولكل الناس ، ولا مكان فيه لتسلط إنسان على إنسان ، إدلالا بقوته أو إشباعا لهواه ، لأن السلطة كلها في يد الله دون سواه ؟.. واى موقف عسى أن يقفه بنو هذه الأمم التى اظلها الإسلام لو آنسوا من العرب ، وهم الهداة والأعلام ، تقحما على هذه السلطة ، وميلا إلى التجبر والاستعلاء ــ كحكامهم الغابرين ــ على خلاف الشعار الذى رفعوه ؟..

هذه هى الملامح النفسية التى أخذت تبرز في أقوام عالم تلك الأيام والإسلام يلمس بعصاه السحرية البشر فيفجر فيهم الطاقات والقدرات ، أو يبجس الآمال والتطلعات كما فجر موسى من الصخر عيونا عدة من الماء بعصاه !..

تباعد وتعال في جانب ، وتوجس وتحد في آخر على رقعة الدول الإسلامية الفسيحة ، في بكرة نشأتها ، كانت هى السمات التى أعلمت نفوس جماعة المسلمين آنذاك ، ووجهت سلوكهم ، وراحت تحاول أن تشق وحدتهم فريقين متقابلين ، على تحفز وتناقض ولو لم يكونا على خلاف ، وما انقضت بعد على التقائهما تحت العلم فترة الزمن التى تكفيهما للانصهار . فكأنه التقاء مادة بمادة تتجاوران ولاتتفاعلان ، وقد تلتصقان ولكنهما لا تمتزجان !..

ويجاوز حدود الإنصاف وسلامة التقدير ، بغير جدال ، أن يزعم زاعم أن العرب ــ كجنس ــ كانوا جميعا على استعلاء . أو أن خيلاء

العنصر سادت منهم رجال الطبقة الحاكمة فرادى وجماعات . فذاك ما لا تؤيده حقيقة السلوك العام لأولئك وهؤلاء في تلك الفترة كقوة داعية الى الدين أو كسلطة تسوس الأمور .. ولكن ظاهرة الاستعلاء برزت ، بلا مراء ، في صفوف الحكام ، منبثقة من تراثهم النفسي وطبيعة العصبية العربية التقليدية تؤجج نارها مفاخر النصر وسطوة النفوذ . فإذا هي تسم غير قليلين من أصحاب السلطان وتوجه اليهم الاهتمام العام . وإذا هي عندئذ الظاهرة التى يفشو أمرها بين الناس، ويجـرى ذكرها على الألسنة بكل مكان في كل مقال ، كثر أو قل الموسومون وتعددت أو ندرت الأمثال .. وليس هذا بمستغرب . ولا هو مما يخالف منطق الأشياء . لأن الكبير ـ كل كبير ـ وصاحب الجاه ، وذا السلطة المرموقين في المجتمعات يتعلق بهم عادة اهتمام من وراءهم وحولهم من الجماهير ، وتتربص العيون والاخلاد بصور تصرفاتهم ، وألوان سلوكهم ـ ما جل منها وما هان ـ في مناحي حياتهم العامة والخاصة على السواء ، تلاحقها بالنظرة الفاحصة والراى الناقد حتى لتوشك أن تعد عليهم الخطوات وتحصى الأنفاس ثم لا تذكر لهم ، آخر الأمر ، مما يقولون أو يفعلون ، إلا الأخطاء والمساوىء ملفوفة في المبالغة والمغالاة وإن كن هنات ، كشأن الشعوب دائما في محاسبة الحكام ..

ويجاوز أيضا حدود الإنصاف وسلامة التقدير أن يقـال عن الشعوب الأعجمية الملتحقة بالإسلام ، إنها ظلت أبدا خافضة الجناح ، بريئة من داء الاستعلاء . فذاك أيضا يجافي حقيقة الحال .. إنما المعلوم المشهور أن بذرة الإحساس بعراقة حضارتها والازدهاء بأصول مدنياتها القديمة ، بائدة أو مقيمة ، لم تقتلع من المشاعر ، فظلت معتزة بما سلف وكان ، تجتره بين حين وحين وإن أضافت إليـه فخرا جديدا بهذا الدين .. فما كانت لتنسى قط اعتزازها بصـولة الاكاسرة ، وتراث الروم ، وشموخ الأهرام .. ولا هي اغفلت تلمس العزاء في أمجادها الغوابر كلما ساءها من العرب أمر ودفعها الى المقارنة بين ماضيها كرعايا وماضيهم كحكام . وفيما تدلنا عليـه نفثات الفكر المستعرب وآثار كتابه وشعرائه ، التى راحت رويدا رويدا تطفو على سـطح الثقافة الإسلامية ، ما يكشف لنا عن نواة

الحركات « الشعوبية » الخطيرة التى كان لها، من بعد، اثر بالغ في توهين سلطة الدولة، وحسر مد الإسلام ..

ولا ينبغى هنا ان تحمل كلمات الضعف والتحلل والوهن وأمثالها من أسماء الصفات والنعوت، التى نراها اسندت لهذا العهد والتصقت به؛ على مطلق معناها، لان « الإطلاق » في حقيقة دلالته تجريد، والتجريد شمول بلا معالم، وشيوع بلا حدود، وما هكذا تكون الأمور في واقع الوجود. فإنما المعنى نسبى. والصفة مرنة وليست بقالب جامد تصاغ فيه كافة الموصوفات في حجم واحد وهيئة واحدة بلا سمة من تباين ولا مظهر من خلاف بين موصوف وموصوف. فلقد يفعل رجل فعلا فيقال كريم. ولقد يفعل غيره نفس فعله فيوصف بوصفه ثم لا تكون دلالة الصفة في هذا هى دلالتها في ذاك. بل لقد يجزى ثالث على ذات الفعل بنقيض الوصف، لان مرونة الصفة تتيح تشكلها بحسب الموصوف، كما يتشكل السائل بشكل الإناء !..

فإذا قيل ببدء تحدر الدولة الإسلامية، في هذه الآونة، الى منزلق الضعف، فإنه التحدر الذى لا يؤخذ بالحرف وظاهر الوصف لأن الدولة الإسلامية آنذاك، وبعده بعدة أجيال، كانت الدولة التى لا ترقى إلى شأوها دولة معاصرة، والقوة التى تكاد تتفرد في عالم ذلك الزمان بامتلاك ناصية شعوبه وأحداثه، تسوس فيها الأمور وترسم المصاير والمقادير .. ومع ذلك فهو ترد بلا جدال إذا قورنت الدولة بالأليق بها والأوفق بمقوماتها وما كان ينتظر منها أن تكون لو انها سارت، وسار بنوها ــ بذرع خطاهم واستقامتها، كأول امرهم ــ ممتثلين مضمون الإسلام .. فأما وقد جانبوا النهج وانحرفوا عنه، فإنهم إذن قد اغفلوا معين القوة الذى لا ينفد وفرطوا فيــه، واصبح محتوما عليهم بهذا الإغفال الانزلاق يوما الى هاوية الضعف قصر الأمد وقرب من ذلك اليوم أو بعد وطال !..

٦

سرح الظل على الضوء !..

الشروق ينحسر . الأصيل ينتشر . الشهبة تصبغ الأفق وتغير عليه نذيرا بمقدم الغروب . الصفاء يذوب في كدر العتمة .. ومن خلال ذلك بدت صورة المجتمع الإسلامى حينذاك ، بخلاف أمسها ، مهزوزة المعالم على غير جلاء . كأنما رثت . كأنما اختلطت فيها الألوان . كأنما راحت تعوم في ضباب !..

ولم تكن أصابع الزمن هى التى أنهكت الديباجة ، أو عبثت باللون ، أو كسفت النور . فالعمر غض والمدى قصير .. ولكنها أصابع الإنسان . هواه وغروره . الترخص الذى استباحه لنفسه ، بغير حق ، في الركون للتهاون أو النزوع للتغيير هو الذى شوه الصورة .. فقد أطلق على الملامح ريشة نزواته تجرى عليها كما يشاء .. أحيانا عدل فبدل . وأحيانا ظلل فطمس . وأحيانا لون فهول حتى لقد غام الضوء وبهت الظل وخيف الا يبقى على حاله الأول شىء من الصورة الأصيلة سوى الإطار !..

صنوف من السلوك الناجم عن جموح النفس البشرية أخذت تشيع في المجتمع ، ثم تتسرب ، قطرة قطرة ، الى أعمق أعماقه لتنخر في الأسس التى قام صرحه الباذخ عليها كمجتمع ركين سليم .. ما فطن آنذاك كثيرون فيه الى انحراف تلك الصنوف السلوكية عن مجرى الدين . ولا شام ، الا الأقلون ، خطرها المحتوم . ففى مجال التأويل والجدل دائما فسحة لاصطياد الاسناد أو تقديم التبرير ..

وعسير بلا ريب ، كما سلف القول ، أن يرد الانحراف الى هذه الطائفة أو تلك ، أو هذا الفرد أو ذاك من الناس إذا نحن أردنا أن نحصر التهمة لنحسم الأمر ونحدد على من تقع تبعة الانزلاق . ولكنه هين وحق أن يوسم بها قادة الرأى عامة في الأمة الإسلامية على غير

تخصيص وعلى اختلاف المواقع والدرجات ، من كان منهم صاحب كلمة ترشد وتوجه أو كان منهم ذا سلطة تردع وتأخذ المخالفين بالجزاء .. فأولئك بفتنيهم قد أعانوا ، بلا شك ، من وراءهم على الخروج عن الجادة ، وأملوا لهم في مقارفة الانحراف سواء أجاء إملاؤهم عن قلة تبصر ، أم قصور فهم ، أم غرور أهوج إن لم يجيء بسوء نية عن خبث طوية أو جنوح مقصود إلى التنكب عن الطريق السوي لإشباع شهوة النفس ونهمها ، بلوغا لهدف ماثل أو طموحا إلى مأرب بعيد .. لكنه ، على مختلف وجوهه ، تجاوز عن استقامة السلوك وسلامة التصرف واستواء القصد التي يدعو اليها مضمون الدين .. وحين يصدر القول من صاحب سلطة فكرية أو زمنية ، فإنه إذن إيحاء أو أمر ، وحين يصدر الفعل منه فإنه اغواء أو مثل ، وكلاهما يحمل الناس على الانصياع أو يغريهم بالاتباع .. ولا عجب . فالقادة قدوة ، آراؤهم وأعمالهم أعلام منشورة يرنو اليها اهتمام الخواطر ، ومعالم على الطريق يحتذيها انطلاق الرغبات . ودائما القدوة هي التي تصنع السلوك العام في المجتمعات ..

من هذه الثغرة اتى مجتمع الإسلام . وتسربت اليه عوامل الوهن من بين يديه لا من خلفه ، ومن قمة بنائه لا من القاع ، إذ نفذت فيه من خلال نفوس « سادته » ورجاله الكبار قبل أن تنفذ من خلال نفوس العامة وعرض الجمهور حتى اتسع الخرق ، مع الزمن ، لشتى الأخطار .. ولا حاجة هنا لتوكيد هذه النظرة بما يزكيها .. فهي – في ضوء الواقع – تساير طبيعة المحاكاة والتقليد التي تسيطر على السلوك الجمعي في المجتمعات ، وتقود حركاتها الحيوية الى التغير المستمر – كسنة التطور – صاعدة بها الى الارتقاء والنمو ، أو هابطة الى الضعف والانهيار .. وهي أيضا الحقيقة التي تنطق بها شواهد الحال ، وتتوالى أدلتها وأمثالها في حياة الإنسان في كل مكان وزمان ، دليلا من بعد دليل ، ومثالا وراء مثال .. وما المجتمع الإسلامي ، بعد هذا ، إلا بيئة إنسانية ، تخضع لحكم هذا الناموس الطبيعي الحتمي ، ويحق به عليها ما يحق على غيرها من بيئات ..

ولقد يميل امرؤ الى الإفاضة في الاستقصاء ليتعقب خط الإسلام وخط السلوك العام ، في تلك الآونة ، محاولا ان يطابق بينهما لعله

يتبين من أية نقطة كان بدء الخطا ، ومدى فداحته ، ومتى وقع ، وإلى من يعزى ، وكيف تكرر ، وما هي تبعة أولئك او هؤلاء من الذين قارفوه أو شاركوا فيه .. لكنها عندئذ الإفاضة التي يتشعب عليها المقال ، ويتواتر بها الجدال ثم يغني عنها الإجمال !.. وكفى هنا أن يقال إن الخطأ قد وقع ، فمهـد للانحراف . وإن الانحراف قد باعد بين الخط المرسوم والخط المطروق ، أو بين النظـرية وبين التطبيق .. تماما كما يؤدى الميل ــ ولو بمثل قيد شعرة ، أو اقل ــ الى اتساع زاوية الانفراج !..

وخيف عندئذ الا يظل على حاله الاول من الصورة الأصيلة سوى الإطار !.. وغلت الغيرة في الضمائر النقية على الدين أن يغدو مظهرا بغير جوهر ، وعلى الأمة إن ينتهيها الانحراف . فأن يصبح الإسلام نصا يتلى وشعيرة تقام فلن يكون قصاراه إذن إلا أن يتردد على الشفاه ألفاظا جوفاء ويتمثل في المراسم حركات آلية دون ان يخالط السلوك ويكون ــ كرسالته ــ اسلوب حياة !.. وأن تخرج الأمة الإسلامية عن الجادة التى شرعها الله فقد عادت إذن الى مسلك من سلف وباد من الأمم والعباد فحقت عليها سنة الله في الغابرين !..

في فترة نمائه تلك ، لم يخل المجتمع الإسلامى من اناس على بصيرة ، فطنوا لمعالم الانحراف ، ودعوا ما وسعهم ــ درءا لخطره ــ الى المبادرة بالتقويم . وإذا كان من التجني الادعاء بأن هذه الدعوات كانت بلا اصداء أو تبددت في الهواء ، فإن من الحق ايضا أن يقال إن الفطنة والدعوة كلتيهما لم تحققا ما أريد من ورائهما على النحو الذى ابتغتاه ، لا لمجرد قصــور في التلقى والاســتقبال ، وعجز في الاستجابة والانفعال ، بل لأن طبيعة المرحلة ، من ناحية ، وتباين النظرات الى صورة السلوك ، من ناحية اخرى ، قد عاونتا كذلك على إرجاء الحسم المطلوب ..

اما طبيعة المرحلة فقد كانت زحاما شديدا من الاحداث ، كسور هائل بجدران صماء ، لا ثغرة به تتيح للناس آنذاك ان ينفذوا ، بنظرهم ووعيهم ، الى غير ما بداخله وما هم فيه .. فالدعوة منهومة بالانتشار ولا وقت للتريث لكيلا تخبو النار !.. والقتال ، ضد قوى

طاغية التفوق ، يتوالى في كل مكان توالى الشهيق والزفير حتى ليوشك أن يشغل الدقائق والساعات فضلا عن الأيام والشهور !.. والفتوح سرح على وجه العالم لتضم تحت العلم بقاعا الى بقاع وامصارا الى امصار !.. ومن وراء ذلك وفي إبانه تنشأ وتترى مشكلات — في شتى مجالات الحرب والسياسة والإدارة والمال وأمثالها مما يتصل بحياة الدولة الجديدة وحياة الشعوب المختلفة التى احتواها نطاق الإسلام — تتطلب معالجتها ، لحظة بعد لحظة ، بأسرع الحلول ..

وأما تباين النظرات إلى اتجاهات السلوك فقد كان لا بد من ظهوره ، في تلك الآونة ، نتيجة لتعدد أساليب التفكير وتغاير درجات التقدير للأمور . ولا غرابة هنا في حدوث التباين لأنه أخلق باختلاف الطبائع وأولى بتنوع مقومات الإدراك ومبلغها من الإحاطة أو القصور. ولا غرابة أيضا فيه لأن الأمور — في حيز الرأى — ليست « رقائق » مسطوحة بل هى « حجوم » مجسمة ذات أعماق وابعاد ، تختلف فيها الآراء بحسب موقع النظرة اليها على غور عمق ، أو طول بعد ، أو ميل سطح من السطوح !.. فإذا قر هذا في حسابنا ، الى جوار التفاوت الطبيعى بين القدرات الذهنية وملكات التفكير ، فمن الإنصاف أن تستند كثرة من أسباب الانحراف إلى خطأ الاجتهاد أو اضطراب التقدير قبل أن تسند إلى فساد الطوية وخبث الضمير ..

وليس هذا بتمهيد للعذر بين يدى كل من عسى أن أسهم آنذاك — بقول أو فعل — في بناء الانحراف بنصيب كبير أو قليل . بل هو التبرير الذى نراه يضع طائفة من المسلمين ، خاصة وعامة ، في تلك الفترة ، حيثما تضعهم سابقتهم ونواياهم — ويجب أن يكونوا — من الفضل وإن تعثرت ببعضهم الألسن أو زلت بآخرين الأقدام . فما عن الهوى الزلل ، ولا عن تجانف لسوء . لكنه تحرر النظرة ، وانطلاق الفكر ، عن رغبة مخلصة ، إلى ما وراء آفاق المألوف بلوغا إلى ما ظن انه انفع واقوم في حيز واقع جديد تطورت فيه الأوضاع وتغيرت الظروف .. أم لا ، فكيف يمكن في غير هذا الشعاع أن تفسر نظرة ابن الخطاب عندما اشار على أبى بكر أن يقسم للناس على خلاف ما قسم لهم رسول الله من قبل ، فيفاوت بينهم بحسب منازلهم من

الإسلام ، من هجرة ، وصحبة وجهاد ، وسابقة ، ويصنفهم عليها درجات وكان الرسول قد جملهم في القسم سواء ؟.. واية علة — غير إيثار سلامة المجتمع الإسلامى الناشىء ، في مستهل الخلافة الأولى ، وسوى الخشية أن ينفرط عقد الدولة ولما تستتب بعد — كانت خليقة بأن تدفع رجلا في شدة عمر ، وقوة بأسه ، واشتمال غيرته الدينية ، إلى الجنوح للين كالخور يوم شاء أن يكف أبا بكر عن قتال مانعى الزكاة ؟.. كلتا النظرتين ، من ناحية ، قد انبثقتا من رأى طليق لذهن متحرر يحاول التكيف مع التغير ملاءمة بين الممكن والأمثل ، وبين الواقع والمأمول . ولكنهما ، ولا ريب من ناحية أخرى ، تؤخذان على الخليفة الثانى ، وتحسبان — موضوعيا — في قائمة السقطات التى لا يكاد يهونها تبرير شاف لولا ما هو معلوم عنه من غيرة على نشر الدين ، ودأب على تثبيت الدولة ، مع سلامة القصد ونقاوة الضمير ، لأن أولاهما ليست مجرد تغيير نمط التقسيم الذى ارتآه الرسول بقدر ما هى إخلال بمبدأ عام هو المساواة ، ولأن الثانية تخرج بهدفها من نطاق الاجتهاد المقبول إلى حيز الترخص في حماية ركن من أركان الإسلام أن يعبث به فينهار ، وهو ركن الزكاة !..

والتمحل بالدوافع التى حملت الناس ، من عامة وخاصة في الأمة الإسلامية — تحت ضغط الظروف او بسبب تغير الأوضاع — على « التخفف » في التزام السلوك المشروع ، أو الإغضاء عن هذا التخفف، قد يضع بعض وقر التبعة عن كاهل طائفة ، وقد يزيد ثقلها على آخرين .. ولكنه ، بطبيعة الحال ، لا يعفى أولئك ولا هؤلاء — من أيسر وجه ، وبأهون تعبير — من خطل التقدير !..

فلقد ادت حصيلة الأيام من تصرفات القوم ، حاكمين ومحكومين ، إلى اتساع زاوية الانفراج بين الطريق المرسوم والطريق المطروق ، وباعدت ما بين خطوط النظرية وخطوات التطبيق .. وإذا كان قد كتب على المجتمع الإسلامى حينذاك أن يسير ، نتيجة لهذا السلوك ، على غير السنن المفروض إلى غير الغاية المبتغاة ، فإن تبعة الانحراف ، ولا جدال ، ما كانت لتسند إلى فرد او فئة من الناس دون البقية ، بل هى قسمة بين الدولة والشعب ، الرعاة والرعية ، لان أولئك لم

يزعوا بقوة السلطان وهؤلاء لم يقاوموا بقوة الإيمان وإن كان السهم الأوفر من اللوم يقع في جعبة ذوى النفوذ ..

ولا محيص عن الإقرار بان فريقا غير قليل من اصحاب السلطة او الراى قد عملوا جاهدين على تدارك الأمور في إبانها ضربا بالسطوة او ردعا بالدعوة ، وجروا في هذا السبيل اشواطا واسعة كان أولى بها ان ترسى غد الأمة على بر السلامة لولا ان الأنفس في اغلبها ، كانت ضحلة قريبة القاع ، وريح الاحداث والاهواء الدنيوية كانت أعتى على الاحتمال والمقاومة فتعثرت السفينة واضطرب الشراع !.. فكم من صور سلوكية مشرقة أعزت المبادىء وارتفعت بها فوق طوفان المادة ومد النزوات !.. وكم من جهود توالت ، على مدى عهد الخلافة الراشدة ، لحمل الناس على التزام مضمون الدين ، قد انبعثت عن إحساس مرهف بالتبعة ورغبة صادقة في بناء مجتمع سليم !..

فما ينسى لأبى بكر الصديق أن إيمانه العميق بالمساواة قد أبى عليه المفاوتة في التقسيم . وإن شكيمته الصلبة قد دفعته إلى نبذ دعوة المهادنة أو سياسة التهدئة ليقف كالطود الراسخ في وجه فتنة المرتدة ومانعى الزكاة يقصفها قصفا بقوة يقينه قبل قوة السلاح .. وهو في كلا مسلكيه رجل الدولة الأريب الواعى الذى لا يقبل ان يداجى الأهواء او يصانع الخطوب على حساب المبادىء ، وإنما يقارع كل ما يتصدى له ، لأنه يؤمن اكمل ايمان ان هذه المبادىء وحدها هى الدعائم القويمة التى لا تبنى على غيرها عظمة الشعوب ..

وما ينكر أيضا فضل صاحبه ابن الخطاب الذى علا بانسانيته فوق ما يثيره عادة في القلوب من نزوع إلى الانحياز تباين الألوان واختلاف الأديان ، ضاربا اروع الأمثال في التجرد وكبح النفس عن الشطط العاطفى الذى نراه دائما يستبد بالنفوس ويسوقها إلى ممالأة بنى العقيدة والجنس على كل من عداهم من الآدميين .. فهو يؤمن إيمانا لا يتزعزع بوحدة البشر ، وكرامة الإنسان ، مهما كان ، وكيفما ذهبت بها ــ علوا وخفضا ــ مذاهب الآراء التى تتمحل باللون أو تتعلل بالدين .. وهو يصدر في سلوكه ، بهذا المجال ، عن انصاف مطلق ــ دع السماحة الكريمة ــ تتسع رحابه لكافة الناس على تغاير الملل

وتعدد الأجناس .. وهو لهذا لا يتوانى عن المبادرة الحازمة إلى قمع نزعة التمييز العنصرى حين لاح من أحد أولاد عمرو بن العاص مسلك شف عن هذه النزعة إذ دفعته خيلاء جاهه وسطوة أبيه إلى الاستعلاء — إدلالا بأصله العربى — على مواطن من المصريين .. ثم لا يتردد كذلك مع ما يعلم من كراهية اليهود للإسلام وذويه ، عن رعاية هؤلاء الأعداء الموغلين في اللدد والمسرفين في البغضاء ، فيضع الجزية عن فقرائهم ، وعن ضربائهم من الذميين ، ويفرض لهم ما يقيتهم ويصلح امرهم من بيت المال أسوة بالمسلمين ..

وما يغفل هنا ذلك الكفاح العنيد الذى أخذ ابو ذر الغفارى نفسه به لتحرير الإنسان من عبودية المال .. فلم تمنع الرجل زهادته ان يدرك ما لشهوة المال من قدرة على الإغواء يستطير بها سلطانه فلا يكاد ينهض له مناهض إذا ما اطلق له العنان — تماما كالنار ، تدمر وتلتهم إن لم تجد من يخضعها ويحصر لهبها في نطاق محدود .. فالمال وسيلة للنفع العام . وأصحابه أمنة عليه لإحسان إنفاقه وتوظيفه لا لتكديسه وتضعيفه .. فلا عجب ان ينشط هذا الداعية لنشر رايه أينما وسعه أن تسعى به قدماه ، وأن يناضل دونه وإن تصدى لحربه أصحاب الثروات وذوى النفوذ في آن . ولا ان يمضى وما راى متمردا على سلطة الدولة وجشع الغنى والتواء الأوضاع ، غير مبال بما يصيبه في هذا السبيل من قسوة وتشريد .. إنما ينطلق صابرا صلب العزم ، بلا تلوم ولا تهيب ، يحت بلسانه في دولة الذهب وفي طاغوت كنزته لكيلا تبرز في المجتمع طبقة فاحشة الثراء تستعلى على سواها من بنيه ، وتستطيع بجبروت المال ان تنفذ ، من خلال الفقر والحاجة ، إلى استذلال الناس بطرح الذمم والضمائر سلعة رخيصة في سوق الدرهم والدينار !..

كثرة بالغة من هذه الجهود راحت تترى نضالا عن الحق ، وتثبيتا لأصول المبادىء الرفيعة .. وهى تعلن ان الحرص لم يفتر قط للعمل بمضمون الدين عن إحساس قوى بالتبعة أمام الله وامام الناس . ورغبة صادقة في السير على النهج الأمثل ابتغاء إقامة المجتمع الإنسانى السليم ، وامل متفتح في التقويم ..

وكم من صور لتلك الجهود والوان صاحبت الزمن ، وانتشرت

على بقاع المكان !.. وكم من نظائر لأولئك الرجال وأمثال . برزوا فرادى وزمرا من بين الخاصة ومن صفوف الجمهور !.. وكم من كفاح مجالد صابر استعذب العناء واستروح الرجاء !..

ومع ذلك فلم يكف الانحراف . لم تقف حركته . ولم تخف حدته . بل اشتد واستطار . وأنصب حجارة وصخورا من المطامع والأهواء ، يقلعها ويدفعها إقبال الدنيا المتحدر كالشلال ويلقى بها في وادى الحياة ليطمر تحتها نقاوة القلوب ..

وعلى الأيام ، تعالى الركام والحطام !..

٧

ما حمل امرؤ في المسلمين ، عند ذاك ، عبئا هو أبغض إلى نفسه ، وأثقل عليها من الإمرة على الإمام .. كان طعمها كالحنظل . وكان وقرها كالجبل . وكان وقعها كالأسنة ، حتى لكأنه ، حين أفضت إليه ، قد اكتسى مثل طيلسان من حديد مسنن ، مبطن بجمر النار !..

ولم يكن عبؤه ثقيلا لانتشار تبعته — على أديم الدولة الفسيحة التى يحكمها بين مشرقى الشمس ومغربيها — انتشار الظلال السارحة أبدا في كل آن ومكان على معالم الضياء ، كلما انبثق فجر ، أو سطع نهار ، أو تهادى في ربوعها الخضر والجرد أصيل .. ولا بغيضا لتواتر الشدائد والأزمات ، وتدافع الصعاب والمشكلات ، في كل لحظة وبقعة ؛ تواتر النفس المبهور وتدافعه عن جسد واهن ارهقه الإعياء .. فليست التبعة تقاس ، طولا وعرضا باتساع مواقع العمل وامتداد اطرافه . ولا هى أيضا تعاير ، ثقلا ووزنا ، بكثرة صوره وتنوع اصنافه .. لكنها تزيد وتثقل ، وتخف وتقل ، بمقدار رقة الحس ورهافة الشعور — تماما كالوخزة ، ليست هى التى تحدد الألم . وكالمر ، ليس هو الذى يغير مذاق الفم . بل كلاهما عارضان حقيق بأحدهما ، كما بالآخر ، أن يفقد صفته ، ويفنى ، كيانا ، ودلالة ، في العدم إن لم يجد المجرى الصالح

الذي ينطلق فيه إلى مراكز الحس لتعكس أثره على الجوارح !..

ولقد نشط أمير المؤمنين إلى النهوض بتبعته ؛ على غضاضة وضيق، ليحق الحق ويمحق الباطل ، غير حافل بما يلقى من العنف والمشقة . كان يجتاز اللهب . ويمشي على الشوك . ويلوك العلقم . ومع ذلك فلم يلفته عن العمل شيء . ما نكص . ولا تمهل أو قصر خطاه . فالخطر يقبل . الغد يغيم ، والظلام يزحف على النور . والوقت أضيق على النكوص والتمهل . وهل عمله اليوم سوى امتداد لكفاحه الدائب قبله منذ طلعة صباه لإعزاز الإسلام ، وهو بعد غلام حتى نيفت به الأعوام على خريف عمره ، لولا أنه الآن قد ترامت حدوده ، وتناثرت ميادينه ، بين دان وشتيت ، إلى أقصى الآماد ، بعيدا بعيدا في أقطار الأرض ، وعميقا عميقا في أغوار النفوس ؟..

وهب يعمل . بكل ما يملك هب يعمل بقلبه . بعقله . بيده . بالسليقة المستنيرة الملهمة ، والرأي المقنع الفصل ، والسلاح القاطع الساحق.. يدعو ليهدي ويعلم . ويزع ليهذب ويؤدب . ويقسو ليردع ويقوم .. وبين اللين والعنف ، الدعوة المضيئة والقتال المدمر ، سن القلم وشفرة الحسام ، عالم من الجهاد مترامي الحدود والأبعاد هو فيه الرقيق الحميم ، والأب الراعي ، والمعلم المرشد ، والحاكم المنصف ، والقدوة الطيبة الحسنة ، التي تحتذى دائما ويؤتسى بسيرها وسيرتها ، كلما اشتبكت على أقوامه المسالك ، واشتبهت المناهج ، ودعتهم الحال للاقتداء بمثال ..

ومن الإفاضة فيما لا تجمل الإفاضة فيه إذ يغني الإيجاز ، أن يسترسل الحديث عن الإمام كأخي قتال ببز بسيفه الأقران في ساحة الوغى ، حنكة وشجاعة ، إن كان له في مجالات الصراع الدموي قرين !.. فما كان شيء أحب إلى نفسه من مخاطبة القلوب والأفهام . من السعي للسلام بالسلام . من اللقاء بالكلمة . من الحرب البيضاء !.. ولا كان شيء أبغض إليها — وإن كان أخف عليه ، وأهون مؤونة — من التجييش والإعداد . ومن قيادة الجنود . ومن الإقدام قبل الإحجام . ومن الصبر عند اللقاء . ومن الكر وسيلة للدفاع . ومن مطاردة الموت أينما بدت له أطيافه أو تكتلت صفوفه ، تحديا له ، واستهانة به ، وازدراء

لجبروته الرهيب الذى يخلع القلوب مقتحما عليه عقر غابه لينتزع الظفر من انيابه !..

كان يؤثر السلم ولا يعدل عنه ما وسعه أن يصل إليه من سبيل.. فالحرب لم تكن له شاغلا كما لم تكن ملهاة وإن الفها دائما حليفا وفيا لا يغدر به ، ولا يخرج عليه .. ومع ذلك فقد كان ينبو بها كل نبو لانها ، في قرارة يقينه ، اهون جهاد . وكان يبرم بنصرها العالق ابدا بذؤابة سيفه لأنه ، فيما يحس ويشيم ، أرخص انتصار !.. إنها الباب الذى ينبغى أن يوصد بألف رتاج ورتاج .. وهى الكى الذى لا يستطب به كدواء إلا إذا استعصى الداء على كل علاج .. وهى الأداة التى قد تقهر على الانصياع بغير اقتناع ، وعلى الإذعان بلا إيمان !.. أما السلم فدنيا من الهدوء والطمأنينة ، يقر فيها القلب ، وتأمن الجوارح ، ولا تطغى على صوت العقل قعقعة سلاح .. فكأنها صومعة راهب ، هو التأمل !.. أو كأنها حلبة سباق ، المنافرة فيها بالفكر ، والمصاولة بالرأى ، والغلبة بالبرهان !..

حتى في ساحة الحرب كانت « الكلمة » تسبق الحسام . ثم تلازمه. ثم تقطع القتال ، أحيانا ، لتنفرد دونه في الميدان .. كانت الدعوة ، بالحجة البالغة والموعظة الحسنة ، أول سلاح ، واهم سلاح ..كانت دائما حاضرة مشهرة ، مصقولة مسلولة ، تجول في الواقع وتصول بغير فتور ولا قرار . لا تعرف غمدا تثوب إليه ، ولا هدنة تهدأ فيها وإن طالما ، في غمرة الوغى ، وضعت الأسنة ، وعرفت السيوف الأغماد !..

ويوشك الاستطراد أن يطول حتى ليصبح مثل ضرب من المحال ، لو تعقب المرء دعوة الإمام ، محاولا حصرها في نطاق محدود من مقتضيات الحكم في عهده ، ودواعى سياسة الأمور إذ هو أمير .. فليست كذلك .. بل هى اوسع رقعة وافسح مجالا ، اتساع الحياة البشرية ، أمة بعد أمة ، على اديم هذه الدنيا ، وانفساح الزمان ، عصرا وراء عصر ، على مدى الدهر .. فإن هى إلا رسالة حياة ، تساير التطور ، وتهذب التغير ، وتتجدد على الأيام مع مشرق كل نهار ، وسكون كل ليل ، وظهور كل بادرة تعلن عن تجدد الحياة !..

رسالة كاملة شاملة . لليوم وللغد . للحاضر وللمستقبل . تنـد

عن حكمة تدفق من ذهن مخصب رواه نبع النبوة ، ويخفق بها قلب نقى جلاه فضل الرسول .. فوق متنها كان يذرع دائما مجاهل النفس وخباياها ، ذرع عليم خبير ، ليكشف عن مكامن المرض وخطره ، ومواطن النقص واثره ، باليد البارعة الصناع ، وبالقدرة المحيطة التى لا تخطىء التقدير . وعلى جناحها كان يحلق أبدا في آفاق من نور الله ، تهيىء له أن يقلع الشبهة ليغرس اليقين ، ويمحو الجهالة لينشر المعرفة ، ويبنى الكمال حيثما كانت فجوة ، ويضع الشفاء حيثما كان داء !.. وهل من عجب ؟.. فمحمد مدينة العلم ، التى أهداها الله للإنسانية ، وعلىّ بابها الذى يفضى إلى ما تضم من كنوز وذخائر ، بها تستضىء العقول ، فتصفو الأنفس ، وتنقى السرائر !..

هدى من هدى ، ونور من نور كانت الدعوة التى أخذ نفسه يبثها بين قومه ، لا يسكت عنها في شدة حرب ، ولا في هداة سلام .. كانت تتردد مع أنفاسه .. كان يحياها ، ولها كان يعيش .. وفي خلال أعوام عهده القلائل ، لم يكن شىء يعوقه عن تبليغها حيثما استطاع ، بالكلمة المكتوبة ، أو الكلمة المسموعة . في كتبه إلى عماله ورجال دولته . في خطبه إلى الجماهير والجموع . في أحاديثه اليومية مع أهل بيته ، وخاصة رفاقه ، وعامة الناس .. وحين نتقصى منها ما خطه قلمه أو لفظه لسانه ، نراها تلم بكل جوانب الحياة ، وتعرض لكافة نزعات الإنسان .. فهى تقابل الخلجة ، وتتداعى للخفقة ، وتتحرك للفكرة ، وتسرع للحاجة . ثم تبادر بعد هذا التفهم الواعى إلى علاج مواضع الخلل والقصور ..

وعسير بلا ريب ان نحيط في مقام كهذا المقام بما تضمنته هذه الدعوة الهادية لأنها عندئذ الإحاطة التى تضيق دونها الصحائف ، وتعيى الأقلام . ولكننا نصغى لجرسها فإذا هى أصداء لرسالة السماء . ونذرع رقعتها فإذا هى خطة عمل ، وسياسة أداء .. وحين نطوف بما تحوى ، نقع فيها على كل ما يصلح الأمر والشىء ــ الشطر المعنوى والشطر المادى من حياة البشر ، من قواعد واسس هى أولى بأن تكون الدعامة الركينة للمجتمع الإنسانيالفاضل ، الذى تربطه وحدة بلا آفة لانفصال ، وتسوده مساواة بلا تمايز ، وتقوده عدالة بلا ترخص ، وتظله أخوة بلا منّ . فلا أثانية فرد ، ولا طغيان سلطة ، ولا استكبار

طبقة . بل جسد واحد يملك وثاق نفسه ، متوحد المشاعر ، متوافق الحركات ، تعمل أعضاؤه جميعا في تكاتف وتعاون ، وفي تعاطف واتساق ..

ولا يقال في هذا المجال إن الإمام كان مبدعا لما نشر وأذاع على العيون والأسماع . بل هو ناقل من الذكر ، وعارض لما أورده التنزيل .. فما كان ليبتكر ، أو يأتي من لدنه بجديد يضيف إلى ما شرع الله ، أو يغير فيه .. وليس قصاراه ــ ولا قصارى غيره من العقول البشرية ، مهما بلغ شأوها من الإدراك والعلم ، وبلغت قدرتها من الاستشفاف والاستبصار بأمور الدنيا ، وفي تقلبات النفس ــ أن يعدل ، بزيادة أو تكميل ، في ذلك القانون الإلهى ، الذى يحيط بكافة جوانب الحياة ، وينظم السلوك الإنسانى على خير ما يكون التنظيم .. إنما كان له ، في حقيقة الحال ، جهد الدارس الباحث ، الذى يغوص بوعيه المقتدر إلى الأعماق ليستخلص الدر من الأصداف .. فهو يرجع إلى كتاب الله ، ويتابع سنة الرسول ، ويتعمق كليهما ، بذهن ثاقب وبصيرة مستنيرة ، منقبا عن المبادىء التى تتناول ، من قريب أو بعيد ، كل ألوان النشاط البشرى ، في مختلف مواقع العمل وميادينه . حتى إذا نفذ منها إلى هذه الغاية ، تفحص حكمتها بنظرة الاقتناع العقلى لا بنظرة العاطفة التى قد تميل للتسليم .. وقاس أثرها بمقياس الواقع الذى يعيشه ، والشواهد التى أسفرت عنها من قبل تجربة النوع الإنسانى منذ سعى على هذه الأرض لغرض ، والتأم آحاده في دول وشعوب .. ومن خلال المبدأ وحكمته ، والتجربة ونتيجتها ، كان يصل إلى معايير سليمة للعمل ، يصنفها كصنوفه ، ويعرضها واضحة ليتبعها من شاء أن يسير على صراط سوى ، وجادة مستقيمة ، مطابقا سلوكه على ما يرضى ربه ، ويطهر قلبه ، ويصلح شأنه ، ويرفع أمته ، ويعز كرامة الإنسان ، روحا وبدنا ، كما ينبغى أن يكون الإعزاز ..

وتيسيرا على الناس ، وتطويعا لهم ، لم يغب عنه قط ــ وهو يعرض ما يعرض ــ أن يستخرج من حياتهم العامة ، ومن عملهم اليومى ، كل ما يجدر بهم إخضاعه لهذه المعايير . فكل مبدأ لحكمة . وكل حكمة لغاية . وكل غاية بسلوك . وكل سلوك بمعيار .. فلا سبيل إذن لأن

يفوتهم شيء فتكون لهم عليه حجة . ولا أن يشتبه أمر فتتفرق بهم طرق التطبيق ..

بهـذا النهج السليم الميسر ، حـدد ورسم ، وبين وبلغ ، مترجما نصوص الدين إلى مضمون ، ومضمونه إلى أسلوب حياة .. فإذا هو عندئذ قد أحاط بطبيعةالبشر : غريزة وأملا وحاجة . وبطاقةالإنسان: خفقة وخلجة وحركة .. وإذا بدعوته التي وسعت الإنسانية ، قد التقى في رحابها لكل عقدة حل ، ولـكل خطأ تصويب ، ولكل ضيق فرجة ، ولكل علة علاج ..

٨

إلى القمـة التي لا يسـتطيع أن يرقى إلى شأوها ذهن متحرر ، حلقت الدعوة الإسلامية بقيمة الإنسان .. فقد تنادت بوحدة البشرية. ثم كرمت أبناءها . ثم صورت حياتهم في هـذه الدنيا سادة يملكونها ولا تملكهم ، ويصرفون كل ما فيها على ما يحفظ لهم هذه الكرامة أبدا لو ترسموا النهج الذي شقته ولم ينحرفوا عنه ..

ولقد يسر الإمام هذه الدعوة للناس خطة وهدفا ، أسلوبا وغاية ، بالفعل والقول ، بالقدوة الحسنة وضرب الأمثال . فإيمانه الكامل بتلك الوحدة ، هو الذي كان ، في كل آن ، يرهف حسه ، ويشحذ قلمه ، ويحرك لسانه لتنطلق عباراته على جلاء ، تدعو بالدعوة ، وتروج لها ، وتؤكد دائما أن الوحـدة ـ المفترضة والمنشـودة ـ لا شبهة فيهـا ، ولا عائق دونها ، ليس فحسب عن استجابة عقيدية لما شرعه الإسلام ، بل عن إدراك لكنه الطبيعة ، وخضوع لمنطق العقل واستقامة التفكير .. فأينما جالت عين فيما سطر ، وأصغى سمع لما قال ، وأمعن ذهن بالاستقراء والتفهم فيما وراء الحرف والجرس ، بدت له وحدة الإنسانية وهي على شمول ولزوم ، بلا مكان لتمييز فرد ، أو تعالي طبقة ، أو اعتزاء عنصر ، وبغير ترخص أو التواء أو استثناء ..

فالبشر كافة في رحابها سواء وإن تباينوا بالأجناس ، وتفاوتوا بالأحساب ، واختلف آحادهم بالأقدار في نظرة المنصب ، أو المعرفة ، أو المال ، لأنهم كما يقول :

« .. إما أخ في الدين ، وإما نظير في الخلق .. » .

وتلك هي الوحدة الوثيقة التى لا يتطرق إليها انفصام ..

فلو زعم زاعم أن هذا الرأى الذى يسوقه الإمام يجرد الدين من حقه في ترجيح الميزان عند المفاضلة بين إنسان وإنسان ، فإنه إذن زعم متعسف ، يلتوى بالموضوع ليتخطف نتيجة لا تسفر عنها حقيقة الحال ..

فالإسلام لا يهدر المساواة ، وما كان ليهدرها وهو القائم عليها لأنه قائم على الفطرة التى يشترك فيها كافة أبناء آدم ولا يمكن أن تختلف فيهم من واحد لآخر وإن اختلف ـــ دونها ـــ كل ما عداها من خصائص وصفات .. والإسلام إذ يفاضل بين الناس لا يفاضل بالأبشار والألوان، ولا بالأحساب والأنساب ، بل يفاضل بينهم بمعيار ثابت هو العقيدة التي شرعها لهم كافة على سواء ، فيغاير في الجزاء بين مؤمن وكافر ، طائع وعاص ، حسبما يكون قربهم وبعدهم من الله .. بل شرائع الجزاء نفسها التى وضعها ، من عقاب وثواب ، لحساب البشر ، لا تترتب على شخص الفاعل بل على موضوع الفعل ، فتزن لهم جميعهم بقسطاس واحد ، لا يبخس أحدهم ليطفف للآخر ، لأن عدالة الجزاء لا يتأتى أن تتحقق إلا بهذه المساواة ..

صــدقت إذن نظرة الإمام ، وأصابت الحق كل الحق بغير تحيف منها على الإسلام ، وبدون ثغرة فيها لطعن طاعن أو لريبة مرتاب .. وفيم الطعن ؟.. وكيف المراء والارتياب لمن لعله يحاول تلمس سبب للادعاء والتقول ، والمساواة أصلا لم تترتب على الإسلام ، ولم تكن نتيجة له ؟. بل قد كانت ــ قبل تنزل نصوصه ، وبدء دعوة الرسول ــ حقيقة واقعة نشأت في الدنيا بنشأة الإنسان ، ثم جاءت هذه الرسالة السماوية كاشفة عنها ، مذكرة بها ، داعية إلى التزامها وامتثال جادتها بعد أن غمرها على البشر ، وقست عليها قلوبهم ، ومزقتها الأهواء ..

ومن الترســـل الذى لا يحتمله المجال أن يتطرق الحديث إلى كنه

هذه المساواة ، مخططا حدودها ، محددا معالمها ، معددا ما تحتويه من عناصر ومقومات .. فعمومها وشمولها يكفيان الاسترسال ، ويجزيان عن التحليل ، ويغنيان عن التخريج والتأويل ، إذ يكشفان عن حقيقتها جلية بغير حاجة إلى عناء الوصف والتحديد ، وجهد الإحصاء والتعديد، لأنها — وقد صاحبت البشرية منذ بدئها ، مقترنة بالفطرة — تتسع لكافة أبناء النوع الإنساني ، وتطبع حياتهم بطابعها ، فلا تدع حقا من الحقوق يترتب على هذه الحياة « المشتركة » ويحفظ عليهم إنسانيتهم ، إلا سوّت بينهم فيه ..

وحق الحياة من المسلمات الأولية التي لا يمكن أن يختلف عليها ، ولا تقع في نطاق المجادلة والنقاش ، لأنه يمثل الحياة نفسها ، بمعناها الإنساني ، وينطوي على العناصر والمقومات الأساسية لهذه الحياة .. فالحياة هبة الله وهي بهذا حق مقدس للإنسان ، لا يملك انتزاعه غير معطيه ، فلا ينبغي إذن لإنسان آخر أن يحرمه إياه ، أو ينتقص منه ، إلا أن يأذن الله .. ولا يخلق بكل ما يدخل في تكوين هذا الحق ويؤمنه إلا أن يكون مقدسا مثله ، وجديرا بالحماية أن ينال منه جور جائر بالإهدار أو الإنكار ..

ولقد يختلف بعض اختلاف على مكونات حق الحياة تبعا لتطور الأعصر ، أو تنوع البيئات ، أو تفاوت التقدير ، فلا يكاد هذا كله يغير شيئا في الأساسيات والأصول وإن غير ، قليلا أو كثيرا ، في الجزئيات والتفاصيل . وحسبنا هنا أن نذكر — على وجه الإشهاد لا على وجه الإحاطة — أن الإسلام لم يكتف بإقرار هذا الحق ، تعبيرا عن رأيه بسيادة كل فرد على حياته سيادة المالك الذي لا ينازع ، بل ذهب في توطيده وتثبيته ، وفي تحرير الإرادة الإنسانية لتمارسه كما تشاء ، إلى أبعد الحدود . فلقد أباح — وهو الدين الذي نسخ كل الأديان — أن يتدين الإنسان بما يرتضي ويختار من عقائد وإن خالفته ، لأن لكل امرىء أن يحدد بنفسه ، وبوحي ضميره وتفكيره دون سواه ، نوع الصلة التي تربطه بالله ، بلا إكراه أو وصاية عليه ممن عداه من الناس ، كيفما كان وضعهم في المجتمع وكان شأنهم من القوة وبسطة النفوذ ..

هذه هي نظرة الإسلام إلى حق الحياة ..

نظرة منصفة سمحة ، توافق منطق الطبيعة ، وتمضي في التحرر إلى شأوه الذى يقصر عن بلوغه تطلع العقول وطموح الأفكار .. فهى ترسى المساواة بين الناس في انتفاعهم بحق الحياة على أساس الفطرة الواحدة التى لا تختلف من إنسان لإنسان . وهى تطلق لهم حريتهم في ممارسة هـذا الحق إلى المدى الذى قد يأبون عنده اعتناق الدين القيم الذى اعزهم بتقرير هذه المساواة .. فإذا لم يكن في هذه النظرة ما يؤكد « عمومية » هذا الحق ، ثم يضمن « حرية » تطبيقه ، فأى شيء غيرها إذن أقدر على التوكيد والضمان ؟..

بل الحيـاة حق بشرى عام ، مقرر بحكم الطبيعـة ، مكفول بحكم الإسلام . لا سبيل إلى المفاوتة فيه بين أصحابه بالانحياز أو بالتمييز . ولا إلى تعطيله ــ كلا أو جزءا ــ بانتزاعه أو بإهدار جانب من ضماناته أو مقوماته .. فأما ودين الله قد أقر بهذا الحق ، وحرر العمل به وإن على حساب العقيدة ، فالأخلق الأدنى إلى مطابقة نهجه والتزام منحاه ، أن يقر بما ينبنى على حق الحياة من حقوق ، وان يتسع لما دون حرية العقيدة من حريات ، لأن ما يقضي بالكل لا ينكر الفروع ، وما يحرر الصلة بالله لا يقيد الصلة بالناس !.. وليس بخاف رأى الإسلام في تأييـد الحريات العامة والحقوق الأساسـية التى تهيىء للبشر ــ في المعنويات والماديات ــ حياة أبية كريمة ، لهم عليها الولاية . يعيشونها كمشيئتهم ، بالفكر الحر ، والإرادة الطليقة ، في ظلال من الأمان من الخوف ، والحماية من الحاجة ، والوقاية من الاستغلال ..

حق هو الحيـاة ، وحياة هى الحرية ، وضـمان من الله يحيطهما بالسياج المنيع الذى يرد عنهما عادية العبث والطغيان والإرهاب ، ذلك ما شرعه الإسلام ، ودعا إليه ، بالنص والمعنى ، وبالعبارة والروح ..

ومع هـذا فلا نرانا بحاجة إلى أن نعيـذ كل من له عين تبصر ، وأذن تسمع ، وذهن يتدبر أن يستخفه من هذه النظرة الإسلامية إلى حقوق الإنسـان طلاقتها السمحة ، فيجمح به وهمه أو همّه إلى تجريدها من العقل والضـوابط ، ومن الحدود والقيود .. فذاك ما لا تقره بديهة ، وما يأباه منطق الحياة ، لأنه إذن الفوضى التى تراق فيهـا الحقوق وتستباح الحرمات .. ولأنه الانطلاق ليس الجموح .

والتحرر ليس التحلل .. ولأن كل حق بواجب . وكل حرية بالتزام..

وحملة واسعة من الدعوة الهادية شنها الإمام ، بالقدوة الرائدة ، وباالكلمة الناطقة ، وباللفظ المخطوط ، ترويجا لهذا المبدأ العام ، وتبصرة للناس بحقهم فيه ، وحقه عليهم . وبالجدوى التى يفيئها على جوانب حياتهم الإنسانية ما اتصل منها بحاجة الفرد ككائن حى ، وبكرامته كإنسان .. ولم يكن من قبيل التزيد والإسراف اهتمامه البالغ بتوجيهها إلى ذوى النفوذ من أصحاب الرأى ورجال دولته ، في مجالات الفكر والحرب والسياسة وشئون الدنيا والدين . ولا حرصه أن يعوا دقائقها ، ويلزموا حدودها ، في حياتهم الخاصة مع أنفسهم وذويهم ، قبل أن يلزموا بها ، في الحياة العامة ، من تحتهم من الناس.. فهذا هو السلوك الأمثل الذى لا ينبغي للقادة أن يسلكوا سواه ، لأنه السلوك الذى يعبر عن إيمانهم حق الإيمان ، ويستهوى كل من وراءهم أن يقتفوه .. وهو الإيمان الذى لا يطاوله إيمان ، لأنه يرتقى بصاحبه على أنقاض الأثرة والهوى إلى ذروة التجرد ، ويدفع به إلى الأخذ من نفسه ليبذل لغيره وإنه للقادر عندئذ ، بسلطانه على كل من عداه من أبناء مجتمعه ، أن يضع نفعه الذاتى حيثما كان يطيب له أن يفعل لو أنه شاء .. فلا عجب إذن أن يحث الإمام الناس عامة – نصرة للمساواة – على أن يفوها حقها فلا يستذلهم هواهم أن يكيلوا في تطبيقها على أنفسهم بمكيال وعلى الآخرين بمكيال !..

هنا يقول على التعميم :

« أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة من نفسه وأهله وماله .. » .

ثم يخص بدعوته كل ذى نفوذ :

« الزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيثما وقع .. » .

ثم يقرن بين هذا الانتصاف – للناس جميعا ومنهم جميعا على سواء – وبين الانتصاف لله .. وهل من مراء ؟.. فكلاهما حق . وكلاهما من نبع واحد هو الإسلام ، وإذا لم يتفق ، بالمساواة ، سلوك البشر بعضهم إزاء بعض ، ونظراتهم آحادا إلى آحاد ، لم يستقم

أمر الدين . وأحر إذن بسلوكهم تجاه الله أن يتعدد ويختلف ، وبنظراتهم إليه أن تتفرق وتزيغ .. وهل من وراء هذا وذاك غير اعتداء على حق الإنسان هو ظلم ، وغير اجتراء على حق الله هو عصيان ؟..

يقول :

« أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك هوى فيه من رعيتك ، فإنك إلا تفعل تظلم .. » .

نهج أحق بقادة العمل أن يتبعوه إذ هم القدوة للناس ، والطلائع التى يسيرون خلفها في كل موقع إلى نوع الحياة الذى يلائم طبيعة البشر ، ويتفق ونظرة الدين . وما لم يكن سلوك أولئك على هذا الصراط السوى فسلوك كل من وراءهم تبع له على انحراف يفسد به المجتمع لاختلال الصفوف ، وانفراط النظام ..

على القادة ركز الإمام التوجيه ليكونوا : مبشرين برسالة الحياة الحقة كما سنتها الطبيعة ، أمنة على كنهها كما بينه الإسلام ، بعد أن اوشك مفهوم الحياة الميسر ، ومضمون الإسلام البين ، ان يغرقا في سيول هوج ، وتيارات رعناء من الهوى والجهل ، بجسها التأويل المغرض من خلال التلاعب بالعبارات والنصوص ..

ولقد بدا الإمام — لا ريب — خبيرا بنفسية المجتمعات وهو يركز هذا التركيز . فالجماعات مطبوعة دائما على التطلع الى كل ما هو « أعلى » . كلفة دائما بالتلقي عنه ، ثم تأثر خطواته السلوكية ، تشبها به ، واتباعا لنهمها الطبيعى بالمساواة . وليس شيء أقوى على التأثير في سلوكها من نزوعها الغريزى للتقليد ..

وكان القادة ، بطبيعة الحال ، من العمال وذوى الرأى واصحاب السلطة الزمنية في الدولة ، هم مرتقى التطلع الذى تتعالى إليه نظرات الجمهور ، ويحاول سلوكها أن يتسامى إلى سلوكه ، فراح الإمام يرسم لهم اسلوب عمل ، كفيلا إذا امتثلوه أن يصلحوا به ويصلح عملهم ، ثم يتداعى له — بغريزة التقليد والانقياد الجمعى — سلوك الجمهور تداعى الفراش للنور ..

فأى اسلوب ؟..

إنه الأسلوب الذى ينظر إليه من خلال الفطرة الموحدة ، فإذا هو ناضج بها ، موافق لسنة الطبيعة .. ومن خلال الدين ، فإذا هو آخذ عنه ، معبر عن مضمونه .. ومن خلال العلاقات الاجتماعية ، فإذا هو قاموس أخلاق . وهو بشعبه هذه الثلاث : الطبيعية والدينية والاجتماعية نابع من المساواة ، مقيم لأركانها ، مصدق لكل ما يفصح عن حقيقة كنهها كنواة وحيدة لالتقاء البشر كافة ــ على تباين الأوضاع والطبقات ، واختلاف الأجناس والعقائد ــ في وحدة وثيقة بلا انفصام.

ويعبر الإمام في يسر عن المساواة المنشودة ، فيحدد الأثرة آفة لها تعرقل نموها ، وتذهب بريحها ، وتقضى على الأمل في قيام المجتمع البشرى المتكامل ، لأن الأنانية او حب الذات تجمد إحساس المرء بكل من عداه ، فلا يرى إلا نفسه ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يقيس الأمور إلا بمقياس منفعته الخاصة وإن أهدر بهذا منافع سواه ..

يقول الإمام في كتاب لبعض عماله :

« إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة .. » .

والناس كلهم ، بطبيعة الحال ، سواء في حقوق الحياة ..

ثم لا يفوته ما تنطوى عليه النفس البشرية من نزوع إلى التفوق ، كثيرا ما يشطح بصاحب أى منصب عام إلى التسلط ، تباهيا بقدره ، وإظهارا لقدرته ..

إلى من قد تحدثه نفسه بالاندفاع إلى هذا المنزلق ، يكتب الإمام في وصاياه ، محذرا الاغترار بالنفوذ :

« لا تقولن إنى مؤمر آمر فأطاع ، فإن ذلك إدغال فيالقلب ، ومنهكة للدين .. »

فليست السلطة تسلطا وطغيانا ، ولكنها وظيفة لصون الحقوق ، ولا طاعة لها إلا في هذا النطاق ..

بل كاد يوحى في كتاباته أن المتسلط على الناس قرين المشرك بالله ،

لأن سلوك أمثال هـذا كسلوك أمثال ذاك ، ينم عما قر في روعهم من شعورهم الغلاب بانطلاق مشيئتهم انطلاقا لا تكفهم عنه قوة ، فلا يردهم شيء عن السدور في تجبرهم بالقول وبالفعل على من دونهم مكانة ، بلا تعقيب معقب أو محاسبة حسيب .. أو قد أنساهم الشيطان أن لله وحده التفرد بانطلاق المشيئة ، بغير معقب على كلماته ، ولا ناقض لأحكامه ؟.. أم عساهم استمرأوا أن يشاركوا الله سلطانه على مصاير عباده استهانة بهم وجحودا له ؟..

مخافة الانخراط في سلك هذا النوع الذى يضله اغتراره ، ويعميه استكباره ، يبعث الإمام ، محذرا ، إلى بعض عماله :

« إياك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته !.. » .

ثم يجاهر بدهشته أن يتعالى الإنسان صلفا وتيها بنفسه وليس فيه ما يدفع للاستعلاء ، أو يبرر الخيلاء :

« عجبت للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة ، ويكون غدا جيفة !.. » .

لكنه إذ يعجب ويحذر ، يبصر وينور ، لأن ما لا يغيب عن نظرته الثاقبة وبصيرته المستنيرة قد يغيب عن إدراك سواه . فإذا هو لا يكتفى بأن يدع الناس وهـذا السلوك الذى دلهم على انحرافه ، ويبين لهم عتوه وغلوه إذ يستخفهم إلى التسلط ، بغير حق ، على بشر مثلهم هم لهم انداد نظراء . بل إنه ليقرن وصف زلتهم الضالة بما لا يملى لها في التمكن ، وما يكف شرتها عن الاستشراء لو القوا السمع والفؤاد لقوله منصفين .. وهل تجبرهم غير ضلال ؟.. وهل زهوهم إلا علة تفترس النفس ، تواتها كلفهم المنهوم بالاعتداد ، وإقبالهم المسف على الاستكثار من الثقة بالذات إلى حد التخمة التى تورث الغرور ؟.. وهل يغذى الاغترار وينمى ضراوته شيء كثناء مسرف خداع هو في حقيقته الوسيلة الوحيدة لكل عاجز وخائف ومنافق إلى حماية نفسه من اى طاغية متجبر او استجلاب رضاه ؟..

لكم تفيض الحياة اليومية بصور لهذا الثناء المضل الضال ، تمر تحت الأعين فلا تكاد تقف عند إحداها نظرة عجب ـ دع الاستهجان !ـ ربما ، لفرط تعددها ، وتوالى مرورها ، قد اعتادها الناس ، وغدت

في حياتهم شيئا مألوفا لا يستحق أن يثير الفضول !.. فكأنما التمويه قطعة من طبيعة الإنسان !.. وكأنما النفاق بضعة من عمله !.. وكأنما الإطراء المنحرف يشيع في الجو فلا يملك احد من البشر إلا ان يتنفسه — رضي أو كره — ويتمثله ، ليعيش عليه ، تيها وعجبا ، او تحاميا وخشية !..

لكن الإمام ينزه إنسانية البشر ان يمتهنها هذا الضعف الخلقي ، فيرسم لنا صورة حية يتقابل على ديباجتها الرياء والتعفف تقابل الظلال والاضواء .. فيها الرياء يستذل صاحبه حتى ليهوى إلى ما تحت الأقدام متمسحا بها ، كأنما قصارى طموحه ان يلعق التراب، فإذا هو عندئذ ليس بإنسان ، بل الهوان في هيئة إنسان !.. وفيها التعفف يرفع صاحبه محلقا به إلى ما فوق شهوة النفس ، فإذا هو الأبي القوي على الإغراء والإغواء ، الذي يكرم نفسه ان تستمرىء الصلف او تلوذ بالهوان فيكرم فيها نوع الإنسان ..

صورة من سلوك البشر في كل مجتمع وكل زمان ، ينتزعها الإمام من واقع حياتهم اليومية ليضعها — بغلوائها وتدليها — في المسامع والأبصار مثلا نابضا لضعف النفس : بالغرور كيف يكون ، وبالتذلل كيف يكون .. ثم يعتصر دلالتها ، ويستخرج حكمتها فإذا هي الدرس الذي يهذب النفوس ، ويروض الطبائع . والدعوة العملية التي تؤكد للناس ان الحياة ليست بحياة إن لم يعيشوها جميعهم ، حاكما ومحكوما ، كبيرا وصغيرا ، وهم سواء ، كرماء أباة .. فما الثناء برياء ، ولا الطاعة بتذلل ، ولا الولاء استخذاء .. وما القوة بتجبر ، ولا التواضع بضعف ، ولا السلطة خيلاء .

وهذه هي الصورة الناطقة بكل ما فيها .. بما يعرض للعين من أخلاط الالوان وعتمة الظلام وإشراق الاضواء . وبما تلقف الأذن من جرس النبرات ووقع الهمسات وخفق الإيماء :

رجل سولت له نفسه ان ينفذ إلى الرضا والحظوة ، او إلى الامان والسلامة من اقصر طريق شقه البشر ، ومن اوسع باب فتحوه والفوا ولوجه ، طوال تاريخهم على وجه الدنيا ، إلى هذا المأرب او ذاك ، فلا يتردد ان يخف — وهو واهم او عالم — إلى الإقبال على امير المؤمنين،

متمسحا به كالهرة كمألوف عادة المحكومين مع الحكام ، مشيدا بقدره ، معددا مناقبه وشيمه ، متغنيا بمكارمه وسجاياه .. إنه ليمدح فيطنب ، ويثنى فيغدق ، ويطرى فيفيض .. حتى إذا بلغ شأو حديثه، وأفرغ ما في جعبته من بضاعة بيانه المنمق الأخاذ ، ثم حسب انه استحق الجزاء الذى تطيب به نفسه ، فجأته من الإمام نبرة قاطعة حادة ، جمعت اللوم إلى الإنكار ، والرثاء مع الازدراء ..

كان الجزاء الذى تلقاه :

« أنا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك !.. » .

وعندئذ تبعثرت قرابين الملق ، وتناثرت آلهة الاغترار ، حطاما تحت الأقدام !..

حكمة وقدوة ..

حكمة تؤكد إيمانا بمبدأ ، وقدوة تجسد هذا الإيمان ، تتلازمان .

فليس بالدعوة وحدها يعيش مبدأ . وليس بالمبدأ وحده تصلح حياة .. وإنما لا بد من سلوك جاد يعبر عن القول بالعمل ، ويجسد المنطوق في تطبيق . وما من احد هو أولى من الدعاة الرعاة بهذا السلوك القوال الفعال الذى يغرى من وراءهم بالتزامه لأنه يروج للمبدأ ، ويثبت أركانه ، ويجعل منه سياسة عامة للدولة وأسلوب حياة يعيشه أبناؤها وليس مجرد إيمان أخرس تكنه الأفئدة ، أو لفظ أجوف تهدر به الشفاه !..

ولا يغفل الإمام عن ترديد خلاصة هذه التجربة على من بيدهم مقاود الأمور من رجاله في الولايات والأقاليم وفي مراكز السلطة اينما كان لدولته سلطان ، لأنهم أحق الناس في مجتمعاتهم بإلزام أنفسهم امتثال السياسة المقررة التى شرعها الدين أسسا ومبادىء أو فصلتها الدولة فروعا واجزاء . وكم أوضح لهم . وكم أمر أن يتجنبوا الانزلاق على النفوذ إلى التجبر ، وعلى الثناء إلى الاغترار ، وعلى كليهما معا إلى طغيان الفردية التى لا تعيش إلا على دم الحريات !..

وها هو ذا لا يقتصر فيما يوصى به عماله على تزهيدهم في تقبل

الإطراء . بل يحاول أن يحاجز بينهم وبينه بأن يسد عليه سبيل التسلل إلى نفوسهم من خلال طائفة من المشيرين هم أخلق بأن يفتنّوا في إرجائه من ألف باب وباب !..

تلك طائفة الخاصة من البطانة والأعوان ، الذين يعيشون عادة على زهو الحاكم كما تعيش الديدان على جيفة ، ويبنون حوله بآرائهم وأجسادهم سورا منيعا من التمويه ، فيه يسمع بأسماعهم ، ويرى بأعينهم ، ويفكر بعقولهم ، وتطيب نفسه المخدوعة بحياة هي الوهم ، بعيدا عن الحقائق ، معزولا عن الناس ..

من أولئك يحمي الإمام كل عامل من عماله فيدعوه الا ينقاد لهواه عند اختيار مشيريه ..

يقول :

« استعملهم اختبارا ، ولا تولهم محاباة .. » .

ولا يكتفي بتزهيد الولاة في الثناء المسوق من قبل هؤلاء ، بل يحثهم أيضا على تهجينه لرعاياهم من عامة أهل الإقليم ، ومكافحته في سلوكهم كما تكافح الموبقات !.. فيكتب في إحدى رسائله لبعض عماله يأمره أن يرد من قبله من الناس عن إطرائه لكيلا يفترسه الغرور :

« .. ورضهم على ألا يطروك . فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو ، وتدني إلى الغرة .. » .

بل يأخذه بالإصغاء للصرحاء ، الذين لا يموهون ولا ينافقون ، وبتقديمهم في مشورته ومجلسه على من عداهم ، وإن ضاقت عادة بالنقد صدور الحكام :

« .. وليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق !.. » .

ولا مراء !..

فالثناء في أغلب الأحايين — إن لم يكن على الدوام ! — وسيلة لإخفاء رذيلة أو لتضخيم فضيلة ، تنتهجها النفوس الهشة جنوحا من الرذائل إلى مداهنة المرذول أو استجلابا لرضا الفاضل على المفضول . فهو

إذن مركب هوى ، وليس بأسلوب صدق لإبداء ولاء أو تعبير عن تقدير . ام لا ، وإنه لمن ضعيف لقوى . من صاحب حاجة لمالك امره . من حاكم لمحكوم ؟.. ام يستطيع ، وهو المرفوع ممن هو ادنى إلى من هو أعلى منه ، ان ينطق بالحق الخالص ، مترجما عن حقيقة الأوضاع ، او مفصحا عن مشاعر مزجيه ؟.. ام أخلق به وأليق أن يجيء كتلة من النفاق والزيف والتدليس ؟..

احرى به ، في مثل هذا الموقع ، ان يحق الباطل ، ويبطل الحق ، لأنه لن يكون عندئذ إلا أداة نفع لصاحبه أو مطيته إلى نجاة .. فإذا دعا الإمام رجال دولته العاملين من لدنه على الناس إلى العدول عن الإصغاء للإطراء إلى الإصغاء للمصارحة فهي الدعوة الكفيلة بأن تكف عادية الخيلاء وتحسر مد الطغيان ، لأنها تصد الرياء فتقلم أظفار الاغترار .. وهي الدعوة العاملة على تكريم العقل وإقامة الشورى وتوطيد حرية الراى لأنها تفسح للنقد فتهدر استبداد الفردية ، وتحفظ للشعب المحكوم حقه في مناقشة الحكام ...وهي ، بعد هذا أو قبله ، الدعوة التي تتصدى للانحراف بنوعيه : المتهاوى المتخاذل ، والمتشامخ الطاغى ، إذ تحارب الاستكبار والإرهاب كما تحارب الجبن والنفاق ، فترسم للدولة سياسة عمل ، وللأمة خطة اخلاق ..

٩

بغير مغالاة ، تكاد وصايا أمير المؤمنين واوامره الى عماله في الأقاليم ، تمثل لنا تلك الخطة المتكاملة التي يحدد بها هدى الإسلام ما ينبغي أن تكون عليه سيرة المتبوع بين الاتباع ، واليا من قبل السلطة الشرعية الحاكمة ، او امرؤا هيأه وضعه الاجتماعي لقيادة الناس في محيطه تجاوبا مع العرف والتقاليد . فهي الخطة الشاملة العامة التي يسعها أن تستوعب في نطاقها كل راع مسئول من ذي رأي او سلطان بين أهله وذويه أو بين غيرهم ممن عسى أن يتداعوا اليه ، بحكم الصلات الاجتماعية أو بحكم الولاء السياسي .. وهي الخطة المحكمة التي تبين بجلاء ما يجدر بكل انسان أن يمتثله في حدود ما اتيح له من نفوذ جل أو هان ثم لا تترك ثغرة للترخص والاستثناء ولا للجموح والغلواء .. وهي بهذا خطة السلوك « الخلقي » المقبول الذي تستقيم به العلاقات الإنسانية في مجتمع العشيرة كما في مجتمع الأسرة ، وفي حيز الدولة كما في حيز الإقليم على السواء دون سبيل للمفاوتة في معاملة الناس بالإيثار او بالإجحاف .. بل هي ايضا السلوك « الطبيعي » العادي الذي لا بديل لأي جماعة بشرية عنه في سياسة الأمور وقيادة الأفراد والجماهير ، لأنه يوافق طبيعة البشر اجمعين حكاما ومحكومين على اختلاف الزمان والمكان ، وتنضح به الاخوة الآدمية التي تربطهم قبل أن تنضح به صولة الحكم وسطوة السلطان ، ويتداعى للفطرة الأصيلة فيهم بغير عناء او اعتساف ..

نهج طبيعي عادي ، ومسلك خلقي سوى دعت اليه وصايا أمير المؤمنين ، واجمل رسمه بأوجز وصف وأدناه في حديث له ..

فقد قال :

« .. .. واحذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكره لعامة المسلمين .. واحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحيى منه في العلانية .. واحذر كل عمل اذا سئل عنه صاحبه انكره واعتذر منه .. .. »

وبهذه الكلمات خط المبدأ ثم حدد الأسلوب .

فأما المبدأ فهو أن تكبح النفس أن تستخفها الأثرة لإشباع نزواتها أو تغرها القدرة لتحقيق منافعها الخاصة ، انزلاقا على الهوى أو جنوحا مع الخيلاء ..

وأما الأسلوب فهو أن يوجه عمل الفرد إلى الصالح العام ، وإن أضر هذا التوجيه بالمآرب الذاتية ، أو كان الفرد صاحب السلطة العليا التي تقود ..

ومن هذا وذاك ينبثق السلوك الأمثل الذى ينبغى أن يكون . والذى يستجيب للرغبة العامة فيصلح الجماعة وترضيه . والذى يعز صاحبه ويسمو به أن يحس الهوان في دخيلته أو يحسه له الناس. فما يجنبه مثل هذا الشعور بالهوان أن يمتنع عن سخطهم ببأسه وجبروته . ولا باستهانته بشأنهم . ولا بالتغافل عما يكنون . وإنما يجنبه إياه أن يتحامى الوقوع فيما لعلهم ينكرونه عليه ويصبح به في مجال تثريبهم في العلن أو الخفاء ، وبالتصريح أو الإيماء .. فليس أكرم للمرء من أن يكون وحده الرقيب على فعله وقوله . وليس أليق به كإنسان من أن يصدر في تصرفه عن شعور عميق بإنسانية مشتركة تجمع بينه وبين من حوله وإن تفاوتوا في الأقدار . وليس أجدى عليه وعلى مجتمعه من انطلاقهم جميعا من وحدة الشعور إلى وحدة الفكر ، ومن وحدة الفكر إلى وحدة التعبير ، ومن وحدة التعبير إلى وحدة الغاية التى تلتقى عندها كافة الرغبات .

بغير هذا لا يمكن لكيان أى مجتمع من المجتمعات أن يتماسك لأنه عندئذ يفتقر إلى اتفاق كلمة أبنائه فإذا هم شيع وفلول تختلف وتتنازع، قد تضاربت ميولهم ، وتبعثرت جهودهم ، وتنافرت أعمالهم ، واضطربت بهم خطاهم في سيرها على أيما طريق قد يؤدى إلى نفع عام .. فما بإرادة فرد وحده يستطاع أن تساق الشعوب ما بلغ ذلك الفرد من سطوة النفوذ . ولا بمشيئة طبقة فيها من دون الطبقات يساغ أن تبرم الأمور ما بلغت تلكم الطبقة من بسطة الجاه .. إنما التنسيق بين كافة الإرادات والمشيئات ، والتوفيق بين مختلف الميول والاتجاهات هو الذى يدعم وحدة الأمة ، ويوطد كيانها ، ويصلح شأنها

بداية وغاية . فلا صلاح لأمة بصلاح بضعة فيها دون بضعة ، ولا بإيثار طائفة على طائفة ، لأن « الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض » — كما يقول الإمام .

تلك سياسة ثابتة كالجبل ، عادلة كالميزان ، خليقة بأن يرعاها كل محكوم كما يرعاها كل حاكم سواء بسواء لأنها تحقق التوازن في المجتمعات ، وتمنع بناءها أن يميد ..

فما هو إذن مقياس تطبيقها بلا انحراف ؟..

وما هو ضمان « الموازنة » فيما بين الأفراد ، وفيما بين الطبقات ، وفيما بين أولئك وهؤلاء ؟..

بديهية لا تختلف عليها الآراء أن يكون ذلك المقياس شاملا يتسع لكل قياس ، حاضرا ميسورا لكل الناس .

وإنه لكذلك !

فأن تضع نفسك موضع سواك ، قبل أن تصدر عن فعل أو قول ، فترضى لها ما ترضى له ، وتكره له ما تكره لها ، لهو المقياس الذى لا يبعد عن أحد لأنه يقع في متناول الجميع . وهو لا ريب المقياس الدقيق الذى يكفل استقامة التطبيق ، ولا مجال معه للمفاوتة في التقدير مهما تغيرت الأحوال واختلف الأشخاص .

إنك أدنى إلى أن تعيش بعيدا عن الحقائق ، معزولا عن الناس بغير هذا المقياس لأنك عندئذ لا تكابد ما يكابد سواك . ولكنك به تعيش في إهابهم !.. ترى بعين كل منهم . تسمع بأذنه . وتشعر شعوره . تفكر تفكيره حتى لتصبح أنت في قرارتك كأنك هو ، ويصبح هو في نظرتك كأنه أنت !. ولا شيء أوضح من هذا نهجا لاستقامة تقدير كل امرىء للأمور ، ولا أقوم سبيلا لسلامة تصرفه وسلوكه . ثم لا شيء بعد أصدق منه تعبيرا عن الإحساس الجمعى ، ولا أقوى ضمانا لتحقيق الإرادة العامة .

ولا يساغ هنا أن يقال بإقبال الناس كافة على هذا المقياس ، أو بعملهم به على اطراد وعن إجماع ، في كل الأحوال .. فلقد يحدث

ـ ولا عجب ـ أن يغفل عنه فريق ، كما قد يحدث ايضا أن يعبث به فريق .. فليس دائما كل أسلوب ميسور بمقبول . وليس دائما كل طريق معبد بمطروق . وليست الحياة الدنيوية بقالب يصب فيه البشر فإذا هم نمط واحد ، على اتساق وتماثل بلا تناقض وتضاد . ذلك لان الإجماع خيال . والاطراد إطلاق ، والإطلاق ـ بطبيعة الحال ، ومع اختلاف الطبائع البشرية ، وتشعب النزوات ، وتفاوت الوعى بين الأفراد ـ ضرب من المحال . والأولى إذن في هذا الضوء ان يقال إنه المقياس الذى إن فاته أن يقيس اتجاه الإجماع فلن يفوته أن يقيس الاتجاه الغالب الذى يعبر في اى تجمع إنسانى عن رأى الكثرة من اهله ، ويصلح على هذا الأساس ، أن يكون نقطة بداية لانطلاق الجهود إلى هدف عام « نسبى » ، إن لم تتحقق عنده إرادة الكافة فأحرى به أن يحقق إرادة جمهور الناس .

وإذن فإرادة هذا الجمهور اجدر بتقديمها على ما عداها من إرادات غيره من ابناء الأمة ، ما دام يمثل فيها ـ بمجموعه العددى ـ ما يوشك أن يقارب الإجماع ، ويفتقر ـ بوضعه الاجتماعى ـ إلى النصيب الأوفي من الخير العام .

هذه هى النظرة الواجبة إلى وظيفة الحكم كيف تكون ، وإلى تبعة الدولة عند وضع الخطط ورسم الأهداف . وهى النظرة التى تعلن دائما عن نفسها في طوايا وصايا الإمام واوامره ، ويقرر بها ضرورة امتثال الإرادة الشعبية الغالبة وتوجيه العمل القومى ، سياسة ونتيجة ، إلى نفع العامة ـ إن لم يكن عدلا فإيثارا ـ لو عسر توجيه هذا العمل لنفعهم ونفع بقية من عداهم من الرعية على استواء . فإذا أوثروا ها هنا فإنه الإيثار الذى يعدل الحق ويكافىء الإنصاف ، تعويضا لهم عن الحرمان والتخلف ، ولو بدت فيه مسحة عطف او اثارة انحياز .. وإذا اختصوا دون غيرهم بمصلحة فإنه الاختصاص الذى يرقى بهم درجة في سلم المساواة ولا ينزل بسواهم من الطبقات .. وإذا استكثر لهم من الخير العام فذاك ما تبرره كثرتهم ، إذ هم قاعدة المجتمع الكبرى ، وأساس بنائه ، وعصب كفاحه في كافة المجالات ، وما من فئة ـ بهذا المعيار ـ هى أحق منهم باجتناء القسط الأوفر

من ثمرات العمـــل جزاء وفاقا لما يحملون من أعبـــاء ، وثمنا عادلا لما يبذلون من جهود ..

عن دورهم في حياة أمتهم يقول امير المؤمنين :

« .. إنما عماد الدين ، وجماع المسلمين . والعدة للأعداء : العامة من الأمة .. » .

وعن دور الدولة في رعايتهم ، وكفالة حقوقهم . يذهب إلى المدى الذى لا يبالى عنـده سخط من عداهم . لأنه عندئذ السخط المنتظر المغفور ، الذى لا يلائم ضرورات الواقع ، ويكاد لا يخل بعدالة الميزان..

يقول :

« .. سخط العامة يجحف برضا الخاصة . وإن سخط الخاصة يغتفر برضا العامة .. » .

فهنا احتفال ، وهناك استهانة .. سخط المتكفف في كفة ، وسخط المكتفى في كفة ، ولا مندوحة ــ عند المفاضلة ــ عن درء اولهما بالآخر لانه شتان بين ضاو محروم يصلحه النزر ، ومترف منهوم تفسده التخمة !..

ولم يكن رأيه هذا بقول الذى يسوق العبارات عشواء فيجانب بها حدود الاكتراث استهانة أو غفلة . بل هو حديث المحيط بالحقائق، المتمرس بالتجربة ، الخبير بالنفوس الذى يبنى كلامه على شـــواهد عملية ، وأدلة يقينية من صميم حياة الناس يوشك الا ينفذ إليهـــا البطلان ..

بخلاصة ما خبر واستيقن ؛ يتحدث فيقول :

« ليس احد من الرعية اثقل على الوالى معونة في الرخاء ، واقل معونة له في البلاء ، واكره للإنصاف ، واسأل بالالحاف ، واقل شكرا عند الإعطاء ، وابطأ عذرا عند المنع ، واضعف صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة !.. » .

ولا مراء !..

فتلك ــ عادة ــ خلائق المترفين السراة ..

ولا يغفل الإمام ، بعد هذا ، شأن الفرد ، لأنه نواة جماعات الأمة ولا يصلح الدوح إن لم تصلح البذور !.. ومن هنا فإنه يرى لكافة المواطنين حقوقا على الدولة ، ليس لها أن تتحلل منها ، أو تبخل بها وإن تفاوتت قدرا أو نوعا بحسب طبيعة الأوضاع الاجتماعية التي ينتسب إليها الأفراد . ثم يرى ، ضمانا لهذا الصلاح ، أن تعاير الحقوق بالحاجات ، فيقول :

« .. لكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه .. » .

وقد ذهب أمير المؤمنين في تقرير هذا الحق أبعد المذاهب ، حتى لقد جعل الوفاء به أول ما ينبغي على الحاكم وإن جاء هذا الوفاء على حساب المال العام ، أو اجتزأ منه بنصيب . فلا خير قط في سياسة قصاراها أن تكدس المال في الخزائن لتستند به هيبة الحكم أو تعز السلطان إن لم تسخره وسيلة للرعاية الاجتماعية لمن يفتقرون لهذه الرعاية ، لأنها عندئذ السياسة الخليقة بأن تفقد الطبقات الدنيا والمحرومة في المجتمع شعورها بالانتماء للدولة ، وتنزل بولائهم لها إلى أسفل درك إن لم تدفعهم دفعا إلى التنكر للنظام العام ، وتزخر نفوسهم بالثورة عليه .. ولا بديل في أمة تنوعت شعوبها ، وتعددت وحداتها السياسية ، عن عناية كل عامل على أية وحدة بأن يوفر للمعدمين والمحتاجين فيها ما يمسك عليهم مستوى كريما ، أو مقبولا ، من المعيشة ، من دخلها قبل أن يوجهه إلى حاضرة الدولة .. فأهل الأرض ، لا ريب ، أولى قبل غيرهم بما تغله . ونجاح الوالي لا يقاس باقتداره على جمع المال . وليس بمجهول أنه قد أثر عن رسول الله قوله إنما بعث للهداية ولم يبعث للجباية ..

في هذا المقام يقول الإمام :

« .. يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها . وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على جمع المال .. » .

ويرسم سياسة للجباية لا تهدر كرامة الإنسان ، ولا تعضل به ، وإن أعضلت بالدولة ، وحرمتها بعض ما يستحق لها على الرعية من الأموال .

يامر اهل الخراج :

« .. لا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ، ولا صيف ، ولا دابة يعتملون عليها .. » .

فأما ذوو الحاجة من أبناء الإقليم ، فقد آثرهم بمال إقليمهم إلا ان تفضل فضلة تنفع أبناء سواه ..

يكتب إلى عامله على مكة قثم بن عباس في هذا الإيثار ، فيقول :

« انظر ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوى العيال والمجاعة تصيب به مواضع الفاقة والخلات .. وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا .. » .

بل يحتم على الدولة أن تتولى ما نعبر عنه في لغة اليوم بالرعاية الطبية ، وإعانة التعطل ، لكل مريض ، وكل متعطل أعوزته الوسيلة إلى عمل يصلح امره أو اعجزه عنه سبب من الاسباب .. فيبعث إلى ولاته :

« الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، والمساكين والمحتاجين واهل البؤس والزمنى .. اجعل لهم قسما من بيت المال ، وقسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد .. فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى .. » .

كافلا بهذا الرعاية للجميع ، في كل ركن من أركان الدولة ، بغير تمييز ولا استثناء ..

فإذا بلغ بأوامره إلى الحكام هذا المبلغ ، بادر فدعا كل قادر من أبناء الامة إلى التزام نفس السياسة تجاه ذوى الحاجات ، من ماله الخاص ، جودا بما يطيق مهما قل ، لأنه يعينهم على الحياة :

« .. لا تستح من إعطاء القليل ، فإن الحرمان أقل منه !.. » .

وكما سبقت وصايا الإمام — فيما نطقت به عن تعاليم الإسلام — كافة الشرائع والقوانين الوضعية إلى إلزام الدولة رعاية الفرد بتقرير حقه عليها في العمل والعلاج والمعونات المالية وكل ما يضمن له مستوى معيشيا يليق به كانسان ، فقد سبقتها ايضا الى حماية الفرد من

استغلال سواه الاستغلال الذى تشق به عليه الحياة . وكفى ان نذكر هنا ــ كمثال ــ انها حرمت الأحتكار ، وفرضت رقابة على أسعار السلع لكيلا تكون وسيلة بعض الجشعين من التجار الى الإثراء الفاحش عن طريق التحكم في الأسواق ..

فلقد كان من أوامر الإمام الى رجاله :

« .. فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله منع منه .. وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع .. .. »

تلك وغيرها من وصايا الإمام وآرائه . خطوط في السياسة العلوية ، ومعالم على طريقها ، وضعها صاحبها لتكون مشاعل هداية ونور للولاة والعمال في سياسة الناس والامور ، ومفازة أمن وسلامة لابناء شعبه الى الحياة الكريمة .. فإن فيها من العناصر الواضحة ، ومن المفازى المستسرة ما يبدى لنا خطة وثيقة الكيان ، راسخة البنيان ، تؤكد كيف يمكن للسلوك البشرى أن يوافق شريعة الدين بلا اعتساف ، ويلائم طبيعة البشر دون إرهاق ، ليرقى بالأمة كلها ، حاكمين ومحكومين ، الى حيثما تهفو الأنفس النقية الطموح والقلوب السليمة الذكيــة ، وتترامى فطنة العقول الواعيــة ، إلى حياة من الصفاء والســـلام ، كل فرد فيها قدوة ، وكل جماعة فيها إخوة ، بلا تطاول بالأحساب والأنساب ، أو امتياز بالألوان والأبشـــار ، أو اغترار بالمناصب والأقدار .. بل أسرة واحدة . يعمل الفرد في ظلها للجماعة لانه يعيش بها ، وتعمل الجماعة للفرد كأنما تعيش فيــه .

غير أنها خطة ــ كغيرها من السياسات والمبادىء ــ خليقة بأن تتجمد في الألفاظ ، ويجف ماء الحياة فيها قبل ان يجف بها المداد على الصحائف ، ما لم تجد رعاة ودعاة ينحلونها القدرة على الحركة ، فيعيشونها عملا مثمرا وممارسة حية ، ولا يكتفون برفعها شعارات ..

فهل هكذا كان سلوك المسلمين عامة ، في تلك الأيام ، وخطة الإمام هي لب الإسلام ، والأمة كلها ، بلسان محمد ، رعاة ؟..

لقد قال أمير المؤمنين وهو يحدد لقادة الرأى والعمل والسياسة حينذاك دورهم في هذا المجال :

« من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه .. .. »

لكنهم عامة ــ أولئك القادة في مختلف انحاء الدولة ــ لم يستجيبوا لهذه الدعوة الهادية ، سواء منهم من كان معه أو كان عليه .. الكثرة التى صمت عن الاصغاء تنكرت للأداء . والقلة التى لعلها أصغت للدعوة اكتفى أغلبها برفعها شعارات . ومن ورائهم جميعا جمهور الشعب ، يسيرون ، كما يسار بقطيع ، إلى دروب الهوى والنفع الذاتى التى شقتها لهم دنيا خداعة ، تخايلهم بمطامع وشهوات ، ليستدبروا طريق الحياة الحقة التى يلتئم فيها شمل البشرية ، ويعز الإنسان كإنسان !

الفصل الرابع

١

عندما سمع الإمام بفرار مصقلة ، زاحم الأسى في وجهه سمات الغضب ، اسفا على غلبة الوحل في طبيعة البشر !.. فما زال ضعفهم يشدهم الى الأرض وإن بدوا كأنما يحلقون في السماء . وما زال الادعاء لعبتهم الأثيرة . وما زالت النفوس غثة وان تسربلت بكبرياء ..

إن خلائق كثرتهم لأهون من أن توزن بمثقال . وإن شرفهم لأرخص من أن يثمن بدرهم . وإن كرامتهم لغشاء وطلاء .. هيئة ضخمة تهول ، وملمس ناعم يبهر ، ثم لا شيء بعد هذا غير خواء وفراغ ، كأنما القيم الخلقية التى يعلنونها ويظهرون ولاءهم لها مجرد كلمات رنانة ، قصارى همهم منها أن تمتلىء بها الأفواه وتنتفخ الأشداق !..

ومصقلة مثال !..

واعرب الإمام عن أسفه :

« قبح الله مصقلة !.. فعل فعل السادة ، وفر فرار العبيد !.. »

فقد فر الرجل ، وقبلته الشام ، ليلقى لدى معاوية ما يلقاه كل آبق عليل الضمير ، آده أن يستمسك بما أخذ به نفسه من مبادىء ، وتعاهد عليه من ذمام .. باع دينه لدنياه . خلع الوفاء وارتدى الخيانة ، ومضى شوطه في الطريق الذى سبقه اليه كل ناكث خوان ، لينعم هنالك في وجار العاهل الأموى بجاه ما هو بجاه إلا أن نكون الاعتداء على حق الله ، والهوان على مكارم الاخلاق هو النجاه !.

ولم تكن حال مصقلة هذه إلا حلقة في سلسلة طويلة من سلوك طائفة جمة من الامة ، ذلك العهد ، قد آثروا الفرار بأنفسهم من

مشقة الثبات على الحق ، والصبر على مرارة الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الدين ، الى حياة من الدعة والرغد يشترونها بانتقاضهم على الإمام . فهو عندئذ نمط شائع من الناس الذين بهرهم اقبال الدنيا ، فأكبوا عليها ، ينتهبون عرضها ونشبها ولو من حرام . وهو أيضا نمط من الخاصة تقدموا الصفوف قادة وعمالا في دولة على ، ليعبروا على ما اظهروا من ولائهم له ، وكفاحهم لنصرته ، الى ما يشتهون من مغانم ، فلما أن استطال امر هذا الكفاح ، تعجلوا اجتناء الثمرة المشتهاة التى رأوا صاحبهم يحاجز بينها وبينهم ان يقطفوها بغير حقها ، فاتخذوا سبيلهم الى اجتنائها صاحب الشام ..

وتفصح قصة مصقلة بن هبيرة الشيبانى ، كما لم تفصح أغرب القصص ، عن اضطراب المعايير الخلقية الاضطراب الذى تجتمع فيه نقائض الشرف والخسة ، الإباء والهوان ، الخطأ والصواب ، ثم تقوم — في رأى صاحبها — بميزان المعادلة والحساب كأنها كلها شرف وإباء وصواب !..

فالرجل يمر به ، وهو عامل لعلى على اردشير خرة ، من كور فارس ، أسارى نصارى بنى ناجية ، فيبدو كمن يصدر عن خلال كريمة اصيلة فيه .. عن الشفقة والرحمة حين يراهم وتأخذه الرقة على ما هم فيه من بلاء . وعن المروءة والنجدة حين يستغيثونه أن يكف عنهم الأسر ..

ويبادر على الأثر فيشتريهم بخمسمائة الف درهم ، دينا عليه إلى اجل ، ويعتقهم من ذل الاسترقاق ، فإذا هو يبلغ بصنيعه هذا قمة الشرف الذى لا يكاد يرقى لشأوه ثناء .. ثم يمطل بدينه ، فلا يؤدى الفدية التى افتدى بها أسراه الى بيت المال وهو المؤتمن عليه ، ولا يرد منه إلا بعضه بعد ان يلحف عليه بالسؤال ، بل يتحلل من تبعته — افتئاتا وجورا — بأن يخلع طاعة امير المؤمنين ويفر الى ابن ابى سفيان . فاذا هو بفعلته هذه يتهاوى الى درك الخسة الذى ليس تحته قاع !..

مناقص ومثالب تروع وتهول . جمعت خيانة الأمانة ، الى خلف

الوعد ، الى نقض البيعة ، الى المظاهرة الجائرة انتصارا للعدو على الولى ، وللمتمرد العاصى على صاحب السلطان الشرعى في البلاد ..

ولقد كانت لمصقلة عندئذ مندوحة ، عن سلوكه الزرى الذى اخل بدينه ، واهدر كرامته ، لو انه كان حقا صادق النية ـ منذ البدء ـ في طاعة الإمام ، مؤمنا إيمانا سليما باهدافه .. وهل كان على ليعجله بالأداء ويرهقه عسرا وإنه الخليق ـ لا ريب ـ بأن يمهله ويتريث به وهو يقابل الزلة الوبيلة بالدافع الكريم ؟..

وكان هذا حقا هو اتجاه الإمام في معاملة مصقلة ، إذ عقب يقول :

« .. لو أقام لأخذنا ميسوره ، وانتظرنا بماله وفوره .. .. »

لكن مصقلة شاء لنفسه أن يقرن الصلف بالخيانة ، كأنما ترفعا عن المساءلة والاعتذار . فأعاد بذلك إلى الحياة صورة جبلة بن الايهم ، حين شكاه أحد الأعراب الى ابن الخطاب في لطمة لطمها اياه ، فدفعته كبرياؤه الحمقاء ـ انفة من القصاص ـ الى الارتداد عن الإسلام !..

صلف كصلف ، ومثال كمثال ، ثم يبقى بعد هذا ان سيرة مصقلة تنم ، قبل زلته تلك ، عن دخوله في طاعة على ، خداعا وغشا ، ابتغاء المصلحة وذيوع الصيت . فلقد سبق له أن أساء الى المال العام بوضعه حيثما راى انه يرفع ذكره ، وينفع قومه ، وإن اعضل فعله بمن لهم حق في هذا المال .. وها هو كتاب من الإمام إليه ، إبان عمله ، يتهمه ويكاد يهتك الستر عن خيانة قديمة ، خبيئة فيه :

« بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد اسخطت إلهك ، وعصيت إمامك .. انك تقسم فيء المسلمين ، الذى حازته رماحهم وخيولهم وأريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتامك من اعراب قومك .. فوالذى خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لئن كان ذلك حقا لتجدن لك على هوانا ، ولتخفن عندى ميزانا !.. فلا تستهن بحق ربك . ولا تصلح دنياك بمحق دينك ، فتكون من الاخسرين عملا .. .. »

وختم كتابه يذكر بحق الأمة في الفيء بالسوية ، بلا مفاوتة على المنازل والاحساب :

« .. الا وان حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء ، يردون عندي عليه ، ويصدرون عنه .. » .

ومع ذلك فقد استمرأ المرعى !..

فما هو ان طلع عليه بولايته اولئكم النصارى الأسارى ، حتى تحركت يده ، مرة أخرى ، نيختان المال العام ..

والقى بعينه على موكب الرق فإذا هو جسوم ضاوية محطومة من فرط مشقة الرحلة الطويلة من ساحل البحر في الجنوب . ووجوه مغبرة ، رهقها الإعياء وذل الانكسار .. ثم القى بسمعه إليهم فإذا كلامهم زفرات ، وإذا انفاسهم نواح ..

وتعالى اليه الصياح :

« يا ابا الفضل !.. يا حامل الثقل ، ومأوى الضعيف ، وفكاك العصاة !.. امنن علينا .. .. »

فكأنما لمسوا بعباراتهم وتر فخره ..

هب على الفور يقول :

« والله لاتصدقن عليهم !.. » .

وارسل الى معقل بن قيس ، صاحب الجيش الذى تعقب عصاة بنى ناجية من الكوفة الى البحرين عبر الوهاد والقفار والجبال ، قرابة عامين ، حتى اوقع بهم ، وقتل زعيمهم الخريت ، واظفره الله منهم بعدو عنيد ..

ارسل اليه :

« بعني نصارى ناجية .. »

واتفقا على خمسمائة الف درهم نسيئة ، يبعث بها الى امير المؤمنين بالكوفة بعد قليل ، ثم اعتق الارقاء ..

لكنه لم ينجز وعده .

مطل بالدين . بل قد اكل معظمه فرزا فيه بيت المال كما رزاه

من قبل . فإذا خيانة الأمانة خيانتان . وإذا مسلكا الأمس واليوم يتطابقان . وإذا هو بهما الخلاس السلاب الذى ينهب ليهب . ويهب فيسخو . ويسخو ليستطير بالشرف والفخار فلا يبلغ من شأو طموحه الى نباهة الذكر الا كرما هو التكرم ، ورفعة هى الصلف ، وشرفا هو الادعاء !..

ولم يعاجله الإمام بالبطش والحساب ، بل آثر الرفق والهوادة عسى أن يرجع عن غيه ، ويوفي ما عليه .. ولكن مصقلة ابطأ في الأداء فأطال الإبطاء ، حتى بدا للناس كأنه لا ينتوى الوفاء ..

عندئذ بادره أمير المؤمنين بكتاب مع رسول من لدنه يدعوه :

« أما بعد ..

فإن من أعظم الخيانات خيانة الأمة . وأعظم الغش على اهل المصر غش الإمام . وعندك من حق المسلمين خمسمائة الف درهم ، فابعث بها الى حين يأتيك رسولى . وإلا فأقبل .. ..

والسلام . »

ولم يكن لمصقلة معدى عن الذهاب إلى الكوفة ، بعد إذ لزمه الرسول لا يبرح عنه انصياعا لأمر الإمام :

« إن تبعث بهذا المال ، وإلا فاشخص معى إلى امير المؤمنين .. »

فانطلق صاغرا . ومكث اياماً بالكوفة ، يحاول أن يتدبر الأمر بحيلة العاجز الذى آده الأداء . ثم وسعه آخيرا ، حين سأله الإمام ، أن يدفع مائتى الف ، مكث بعدها يعالج القلق والحيرة ..

وكأنما أغراه تريث على به كل هذا التريث بالطمع في الالتواء ببقية الدين ، حتى لقد قال ذات ليلة لذهل بن الحارث :

« إن امير المؤمنين يسألنى هذا المال ، ووالله ما اقدر عليه .. » .

قال صاحبه :

« لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجمعه .. » .

فأنف :

« ما كنت لأحمله قومى ، ولا أطلب فيه إلى احد . . » .

واردف يقول كاشفا عن امنيته :

« والله لو أن ابن هند مطالبى به ، أو ابن عفان ، لتركه لى . ألم تر إلى عثمان كيف أعطى الأشعث مائة ألف درهم من خراج أذربيجان في كل سنة !. . » .

لكن جواب ذهل رده عن خياله :

« إن أمير المؤمنين لا يرى ذلك الرأى . وما هو بتارك لك شيئا . . »

أفكان حقا في حاجة لمن يخرجه من هذا الحلم الذى عاش فيه لحظات ، وود لو طال عليه أمده ؟. . إنه إذن لم يعرف الإمام ، ولا كان جديرا بالمنصب الذى شغله عاملا له أولى به أن يتخلق بخلقه ، ويسير سيرته ، تنائيا عن هوى النفس ، وخضوعا لشرعة الحق ، وامتثالا لما ينبغى أن ينتهجه كل من تصدى لقيادة الرأى والسياسة بين الناس. ولم يطلع عليه بعد ليلته تلك في الكوفة صباح !. .

٢

طوى الإمام سيرة اسرى بنى ناجية في كلمات ..

قيل له :

« اردد الذين سبوا ولم تستوف اثمانهم في الرق .. » .

فابى ان يحرمهم حرية غنموها وإن من خطأ ، وان يتحيف على المال العام :

وقال :

« ليس ذلك في القضاء بحق .. » .

فألحوا عليه :

« وفيؤنا ؟.. » .

« صار على غريم من الغرماء ، فاطلبوه !.. » ..

واطبق السجل على جدل طال في حرية الإنسان ، مسلما او غير مسلم ، كيف يتحمل المجتمع ضريبتها ، لأنها ، في اعتبار النظرة الإسلامية ، لها الصدارة بين كافة الحقوق ..

وعرض الإمام في احاديثه بالخريت ، صاحب محنة بنى ناجية :

قال عندما اتاه نبأ مصرعه :

« هوت امه !.. ما كان انقص عقله واجراه !.. » .

فما جنى هذا المتمرد الغاوى شيئا من وراء جراته الحمقاء ، او حمقه الجرىء ، إلا ان حمل قومه على عصيان هم اغنى عنه ، واوغل بهم في مجاهله ومتاهاته على غير بينة ، حتى دل عليهم السيوف تذيقهم مرارة الذلة وغصص الحتوف .. وهل كان قصارى تمرده إلا ان اودى بهم ، واهلك نفسه ، وضيع من عمر الأمة الإسلامية قرابة عامين في

صراع دموى ما كان أحرى الناس عندئذ بأن ينفقوهما في تثبيت أركان الفيء سواء ، يردون عندى عليه ، ويصدرون عنه .. » .

لكن الخريت بن راشد الناجى سلك المسلك الذى لا يستغرب من مثله ، لانه الأليق بكل من هو على شاكلته من الألى آمنوا على حرف ، الذين يتأرجح بهم دائما قلقهم النفسى ، وافتقارهم إلى اليقين الركين ، من النقيض للنقيض ، شاطحين مرة من اقصى اليمين إلى اقصى اليسار، ثم عادلين أخرى عن أقصى اليسار إلى اقصى اليمين ، بغير ما قد يوجب ميلا ولا عدولا سوى التعصب الأعمى وما يجره من اضطراب التفكير وخلل التقدير .

ولا عجب ان يأخذ الخريت في تمرده بمذهب الخوارج الذين سبقوه إلى الانتقاض على الإمام بسبب التحكيم . فله أن يرى رايه . وأن يدعو له . وأن يحاول تسويده ، بالمجادلة او بالثورة ، على غيره من الآراء ما دام قد اعتنقه عن اقتناع . لكن العجب كل العجب انه كان إلى ما قبيل تمرده بقليل ، مخالفا لهذا الرأى ، زاريا عليه ، حتى لقد نحا في خلافه إلى تأليب الإمام على كل من اعلنوه التأليب الذى ينكر الترفق بهم ، ويرى استئصالهم ولما يخرجوا بعد على النظام العام ...

فقد قال للإمام عندئذ يشيره على الخارجة :

« يا أمير المؤمنين . إن في أصحابك رجالا قد خشيت أن يفارقوك، فما ترى فيهم ؟ .. » .

فشرح له الإمام ما يرى أتباعه حيالهم وأمثالهم من مخالفيه :

« إنى لا آخـذ على التهمة ، ولا اعاقب على الظن ، ولا اقاتل من خالفنى وناصبنى وأظهر العداوة لى .. ثم لست مقاتله حتى ادعوه ، وأعذر إليه . فإن تاب ورجع قبلنا منه . وإنابى إلا الاعتزام علىحربنا استعنا بالله عليه ، وناجزناه .. » .

ويبدو أن الرجل لم يرض من أميره بهذه السياسة ، فراح يلحف ويشتد ، حتى لقد ردعه الإمام :

« كف عنى ما شاء الله .. » .

لكنه عاود مرة أخرى الإلحاح عليه في معاقبة الزعماء :

« إني خشيت أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائى .. قد سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتها لم تفارقهما حتى تقتلهما ، أو توثقهما فلا يزالان بمحبسك ابدا .. » .

عندئذ شاء أمير المؤمنين أن يسبر غوره ، ليعلم مدى التزامه سياسته ، التى ترتب العقوبة على الجرم لا على الشبهة ..

فقال يسأله :

« إني مستشيرك فيهما ، فماذا تأمرنى به ؟.. » .

قال الخريت :

« آمرك أن تدعو بهما فتضرب رقابهما !.. » .

فسفه الإمام قوله ، ورد عليه :

« .. لقد كان ينبغى لك أن تعلم أني لا أقتل من لم يقاتلنى ، ولم يظهر لى عداوة .. وكان ينبغى لك — لو أننى أردت قتلهم — أن تقول لى : اتق الله ! بم تستحل قتلهم ولم يقتلوا أحدا ، ولم ينابذوك ، ولم يخرجوا من طاعتك !.. » .

فليس الخلاف في الرأى مما يستوجب القصاص .

ومع ذلك ، فما لبث الخريت ان فعل ما أراد قتل غيره ، لا على فعله ، بل على مجرد القول به !..

عصى . ودفع قومه إلى العصيان . وخرج بهم عن الطاعة والولاء بحرب شعواء شنها على الإمام تنشر الدماء على رقعة فسيحة من البلاد امتدت إلى أقصى الجنوب على الخليج الهندى بمنطقة البحرين .. ولم يساعد بفعله هذا على تحطيم حكم عليّ بقدر ما أعان على تفتيت وحدة الامة ، بتأليب المسيحيين ، وإحياء عنصرية الجنس في نفوس الفارسين والاكراد بتلك الانحاء ، ثم على ثلم الإسلام وإحداث خرق واسع في جداره بتحريضه الناس على منع الصدقات ، وإفساح المجال أمام كثيرين للارتداد عن الدين ..

وتبدأ هذه المحنة الخطيرة حين وسوس للرجل شيطانه أن يذهب عقب انتهاء التحكيم في ثلاثين من أصحابه إلى الإمام ، ذهاب زار مغاضب ، ليعلن في اجتراء انه برم به ، خارج عليه : آخذ حياله برأى الخارجية الذين طالما دعاه من قليل ان يعنف بهم ، ويقتل زعماءهم قبل أن يفسدوا عليه الناس !..

فأنى له هذا التحول ؟.. وكيف يقر ما نقم وكان يأمر بالبطش فيه ؟.. وهل هي نزوة نفسية أفرزها قلقه وتقلقل قدمه أن تثبت على موضع ، وضيق أفقه أن يتبين اليقين ؟.. أم كان يكن ميله الخارجي ويكبته حتى تبجس وتفجر ولم يجد وسيلة بعد لكتمانه؟.. أم قد أراد من قبل أن ينفرد بزعامة المبدأ حين أثار الإمام على سواه من زعمائه فلما فوت عليه غرضه آثر الآن النهوض بدوره في العصيان ؟..

فلعله أقبل لهذا السبب أو لذاك . أو لعله لكل هذه الأسباب ، أو بغير أسباب ، إن وضعنا تذبذب أمثاله من الخارجية بين نقائض الدواعي والأسباب في الحساب !..

وبادر في اعتداد أرعن وخيلاء حمقاء يثور بالإمام :

« .. لا والله لا أطيع أمرك ، ولا أصلي خلفك .. وإني غدا لمفارق لك !.. » .

فاستطارت الدهشة بأمير المؤمنين ، وحذره :

« ثكلتك أمك !.. إذا تنقض عهدك ، وتعصي ربك ، ولا تضر إلا نفسك .. » .

ثم تريث به قليلا ، وسأله سر انقلابه :

« .. أخبرني . لم تفعل ذلك ؟.. » .

أجاب :

« لأنك حكمت في الكتاب . وضعفت عن الحق إذ جد الجد . وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم . فأنا عليك زار ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .. » .

نفس دواعى فرقة الخوارج ، ونفس حججهم ، كأنما تتردد على لسان زعيم القوم : الراسبى ذى الثفنات !..

ومع ذلك فقد ترفق به الإمام في الرد وهو يرجو أن لو أفسح له في التفكير ومراجعة النفس أن يرشد ، ويثوب عن هواه ..

قال :

« ويحك !.. فهلم إلى أدارسك ، وأناظرك في السنن ، وأفاتحك امورا من الحق أنا اعلم بهـا منك ، فلعلك تعرف ما أنت له منكر ، وتبصر ما انت الآن عنه عم وبه جاهل .. » .

فبدا الخريت كأنما قد استراح للنصيحة ، وقال :

« فإنى غاد عليك غدا .. » .

« أغد ، ولا يستهوينك الشيطان ، ولا يتقحمن بك راى السوء ولا يستخفنك الجهلاء الذين لا يعلمون .. فوالله ان استرشدتنى واستنصحتنى وقبلت منى لأهدينك سبيل الرشاد .. »

وافترقا على عدة ولقاء ..

لكنها العدة التى اسلف لها الخلف ، واللقاء الذى سبقه في نفسه التنكر له والمراوغة فيه .. فما ان عاد الخريت الى قومه حتى كشف لهم عما اضمر وعزم أمره عليه :

« يا هؤلاء !.. انى قد رايت ان افارق هذا الرجل . وقد فارقته الآن على ان ارجع اليه من غد ولست أرى الا المفارقة . »

فراجعه في عزمه كثيرون :

« لا تفعل حتى تاتيه . فإن أتاك بأمر تعرفه قبلت منه . وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه .. .. »

فاظهر القبول .

غير أن الغد المرتجى لم تطلع شمسه !..

فقد آثر الرجل أن يلتوى بوعده ، ويمضى لعزمه ، ويملأ الدنيا

دما وشغبا وضغينة .. وإذا كان من الأولى علموا بما سلف من قبوله ذلك اللقاء بضعة صدقته فحسبته قد بات ليلته تلك على نية الوفاء، فإن بضعة غيرها رابها أمره، وقر في روعها أنه لا بد ناكث عهده، وخارج بما أضمر من خلاف وشر على الأمة غدا إن لم يحاول أن يشق وحدتها قبل أن يسفر الصباح ..

من هؤلاء المستريبين فيه عبد الله بن قعين، الذى بادر فسعى، مع ارتفاع النهار من غد، إلى الإمام يطالعه بما دار ليلة الأمس بين الخريت وأصحابه، ويكشف عن شكه فيه ..

فكان جواب ما طرحه أن قال على :

« .. ان قبل الحق ورجع عرفنا له ذلك، وقبلنا منه .. » .

اهاب ابن قعين به، توقيا وحيطة :

« فلم، يا أمير المؤمنين، لا تأخذه الآن فتستوثق منه ؟.. » .

فرد الإمام :

« .. لو فعلنا هذا بكل من يتهم من الناس، ملأنا السجون منهم . ولا أرانى يسعنى الوثوب بالناس، والحبس لهم، وعقوبتهم، حتى يظهروا لى الخلاف .. » .

وعلت الضحوة . وطال الانتظار وصاحب الوعد لا يظهر له خيال !.. فمال الإمام على عبد الله بن قعين، يسر إليه :

« إذهب إلى منزل الرجل فاعلم ما فعل، فإنه قل يوم لم يكن يأتينى فيه قبل هذه الساعة .. » .

فمضى .. فإذا داره خاوية . وإذا ديار أصحابه ليس بها ديار !.. انفذ العاصى إذن ما اراد .

وعند ما عاد عبد الله من وفادته، لم يمهله الإمام أن ينقل إليه ما عرف . بل بادره لحظة اقبل :

« أفطنوا فأقاموا، أم جبنوا فظعنوا ؟.. » .

« بل ظعنوا !.. » .

فقال وقد ملأ الأسف عينيه :

« ابعدهم الله كما بعدت ثمود !.. » .

ثم ألقى بنظرة ثاقبة إلى الأفق البعيد ، كأنما ليخترق بها حجابه ، وينفذ عليها إلى ما يكنه الزمان المقبل ..

واضاف :

« .. أما والله لو قد اشرعت لهم الأسنة ، وصبت على هامهم السيوف ، لقد ندموا !.. إن الشيطان قد استهواهم وأضلهم . وهو غدا متبرىء منهم ، ومخلّ عنهم .. » .

كذلك شام . ولسوف يتمخض الزمان عما شام !..

٣

قال قائل من أصحاب على ، حين ظهر لهم ما كان خافيا من نية عصبة الخريت :

« يا امير المؤمنين .. إنه إن لم يكن من مضرة هؤلاء إلا فراقهم إيانا لم يعظم فقدهم علينا . فإنهم قلما يزيدون في عددنا لو اقاموا معنا ، وقلما ينقصون من عددنا بخروجهم منا .. ولكنا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقومون عليهم من اهل طاعتك .

فائذن لى في اتباعهم حتى أردهم .. » .

فاستجاب الإمام :

« فأخرج في آثارهم .. » .

ثم سأله :

« وهل تدرى اين توجه القوم ؟.. » .

قال زياد بن خصفه :

« لا والله . ولكنى اخرج فاسأل واتبع الأثر .. » .

فوجهه :

« اخرج حتى تنزل دير ابى موسى ، ثم لا تبرحه حتى يأتيك أمرى، فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة ، فإن عمالى ستكتب إلى بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفين فذلك اخفى لهم ، وسأكتب إلى من حولى من عمالى فيهم .. » .

وسارع فأرسل لكل وال من ولاته على الأقاليم والكور حول الكوفة ، وما جاورها ، كتابا يقول فيه عن أولئكم الآبقة الجانحين إلى العصيان :

« .. إن رجالا لنا عندهم تبعة خرجوا هرابا نظنهم خرجوا نحو بلاد البصرة . فاسأل عنهم أهل بلادك . واجعل عليهم العيون في كل ناحية من ارضك .. ثم اكتب إلى بما ينتهى إليك عنهم .. » .

وامتثل زياد بن خصفة أمر الإمام ، وما لزم به نفسه .. فدعا اصحابه ان ينتدبوا معه . فلما أن اجتمع له منهم مائة وثلاثون ، اكتفى بهم ، واخذ وإياهم على الطريق ، عبر الجسر ، إلى دير أبى موسى . ثم انتظر .

اما الخريت فقد تسربل ورفاقه بالليل ، يلجون من الكوفة خلسة إلى موقع يأمنون فيه على انفسهم ، ويسعهم منه أن يبدأوا دعوة الانتقاض على الدولة ، ويشعلوها نارا مدمرة ، تأكل الأمن والوحدة ، وتشيع الانقسام والخراب ..

ولم يكد امرهم ، فيما بدا لهم ، يستتب حتى عملوا بسيرة الخارجة ، ينشرون الإرهاب بين أيديهم ، ليفتنوا بالرعب من لا يفتنه شعار جماعتهم المعلوم .. يظهرون آونة ، ويستخفون آونات . وهم ، بين هذا وذاك ، لا يعدمون ناصرا يلحق بهم ، ويمضى وإياهم في رحلة الشؤم ، من كل ناقم وجاهل وعدو للدين ..

في « نفّر » التقوا برجلين : مسلم ويهودى فقطعوا عليهما الطريق ..

سألوا الاول :

« أمسلم انت أم كافر ؟.. » .

« مسلم .. » .

« فما تقول في على ؟.. » .

« سيد البشر .. » .

فثاروا به :

« كفرت يا عدو الله !.. » .

ومزقوه بالسيوف .

وسألوا الآخر :

« ما دينك ؟.. » .

« يهودى » .

فتركوه ، وبعضهم لبعض يقول :

« خلوه .. فلا سبيل لكم عليه .. » .

ولعله ليس بآخر دم سفكوه ، ولا طريق قطعوه ..

وفي المدائن نزلوا يزيحون . فأقاموا بها يوما وليلة على امان . جموا . وعلقت خيلهم . وتذاكروا الوجهة التى ييممون ..

لكن العيون التى بثها الولاة والعمال كانت لهم بالمرصاد . فما لبث امرهم أن انكشف ، وبعث بنبئهم إلى الإمام ، عامله قرظة بن كعب ، في كتاب يقول فيه :

« .. فإني اخبر امير المؤمنين ، ان خيلا مرت من قبل الكوفة ، متوجهة إلى نفّر . وان .. » .

فبادر الإمام يرسل لزياد :

« .. وقد بلغنى أنهم اخذوا نحو قرية من قرى السواد ، فاتبع

آثارهم ، وسل عنهم .. فإذا انت لحقت بهم فارددهم إلى . فإن أبوا فناجزهم ، واستعن بالله عليهم ، فإنهم قد فارقوا الحق ، وسفكوا الدم الحرام ، واخافوا السبيل .. » .

ولهث وراءهم زياد ، يشم ريحهم ، ويتأثر خطاهم ، من موقعه بدير ابى موسى ، إلى نفر ، فإلى المدائن حيث وجدهم مجنبين الخيل ، آنسين للدعة والطمأنينة ، ورجاله عندئذ قد تقطعت أنفاسهم من السفر الطويل ، وكادوا يذوبون من لغوب !.. فما هو أن دنا منهم حتى وثبت العصابة جميعا على الافراس ، وثابت إلى السلاح ..

ولم ير زياد ، في هذا المقام الذى لا رجحان له فيه ، إلا أن يرفق ويداور ما وسعه أن يفعل ، حماية لنفسه ولمن معه . فسار إلى القوم على مهلٍ ، كمن لا يخاف منهم غدرا ، ولا يوجس شرا . لعله أن ينال بالرفق والهوادة ما لا ينال بالعنف والشدة ..

غير أن الخريت عاجل الشقة بينهما أن تضيق ، فصاح به وبأصحابه :

« يا عميان القلوب والابصار !.. امع الله وكتابه انتم ، أم مع القوم الظالمين ؟.. » .

فرد زياد في هدوء .

« مع الله وكتابه وسنة رسوله ، ومع من الله ورسوله وكتابه آثر عنده من الدنيا ثوابا ، ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تفنى لآثر الله عليها .. » .

ثم زاد وهو يختم جوابه :

« .. أيها العمي الأبصار ، الصم الأسماع !.. » .

وكأنما اخذت زأرته الرجل ، فجنح إلى اللين في الخطاب ..

قال يسأل :

« فأخبرونا ما تريدون ؟.. » .

عندئذ رأى زياد أن يفارق الحدة ، ويركن إلى الرقة ، لأنها خليقة بأن تفسح له في الوقت ، وتسعف بالحيلة ..

قال :

« قد ترى ما بنا من النصب واللغوب . والذى جئنا له لا يصلح فيه الكلام علانية على رءوس أصحابك . ولكن تنزلون وننزل .. » .

فرفع الخريت حاجبه يستفسر ..

وأكمل زياد :

« .. ثم نخلو جميعا ، فنذاكر أمرنا وننظر فيه .. فإن رأيت فيما جئنا له حظاً لنفسك قبلته ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمرا أرجو فيه العافية لنا ولك ، لم أرده عليك .. » .

ونجحت الحيلة ..

أو هى في الحق كانت فرجة الخلاص لكلا الفريقين من صراع ليس يأمن أحدهما عقباه على نفسه بهذا المنزل الذى لم يتهيأ فيه للقاء .. فإن هما إلا عدلان .. خيل كخيل ، وسلاح كسلاح ، وجمع كجمع لا يكاد ينقص فرد أو نحوه من عدد فريق لترجح كفة الآخر ..

وكيفما كانت الدوافع الخفية التى حملت الخريت بن راشد على الجنوح للسلم في تلك اللحظة ، وإرجاء المناجزة إلى حين ، فإنه لم يضق بنظرة غريمه ، ولم ينقضها . بل أخذ بها نقطة بدء للمفاوضة وتبادل الآراء ..

وقال لزياد يوافقه :

« أنزل .. » .

وعاد هو إلى عصبته .

ونزل زياد بصحبه على الماء ، فهم أولى بأن يرتووا من عطش ويجموا من إرهاق ، ثم يمهلوا الأذهان قليلا لتتبين معالم الموقف واحتمالاته ، وما عسى أن يجمعوا الرأى عليه .

ولم تخدع هوادة الخريت ، ولا سماحته البادية ، زيادا عن الحذر الخليق بمحارب متمرس في مثل هذا المقام . فما كاد يرى اصحابه قد علقوا على خيولهم مخاليها ، وانسوا للدعة يتفرقون هنا وهناك في غير مبالاة ؛ أو يتحلقون حلقات عشرة عشرة ، وسبعة سبعة ، وعددا عددا يتلهون بالحديث ، حتى اقبل عليهم في عجلة ، ينكر عليهم ما يفعلون ، ويزجرهم :

« سبحان الله !.. انتم اصحاب حرب !.. » .

فانتبهوا له من غفلتهم يصغون ..

ومضى يتابع لومه :

« .. والله لو ان هؤلاء جاءوكم الساعة وانتم على هذه الحالة ما ارادوا من غرتكم افضل من اعمالكم التى انتم عليها !.. عجلوا !.. قوموا إلى خيولكم !.. » .

فاندفعوا على الأثر وما اشار ، يعدون أنفسهم فيحسنون الإعداد لكل مباغتة قد تخطر بالبال ..

وقال لهم وقد غدوا على أهبة وانتباه :

« يا هؤلاء .. إنا قد لقينا العدو . وإن القوم لفى عدتكم .. لقد حزرتهم ، وما أظن احد الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر .. وإنى أرى امركم وامرهم سيصير إلى القتال . فإن كان ذلك فلا تكونوا اعجز الفريقين .. » .

ثم القى إليهم بخطته :

« ليأخذ كل منكم بعنان فرسه . فإذا دنوت منهم وكلمت صاحبهم ، فإن تابعنى على ما أريد .. وإلا فإذا دعوتكم فاستمدوا على متون خيلكم ، ثم أقبلوا معا غير متفرقين .. » .

وما نحسب الخريت كان ينتظر هذه النتيجة حين اباح زيادا وأصحابه النزول فأباحهم به الجمام بعد التعب ، والرى بعد العطش ، والشبع بعد الجوع ، والأهبة للقتال بعد اضطراب النظام .. إنما

كان ، فيما يلوح ، يظهر الهوادة ليأمنوا له ، والمسالمة ليغفلوا عنه ثم يتحين منهم غرة فإذا هم صرعى تحت الأقدام !.. لكن ابن خصفة كان أعتى من المخاتلة والخداع ، فقوت عليه غرضه . حتى لقد راح المارقون العصاة يتلاومون لأنهم ضيعوا من أيديهم نصرا ما كان أسهل عليهم أن يجتازوه ..

قال بعضهم لبعض :

« جاءكم القوم وهم كالّون معيون ، وأنتم جامون مريحون .. فتركتموهم حتى نزلوا ؛ فأكلوا وشربوا وأراحوا دوابهم . هذا والله سوء الرأى !.. » .

فرصة ولت ، ما لها أن تعود ..

ونادى زياد الخريت :

« اعتزل ننظر في أمرنا .. » .

فخرج في خمسة نفر من صحبه ، وخرج زياد في مثلهم ..

والتقى الوفدان ..

٤

استهل زياد بن خصفة الحديث :

« ما الذى نقمت على أمير المؤمنين وعلينا ، حتى فارقتنا ؟.. »

اجاب الخريت :

« لم ارض صاحبكم إماما ، ولم أرض سيرتكم سيرة .. فرأيت أن أعتزل ، وأكون مع من يدعو إلى الشورى .. .. »

فهو إذن لا ينقم لمأرب خاص . ولا لخطأ ذاتى في مسلك للإمام أو لأصحابه يزرى عليهم به ، ويمكن بمداواته ان يعود إلى حظيرة الولاء .. إنما قد خرج عليهم لمبدأ يناقض السياسة العامة ، ولاسبيل إلى تحقيقه إلا باجتثاث خلافة على من الأساس ..

الشورى !..

رأى لا يحتمل الجدل . ولا تغنى فيه المناقشة بين الرجلين وإن طالت دهرا ، لأنه لا التقاء بين نقيض ونقيض .. وهو الراى الذى تستر به معاوية من قبل ليدرأ عن نفسه تهمة التمرد . ونادى به عمرو وأبو موسى ابان مفاوضات التحكيم ، واتخذه كل ناقم على الإمام ، حاسد له ، موتور منه ذريعة للطعن فيه ، وتأليبا للعامة عليه ، عندما أعوزتهم الوسائل ، وأعيتهم معها حيل السياسة ، وضربات الحرب ، للقضاء على حكمه الذى قام برغبة الشعب في كل الأمصار ..

وأصغى زياد للمتمرد الجديد :

« .. .. فإذا اجتمع الناس على رجل هو لجميع الأمة رضا ، كنت مع الناس .. »

افلم يكن امس مع الناس ، وقد نذر سيفه ونفسه للدفاع عن الإمام ، ووقف للمناضلة عن بيعته في وجه كل عاص ومفروح ؟..

وسأله زياد في استنكار :

« .. وهل يجتمع الناس على رجل يداني عليا ، عالما بالله وبكتابه وسنة رسوله ، مع قرابته وسابقته في الإسلام !.. »

فما عدل عن موقفه ، ولا أبدى ما لعله ينم عن عدول . أصر في مكابرة وعناد ، ضاق بهما مجال التفاهم ، وانقطع الرجاء في الالتقاء على حل جامع ، أو على آخر يقع من الجانبين في منتصف الطريق !..

ونشب القتال .

علت ناره ، وتلهب سعيره ، حتى لقد اختلط الفريقان اختلاطا شديدا اصطكت خلاله الهام بالهام ، والتصقت الأجسام بالأجسام . وتقطعت الرماح ، وانحنت الأسياف . وعقرت عامة خيل الجيشين . وفشت في المقاتلة الجراح .. فلولا أن حاجز بينهم ستار الليل ، واجن بعضهم عن بعضهم سواده ، لشهدهم الصبح ، إلا الأقلين ، صرعى وأشلاء ..

غير أن النهار لم يسفر عن أرض الوقعة ، بثرى المدائن ، وفيها الخريت .. فقد التف العاص وعصبته بالظلمة . وأوجلوا مرة أخرى يسرون ، على مضض الإعياء ، بعيدا بعيدا إلى جنة جديدة يلعقون فيها الجراح ..

وكانت جنتهم الأهواز . فما يجد الخريت خيرا منها مسرحا لدعوته وإن أهلها لتسهل فتنتهم ، لكثرة فارسية بها كفار وبها من لم يقر في قلوبهم للإسلام قرار ، وفي جيرتها كذلك أعراب تدين منهم طائفة بمبدئه ، ولا يشق عليه ، مع جلافة بقيتهم وغلظة قلوبهم ، أن يلويهم كما يشاء ..

وانتأى الرجل بصحبه جانبا من الأهواز مستخفين . فلما استعزوا بمائتين من أقرانهم بالكوفة جاءوهم مددا ، راح يدور بدعوته بين أهل تلك النواحي ، يستميلهم بما يعطفهم . فما لبث إلا قليلا حتى لحقت به كثرة العلوج والأكراد . وفئة ضخمة من اللصوص وقاطعي الطريق . وأخرى من الأعراب الذين يدينون بدعواه . واجتمع

له بهذا الأسلوب خلق كثير من الأولى راوا في حركته سبيلا إلى ضرب الدين ، وكسر الخراج ، وتحطيم الحكم القائم ، والتحلل من قيود القانون ..

وبلغ الإمام ـ من كتاب لزياد ـ ما وقع ، فدعا إليه معقل بن قيس، وندب معه الفين من الكوفة :

« تجهز يا معقل .. » .

ثم كتب إلى عامله على البصرة ؛ عبد الله بن عباس :

« .. فابعث رجلا من قبلك ، صلبا شجاعا ، معروفا بالصلاح ، في الفى رجل من أهل البصرة ، فليتبع معقل بن قيس .. فإذا خرج من البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلا . فإذا لقيه فمعقل امير الفريقين .. ومر زياد بن خصفة فليقبل علينا ؛ فنعم المرء زياد ، ونعم القبيل قبيله !.. » .

ولم يفت الإمام أن أمير جيشه متوجه إلى بلاد خليقة بألا تحسن استقباله ، ولا تخف إلى عونه لكثرة ما بها من غير أهل الإسلام ، فأراد أن يكف من غربه ، ويهدىء من فورة حماسه حتى لا يدفعه تشككه فيهم إلى الغلو في معاملتهم بما قد يميل به إلى التحيف ..

فأوصاه :

« يا معقل بن قيس !.. لا تبغ على أهل القبلة . ولا تظلم أهل الذمة . ولا تتكبر .. » .

فأذعن وامن :

« الله المستعان .. » .

« خير مستعان .. » .

وخرج القائد بجيشه يقطع القفار والعمار حتى نزل به الأهواز ، فعسكر حينا ينتظر بعث البصرة .. فلما أن أبطا عليه ، نهض بمن معه من مقاتلته يأخذ سبيله إلى المعركة المنتظرة حيثما توجهه الأرصاد ..

وقال يطمئن رجاله :

« .. ليس بنا بحمد الله قلة ، و لا وحشة إلى الناس .. » .

وانطلقوا ..

فما مضى بهم يوم أو بعضه في سيرهم ذاك ، حتى اقبل عليهم من جانب البصرة رسول بكتاب من عاملها ابن عباس ، يقول فيه :

« .. لا تبرحن من المكان الذى ينتهى إليك رسولى وانت فيه ، حتى يقدم عليك بعثنا الذى وجهناه إليك . فقد وجهت إليك خالد ابن معدان .. » .

واقبل خالد بفرقته بعد قليل . فالتأم الجيشان في عسكر واحد ، يقصد إلى عصبانة الخريت يتعقبها . فإذا هى قد انفلتت من الأرض السهلة ، تحاول الرقي في المرتفعات بجبال رامهرمز ؛ نحو قلعة حصينة رأت أنها خير ما يحفظ عليها شوكتها ، ويعزها عن المطاردين ..

غير أن خبر الهراب لم يخف طويلا عن جيش التأديب .. فما أسرع ما دله عليهم اهل الإقليم . وما اسرع ما ادركهم جنود معقل وهم بعد عند سفح الجبل لا تزال خطاهم تتقلع وهى تتدافع بهم إلى الارتقاء .. حتى إذا تراءى الجمعان ، ولم يعد معدى عن اللقاء ، بادر معقل فنظم قواته . ثم مشى بينهم يحرضهم على الجهاد والصبر عند اللقاء وهو لا ينسى في تذكيرهم واجب الجندى في الميدان ، أن يدعوهم إلى التمسك بتقاليد القتال الشريف ..

قال يحذرهم :

« عباد الله .. لا تبدأوا القوم حتى يبدأوكم .. » .

فتلك سنة سنها امير المؤمنين ، ولزمها في كل حرب وإن كانت السنة عند ذاك الغدر في الحروب ..

ثم اردف يقول :

« .. غضوا الابصار ، واقلوا الكلام .. وابشروا في قتالهم بالاجر

العظيم فإنما تقاتلون مارقة مرقت ، وعلوجا منعوا الخراج ، ولصوصا وأكرادا .. » .

وكانت عينه قد رمت بنظراتها إلى من حياله ، فإذا هو بهم وقد تمنطق الخريت بمن معه من العرب في الميمنة ، وصف الأكراد وعلوج العجم في الميسرة ، وبدا منه ما يشي بالتشرع للانقضاض ..

عندئذ وثب معقل إلى قلب جيشه ، وسط الصف ، وصاح برجاله :

« ما تنتظرون !.. » .

ومر بهم يتفقد النظام ، وهو يلقي بأمره :

« .. إذا حملت فشدوا .. » .

فالتفت عليه الأبصار ترى ما يفعل وما يشير .. أما هو ، فقد حرك رأسه يمنة ، ثم حركها يسرة ، كأنما يومىء لجناحيه ان يكونا على أهبة .. ثم انصب على الأثر يحمل على الأعداء فإذا جيشه كله وراءه يحمل حملته . ويضرب ضربة واحدة ، كأنما عن يد واحدة ، بسيف واحد ، حتى لقد أوشك مناجزوه أن يذهلوا عن أنفسهم ، وتشلهم سرعة المفاجأة ان ينهضوا بما يكافىء الهجوم ..

فإن هي إلا ساعة أو نحوها حتى شاعت المقتلة ، سابحة على الذعر ، في جيوش الغاوين .. فقتل من بني ناجية والأعراب سبعون . ومن الأكراد وعلوج العجم ثلاثمائة تمزقت بهم الصفوف وتهاوت المقاومة ، ولم يبق بعدهم للخريت ومن نجا من عصابته غير الفرار ..

فروا . وأمعنوا ، حسبما استطاعت أن تحملهم الأقدام ، وحيثما يسع القلوب أن تثوب .. ولم يكن لهم أن يقروا بجيرة ترتد منها الأخبار أو تبلغها العيون ، فآثروا اللياذ بأبعد منأى ما كان أحراهم بأن يجاوزوه لولا أن حال دونهم اليم ، فضربوا خيامهم على الماء ..

عسكروا في البحرين ، بأبعد بقعة تطولها يد الطراد ، بعد أن تقطعت أنفاسهم على أرض فارس ، من الشمال للجنوب ..

وكتب معقل إلى الإمام :

« .. لقينا المارقين وقد استظهروا علينا بالمشركين ، فقتلنا منهم ناسا كثيرا . ولم نعد فيهم سيرتك . فلم نقتل منهم مدبرا ولا اسيرا ، ولم نذفف على جريح . وقد نصرك الله والمسلمين .. » .

وقرىء الخبر في الكوفة على الناس ، ليشيروا ..

فأجمعوا الرأى :

« يا أمير المؤمنين .. نرى ان تكتب إلى معقل ، يتبع آثارهم ، ولا يزل في طلبهم حتى يقتلهم أو ينفيهم من ارض الإسلام .. » .

فانفــذ ما راوا على الأثر . فما كان ليمطل قط بشــورى الامة ، ولا ليستبد دونها برأيه ..

وبعث إلى معقل ، يأمره :

« .. أحسنتم البلاء ، وقضيتم ما عليكم . فاسأل عن اخى بنى ناجية ، فإن بلغك انه استقر في بلد من البلدان فسر إليه حتى تقتله ، أو تنفيه .. » .

٥

مرة اخرى عادت المطاردة تشتد بين الفريقين ، تباريا على طى الارض ، وقطع الزمن ، إلى غاية تسود فيها إحدى الطائفتين ، فإما قرار وإما تغيير ..

قرابة عامين كاملين ، بعد صفين ، وغب التحكيم ، طارد النظام التمرد ، على رقعة الأرض الممتدة من حاضرة الدولة عند شط الفرات إلى سيف البحر عند الخليج ، يتعاقبان تعاقب الليل والنهار ، ويتتابعان كفرضى رهان .. وكلما اوشك الفلج ان يقع في سهم الدولة، سارع العصيان فنفض غبرة الهزيمة ، واستوى على سوقه .. ثم لقف انفاسه ، ونظم صفوفه ، وراح يبعث الصراع من جديد ..

إصرار مريد ، وعناد صارم ، وعزم متشبث من جانب الفئة الخارجة ، لو انها انفقت في رفع راية الدين ، وإعلاء كلمة المسلمين ، لذهبت ، على مدى الاعصر ، مثلا في التمسك بالمبدأ لا يطاوله شبيه ولا يعلوه قرين .. ولكنها انفقت في نزوة انجبتها جهالة حمقة ضالة ، وعصبية آثمة عمياء كطلع خبيث !..

فللصلف والهوى والخيانة كانت دعوة الخريت . ولوجه الشيطان لا لوجه الله .. وها هو الآن يسفر عن خبيئة ضميره ، فإذا هو ينقض بفعله كل ما ادعاه وتنادى به بين الناس من دفاعه عن الحق ، وغضبه للكتاب ، لينصر الكافر والآبق والضليل على كلمة الحق وشريعة الكتاب ..

ليس امره إذن امر من يعمل لمبدأ ، ويجهد لغرسه في الصدور ، وتطبيقه في الحياة ، بمنطق اللسان ومقطع السنان .. وكيف يكون ، وانه ليحالف ــ ليبلغ وطره من امرة الإمام ــ زمرة فاسقة تعيش في رحاب الشيطان !..

وكان امرأ ذا خديعة ومكر . تستوى عنده الوسائل ، شريفها وخسيسها ، ما دامت تحقق له غرضه .. وما له اليوم من مقصد إلا نفسه التى غدت لعبة في ايدى مطارديه لن تلبث اصابعهم ان تتقبض علبها وتعتصرها بعد أن تحلقوه ، واوشكوا ان يطبقوا عليه ..

فاستمان خبثه ..

مضى إلى الخوارج ممن حوله ، يرفع شعارهم ، ويؤكد لهم سلامة ما يعتنقون ..

لا حكم إلا لله !..

وقال لهم :

« إنى ارى رايكم .. إن عليا ما كان ينبغى له أن يحكم الرجال في دين الله .. »

وذهب للعثمانية ، الذين نقموا على الإمام حين وهموا ان عليه دم عثمان ..

تباكى لدعواهم ، وقال :

« انا على رايكم .. لقد قتل عثمان مظلوما معقولا .. »

وانثنى لمن منعوا الصدقات يزين لهم فعلهم إذ ثلموا ذلك الثلم في الإسلام ، ويحثهم ان يظلوا عليه :

« شدوا ايديكم على صدقاتكم ، ثم صلوا بها ارحامكم ، وعودوا إن شئتم على فقرائكم .. »

وعندما علم بارتداد كثيرين عن الإسـلام إلى النصرانية التى فارقوها من قبل ، لم يحاول أن ينهاهم ، ولا أن يردهم عما وقعوا فيه .. بل اتخذ من ارتدادهم وسيلة لربطهم به ، وانتصارهم له ..

أسرع يدعوهم إلى الثبات على ردتهم :

« اتدرون ما حكم على فيمن اسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية ؟.. لا والله لا يسمع له قولا ، ولا يرى له عذرا ، ولا يقبل

منه توبة ، ولا يدعوه إليها .. وإن حكمه فيه أن يضرب عنقه ساعة يستمكن منه .. ولن ينجيكم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ، وقتالهم !.. »

وكذلك فعل بعلوج العجم ، وناقمة الأكراد ، ومن إليهم من أنصار العنصرية ، وأعداء الدين ، وإنهم لأدنى من سواهم إلى الانضمام لكل حركة تبتغى هدم الإسلام ..

دعوة ظالمة ، وأسلوب أظلم : نهج الرجل الذى لبس ثوب الإصلاح ، ليبدو للناس وهو الثائر على الضلال ، المدافع عن الحق ، الغاضب لكتاب الله ..

لكن الرياء شفاف . والخبث كسيح . وخداع الناس كلهم محال، قصير عمره وإن طال ..

.. واطلت النهاية !..

فلم يكد معقل يبلغ البحرين ، حتى بادر — قبل أن يشهر سيفا في وجه ذلك الخائن وعصبته — إلى إذاعة بيان من الإمام ، على أهل الإقليم يقول لهم فيه :

« من عبد الله على أمير المؤمنين

إلى من قرىء عليه كتابى هذا من المسلمين والمؤمنين ، والمارقين والنصارى والمرتدين .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإنى أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه .. ..

فمن رجع منكم إلى رحله ، وكف يده ، واعتزل هذا المارق الهالك المحارب .. فله الأمان على ماله ودمه .

ومن تابعه على حربنا ، والخروج من طاعتنا .. استعنا بالله عليه .. » .

واتبع معقل إذاعة البيان على الناس ، براية أمان نصبها لهم على

أعين الخريت والذين لاذوا بشرذمته .. حتى إذا تطلعت إليها الخواطر، وتعلقت بها الأنظار، انطلق ينادي على الملأ الحاشد، ويعاود نداءه مرات ومرات :

« من أتى هذه الراية فهو آمن — إلا الخريت وأصحابه الذين نابذوا أول مرة .. » .

وفعل النداء فعله على الأثر . فكأنما كسفة من سحاب ثقيل بددتها الريح، أو كأنما جدار وانهار كانت جموع الخريت !..

الزحام حول المارق يرق . الصفوف تتخلخل . الحشود تنجاب .. ليبدو الخائن عاريا مكشوفا بموقعه إلا من جنة واهية من عصابته كنسيج عنكبوت، أو كديباجة رثة غزتها الخروق !..

دقائق ولحظات من عمر قلقه طالت عليه كالأيام وهو يشهد الناس يتفرقون عنه . يتقطعون من شرذمته فرادى، وجماعات جماعات لينفضوا عنه . ويهرعون، خيلا ورجلا، إلى موقع الراية البيضاء كأنما يطيرون بجناح .. فإن هي إلا سويعة حتى غدا الخريت وما بجانبه من جيشه الكثيف إلا شوبة قومه الذين لا يملكون تنائيا عنه بعد أن صدهم عن التنائي النداء !..

وتلفت فيمن بقوا إلى جواره كالمضيع . قد ثقل قلبه، وغامت عينه، واهتز لسانه يحاول أن يبث في نفوسهم ما افتقرت نفسه إليه من ثبات :

« .. إمنعوا اليوم حريمكم !.. قاتلوا عن نسائكم وأولادكم !..» .

فتلاغظ عليه أصحابه، حسرة وندما . وصاح به منهم عاذل ناقم يلوم :

« هذا والله ما جرته علينا يدك .. ولسانك .. » .

فما استطاع إلا أن يقول بلهجة اليائس المحسور :

« سبق السيف العذل !.. قاتلوا !.. فوالله لئن ظهروا عليكم ليقتلنكم وليسبينكم .. » .

وكان لا بد لأمره ان يصير إلى ما خشى ان يكون ..

فسرعان ما نهض له معقل برجاله ..

بدا فحرضهم ، والإيمان دليله ، والثقة ملء قلبه ، والسلاح في الاكف على اهبة التبارى إلى الرقاب !..

« أيها الناس .. اما تدرون ما سيق إليكم في هذا الموقف من الأجر العظيم ؟.. إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة ، وارتدوا عن الإسلام ، ونكثوا البيعة ظلما وعدوانا .. وإنى شهيد لمن قتل منكم بالجنة . ولمن عاش بأن الله يقر عينه بالفتح والغنيمة .. » .

وسرح ميمنته ، دون بقية الجيش ، تقاتل أعداءه ..

ثم ردها وسرح إليهم ميسرته ..

حتى إذا راى قتال جناحيه قد نال من القوم ، مع ما بدا منهم من صبر وعناد ، وايقن انه قد اوهنهم ، وثب على فرسه يحمل بكل جمعه..

فإن هى إلا ساعة واحدة ثم انهارت مقاومة الباغين .. هلك صاحبهم بضربة سيف من النعمان بن صهبان .. وتناثر كثيرون حوله على الثرى قتلى وجرحى ، تناثر الورق الذابل من اعواده في عنفوان الخريف .. وتفرقت بقيتهم يمنة ويسرة بعيدا عن الحلبة كقطيع شرده الذعر ، يفرون من مناجل الموت إلى حبائل الاسر ..

وعندما تطهرت الارض من هذه الفتنة ، وسيق سبى المعركة إلى الكوفة ، حلا لمصقلة بن هبيرة ان يشرف بمنه على الاسرى . فما بلغ هذا به إلا ان اضاف لصورة التنكر لمبادىء الدين وقيم الاخلاق التى رسمها الخريت !!.. اضاف خيانة الأمانة إلى خيانة العهد . والفرار من الوفاء إلى الغدر . والخوف من الحق إلى حربه . والانتقاض خشية وطمعا إلى الانتقاض عنوة بالسلاح ..

واسدل الستار بعد عامين على محنة مما امتحن به عهد على ، فإذا هى محنة خلقية قبل ان تكون محنة سياسية . وشرخ غائر في جدار الإسلام قبل ان يكون شرخا في إمرة الإمام !..

تم بحمد الله الجزء السابع

ويليه الجزء الثامن والأخير